



أصل التفاوت بين الناس

ترجمة: عاود زحيمر

تأليف: جاك جاك روسو



دار العالم العربي

منتدی سور الازبکیہ

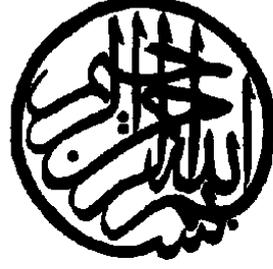
WWW.BOOKS4ALL.NET

[*https://twitter.com/SourAlAzbakya*](https://twitter.com/SourAlAzbakya)

<https://www.facebook.com/books4all.net>



أَصْلُ التَّفَاوُتِ بَيْنَ النَّاسِ



٢ شارع امتداد رمسيس (١) - مدينة نصر - القاهرة

تليفاكس: ٢٤٠٥١٤٩٨. ٢٤٠٢٤٦١٢

e. mail: af _ madkour @ yahoo . com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى: يناير ٢٠١١ م / صفر ١٤٣٢ هـ

رقم الإيداع: ٢١٨٥٢ / ٢٠١٠

الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٤٩٥٠٠٤٩٠٠



اللجنة الدولية لترجمة الروائع الإنسانية
(الأونسكو)

كتاب كمال روسو

أصل النماذج

من الشعر

ترجمة

عادل زعبيتر

بيانات الفهرسة المكتبية
(إعداد: إدارة الشؤون الفنية بدار الكتب المصرية)

روسو، جان جاك، ١٧١٢ - ١٧٧٨.

أصل التفاوت بين الناس /

جان جاك روسو؛ ترجمة عادل زعيتر ..

القاهرة: دار العالم العربي، ٢٠١١.

١٤٤ ص؛ ٢٤ سم ..

تدمك: ٠٤٩٠٠٠٤٩٥٠٠٩٧٧٠٩٧٨

١. الفلسفة الحديثة

أ. زعيتر، عادل (مترجم)

ب. العنوان

ديوى ١٩٠

(١)

مقَدِّمَةُ المَترجمِ

كان جان جاك رُوسُو في رسالته عن تأثير الفنون والعلوم في الأخلاق قد أقام الدليل على أنها أفسدا الأخلاق، وأوجبا شقاء الإنسان مُدْعِيًا أن الترف والحضارة من نتائجها، قائلًا بالرجوع إلى حال الطبيعة، ومما ذهب إليه في هذه الرسالة كَوْنُ الثَّقَافَةِ أَقْرَبَ إِلَى الشَّرِّ مِنْهَا إِلَى الخَيْرِ، وَكَوْنُ التَّفَكِيرِ مَنَاقِضًا لِطَبِيعَةِ الْإِنْسَانِ، وَكَوْنُ الْفَضِيلَةِ وَالْأَمَانَةِ وَالصِّدْقِ لَا أَتْرَاهَا فِي غير الحال الطبيعية حيث لا علوم ولا فنون.

وَكَتَبَ رُوسُو رسالته تلك بقلم حارٍّ وعاطفة جارفة، فجاءت مبتكرة في مجتمع بلغ الغاية من المدنية مخالفاً عليه الجمهور، ويُعَدُّ رُوسُو في رسالته تلك كالمحامى الذى يلتزم طرفاً واحداً في المرافعات، فيضَعُ تصديقُ جِدِّيَّتِهِ في تمثيل دوره، ولذلك لا تتجلى أهمية رسالته تلك في اشتغالها على مذهب إيجابى، بل في كونها مفتاحاً لنشوء رُوسُو الذهنى، وفي كونها مرحلة مؤدية إلى «أصل التفاوت»، فإلى «العقد الاجتماعى».

و«أصل التفاوت» هو ما نقدم تَرْجَمَتَهُ الآن بعد أن قَدَمْنَا تَرْجَمَةَ «العقد الاجتماعى».

نَشَرُ رُوسُو كتاب «أصل التفاوت» في سنة ١٧٥٥ مُقَدِّمًا إِلَى جُمْهُورِيَّةِ جَنيفِ، وَتَدُلُّ كَلِمَةُ «الطبيعة» هنا على تطورٍ كبير، فلا يعارض رُوسُو بها شرور المجتمع معارضةً فارغةً، بل تنطوي على أمورٍ إيجابية، فنرى نصف «أصل التفاوت» يشتمل على وصفٍ خيالى لحال الطبيعة التى يكون الإنسان فيها محصوراً ضِمنَ أضيْقِ مجالٍ مع قليلٍ احتياجٍ إلى أمثاله، وقليلٍ اكترابٍ لِمَا وراء احتياجاتِ الساعةِ الحاضرة.

وفي هذا الكتاب صرَّحَ رُوسُو بأنه لا يفترض وجودَ الحال الطبيعية فعلاً، وإنما يستحسن حالاً من الممكنة متوسطةً بين الحال الطبيعية، والحال الاجتماعية يحافظُ الناسُ بها على البساطةِ ومنافعِ الطبيعة، ويظهر من تعليقات رُوسُو على متن الكتاب أنه لا يريد رجوعَ المجتمعِ الفاسدِ الحاضرِ إلى حال الطبيعة، وإنما يعدُّ المجتمعَ أمراً لا مفرَّ منه مع فساده، وهو يُعَلِّلُ هذا الفسادَ بالتفاوت بين أفراد المجتمع في المعاملات والحقوق، فيَتَغَنَّى بِالْإِنْسَانِ الطَّبِيعِيِّ الطاهرِ، ويقول بتلك الحال المتوسطة حيث تسودُ المساواة.

وقد وُجِدَ من يؤخذ رُوسو على سلوكه منهاج التاريخ في «أصل التفاوت»، مع أنه لم يَحْرِضْ على إلباس هذا الكتابِ ثوبًا تاريخيًا، وانتحال المناحي التاريخية الزائفة من خصائص القرن السابع عشر، والقرن الثامن عشر، ورُوسو لم يبالِ بهذه المناحي.

ويُعَدُّ كتابُ «أصل التفاوت» هذا مَدْخَلًا لكتاب «العقد الاجتماعي»، الذي ظهر سنة ١٧٦٢م، لا بد منه للوقوف على ما اشتمل عليه «العقد الاجتماعي» من أصول ومبادئ، وقد نقلنا إلى العربية كتاب «العقد الاجتماعي»، العظيم الشأنِ وتَمَّ نشره مستقلًا، وفي «العقد الاجتماعي» حمل رُوسو على الرُّقِّ وعدم المساواة، وناضل عن حقوق الإنسان وأقامها على طبيعة الأمور، وقال إن هَدَفَ كُلِّ نظامٍ اجتماعيٍّ وسياسيٍّ هو حفظُ حقوقِ كُلِّ فردٍ، وإن الشعبَ وحده هو صاحبُ السيادة، وكان رُوسو يَهْدِفُ في «العقد الاجتماعي» إلى النظام الجمهوري، فَتَحَقَّقَ هذا النظامُ بالثورة الفرنسية بعد ثلاثين سنة حين أُخِذَ «العقد الاجتماعي» إنجيلَ هذه الثورة.

ولم يقل رُوسو بحكومات زمنه لمنافاتها للطبيعة، ويقومُ مذهبه على كونِ الإنسانِ صالحًا بطبيعته، محبًّا للعدل والنظام، فأفسده المجتمعُ وجعله بانسًا، والمجتمعُ سَيِّئٌ لأنه لا يساوي بين الناسِ والمنافع، والتملكُ جائزٌ لأنه مُقْتَطَعٌ من المُلْكِ الشائعِ الذي يجبُ أن يكون خاصًّا بالإنسانية وحدها، فيجبُ أن يُقْضَى على المجتمعِ إذنًا، وأن يُرْجَعَ إلى الطبيعة، وهنالك يتفقُ الناسُ بعقدٍ اجتماعيٍّ على إقامة مجتمعٍ يَرْضَى به الجميع، فيقيمون بذلك هيئةً تَمْنَحُ الجميع ذاتَ الحقوق، وتقوم سيادةُ الشعبِ مقامَ سيادةِ الملكِ، ويتساوى فيها الناسُ، وتُنظَّمُ فيها الثروةُ والتربيةُ والديانةُ.

ويُعَدُّ رُوسو من أعظمِ من أنجبتهم فرنسا من الكُتَّابِ، غير أن آراءه تُقْبَلُ أو تُرْفَضُ على حسبِ الأمزجةِ، وهو يُحِبُّ أو يُكْرَهُ ككاتبٍ أوحى بالثورة الفرنسية قبل كلِّ شيءٍ.

ويوجدُ لكتبِ رُوسو مَعْنَيَانِ، فبهما يُنْفَذُ إلى الذهنية التي كانت سائدةً للقرن الثامن عشر، وهي ذاتُ أثرٍ بالغٍ في حوادث أوربة التي وقعت فيما بعد، وبهذه الكتبِ يُعْتَمَلُ رُوسو في عالم

الفكر السياسي مرحلة الانتقال من النظرية التقليدية للدولة في القرون الوسطى إلى الفلسفة الحديثة حول الدولة.

ولم يعالج رُوسو نُظْمَ الدول الموجودة، خلافاً لما صنَّع مونتسكيو وفولتير؛ فبينما كان مونتسكيو وفولتير، اللذان هما من أبناء الطبقة العليا، يقتصران على المطالبة بالإصلاح السياسي والديني، وتلم شوكة الاستبداد، كان ابنُ الشعبِ رُوسو، الذي قضى شباباً قاسياً، ينتهي بآلامه إلى ضرورة تجديد الدولة والمجتمع تجديداً كلياً، ومن قولِ رُوسو: «لم يهدف مونتسكيو إلى معالجة مبادئ الحق السياسي، وإنما كان يكتفى بمعالجة الحق الوضعي (القانون) للحكومة القائمة، فلا يمكن أن يبدو اختلاف بين دراستين أكثر من هذا»، ومن ثمَّ يكون رُوسو قد تمثَّل موضوعه مختلفاً عن موضوع «روح الشرائع» كلَّ الاختلاف.

ولا نرى أن ندرُس حياة رُوسو في هذه المقدمة، فقد فعلنا ذلك في مقدمتنا لترجمة «العقد الاجتماعي» التي اقتطفنا ما تقدم منها، والتي تُعدُّ مقدمةً لهذا الكتاب أيضاً، فعلى هذا القصد نُمسكُ القلمَ عن بيان سيرة رُوسو هنا، مكتفين بها تقدم، مُحيلين القارئَ على تلك المقدمة.

«نابلس»

محمد عادل زعير

(٢)

التَّرْجَمَة

رسالة

في هذا السؤال الذي اقترحه أكاديمية ديجون:

ما أصل التفاوت بين الناس.. وهل أجازة
القانون الطبيعي؟

«يجب علينا أن نعدَّ طبيعيًا ما نُظِّم وَفَقَّ الطبيعة
من أمور، لا ما فسَدَ منها».

(أرسطو، السياسة، الباب الأول، الفصل الثاني)

إلى جُمْهُورِيَّةِ جَنيفَ

أيها السادةُ المُبَجَّلُونَ الأَجِلَاءُ الكرام!

بما أننى اعتقدتُ أنه لا يستطيع غيرُ المواطنِ الصالح أن يُقدِّم إلى وطنه من التكريم ما يُمكنه قبولُه؛ فإننى عَمِلْتُ ثلاثين سنةً لأكونَ أهلاً لأن أقدمَ إليكم تحيةً عامةً، فتَقُومُ هذه الفرصةُ السعيدةُ من بعض الوجوه مقامَ ما قد تنطوى عليه جهودى من نقصٍ، وحَسِبْتُ أنه يُباح لي التأملُ في الغيرةِ التى تُغرينى أكثرَ مما في الحقِّ الذى يجبُ أن يُمهِّد لي السبيلَ، وبما أنه كان لي شرفُ الوِلاَدَةِ بينكم؛ فكيف يُمكننى أن أنعمَ النظرَ في المساواة التى وَضَعَتْها الطبيعة بين الناسِ، وفي التفاوتِ الذى أقاموه؛ من غير أن أفكِّرَ في الحكمةِ البالغةِ التى مُزِجَتْ بها تلكَ وهذا مُزْجاً مُوفِّقاً في هذه الدولة، فيسعيان من أقرب الطرقِ إلى القانونِ الطبيعى، ومن أكثرِها ملاءمةً إلى المجتمعِ، حفظاً للنظامِ العامِّ وسعادةِ الأفراد؟! وإنى، حين بحثتُ عن أصلحِ القواعدِ التى يُمكن العقلُ الرشيدُ أن يُملِيها حَوْلَ نظامِ حكوميةٍ، بلغتُ من بَهِرِ النظرِ باكتشافِ وجودِها كُلِّها جاريةً في حكومتكم ما كنتُ أرى معه عدمَ استطاعتى إعفاءَ نفسى من تقديمِ هذه الصورةِ عن المجتمعِ البشرى إلى هذا الشعبِ الذى يَلُوح أنه أكثرُ الشعوبِ أخذاً بمحاسِنِها واجتناباً لمساوئِها، ولو لم أكنُ قد وُلِدْتُ داخلَ أسوارِكم.

ولو كان لي اختيارُ محلِّ وِلاَدَتى لاخترتُ مجتمعاً بالغاً من الاتساعِ ما يُجَدُّ معه بَمَدَى الخصائصِ البشرية، أى بإمكانِ حُسْنِ الحكومةِ، حيثُ كلُّ واحدٍ مساوٍ لعمله، فلا يُلْزَمُ أحدٌ بأن يُقَوِّضَ إلى آخرين بوظائفَ كان قد عُهدَ إليه فيها، وإنَّ دولةً يتعارفُ جميعُ الناسِ فيها لا يُمكنُ مكابِدَ الرذيلةِ الخفيةِ، ولا اتِّضاعِ الفضيلةِ، أن يغيبا عن أنظارِ الجمهورِ وحُكْمِهِ فيها، فتَجْعَلُ هذه العادةُ اللطيفةُ في الالتقاءِ والتعارفِ حُبَّ الوطنِ حُبًّا للمواطنينِ أكثرَ من جعله حُبًّا للأرضِ.

وكنت أودُّ أن أولدَ في بلدٍ لا يُمكنُ أن يكونَ للسيدِ والشعبِ فيه غيرُ مصلحةٍ واحدةٍ بذاتها، وذلك لكى تميلَ جميعُ حركاتِ الآلةِ إلى السعادةِ العامة، وبما أن هذا لا يُمكنُ أن يكونَ ما لم يكنِ الشعبُ والسيدُ شخصًا واحدًا، فإننى أودُّ لو وُلِدْتُ في كَنَفِ حكومةٍ ديموقراطيةٍ معتدلةٍ بحكمة.

وكنت أودُّ أن أحيَا وأموتَ حُرًّا؛ أى أن أبلغَ من الخضوعِ للقوانين ما لا أستطيعُ معه، ولا يستطيعُ أحدٌ معه، إلقاءَ النَّيرِ المُكْرَمِ عن الكاهلِ، هذا النيرِ الشاقِ الهينِ الذى تحمِلُه أكثرُ الرؤوسِ تكَبْرًا بدعةً كما لو كانت قد خُلِقَتْ لكيلا تحمِلَ غيره.

وكنت أودُّ، إذن، ألا يكونَ في الدولة مَنْ يَقْدِرُ أن يقولَ إنه فوقِ القوانينِ، وألا يكونَ في الخارجِ مَنْ يَقْدِرُ أن يُحمِلَ ما تُحمَلُ به الدولة على الاعترافِ بسلطانه؛ وذلك لأنه إذا ما وُجِدَ في الحكومةِ، مهما أمكنَ أن يكونَ نظامُها، رجلٌ غيرُ خاضعٍ للقوانينِ كان الباقونَ تابعينَ لهواه^(١٥)؛ وذلك لأنه، إذا ما وُجِدَ رئيسٌ قومى، وآخرُ أجنبىٌّ فإنه، مهما كان اقتسامُ السلطةِ الذى يُمكنُهما أن يأتياه، يتعذرُ أن يُطاعَ كُلُّ منهما كما يجب، وأن تُحسَنَ إدارةُ الدولة.

وما كنتُ لأختارَ العيشَ في جُمهوريةٍ ذاتِ نظامٍ جديدٍ، مهما أمكنَ أن تكونَ قوانينُها صالحةً؛ وذلك خشيةً أن تكونَ الحكومةُ قد كُوِّنت على غيرِ مقتضياتِ الوقتِ، فتختلفُ هى والمواطنونَ الجُدُدُ، أو يختلفُ المواطنونَ والحكومةُ الجديدة، وتكونَ الدولةُ عُرضَةً للارتجاجِ والانهيارِ منذ ولادتها تقريبًا، وذلك لأن الحريةَ هى كتلك الأغذية الجامدةِ والعُصارِيَّةِ، أو تلك الخُمورِ السَّخِيَّةِ الصالحةِ لتغذيةِ وتقويةِ البِنِيَّاتِ القويةِ المتعوِّدةِ إياها، ولكن مع إرهاقها وتقويضها وإسكارها الضعفاءِ والنَّخافِ الذين لم يُخلِّقُوا لها قَطُّ، وإذا ما تَعَوَّدتِ الشعوبُ سادةً ذاتَ مرةٍ عادت لا تستغنى عنهم، وإذا ما حاولتِ الشعوبُ إلقاءَ النَّيرِ ابتعدت عن الحريةِ بالمقدارِ الذى تُحَوِّلُها به إلى تحمُّلِ جامعٍ معاكسٍ لها، وتُسَلِّمُها ثوراتها دائمًا تقريبًا إلى غُورَةٍ لا يفعلون غيرَ إلقاءِ قيودها، ولم يكنِ الشعبُ الرومانىُّ نفسه قَطُّ، هذا الشعبُ الذى هو مثالٌ لجميعِ الشعوبِ الحرةِ،

(١٥) نجد مدلول هذا الرقم وما يليه من الأرقام التى هى بين هذه الأقواس فى قسم التعليقات الواقعة فى آخر هذا الكتاب. (الترجم)

قادراً على الحكم في نفسه عندما تفلت من ظلم آل تازكين، فهو، إذ أذلَّ بالعبودية والأعمال الشائنة التي فَرَضَها عليه لم يَغْدُ في البُداءة غيرَ كونه رُعاغاً أغيباء تجبُّ مداراتهم والحكمُ فيهم بأعظم حكمة، وذلك لكي تنالَ بالتدرج هذه النفوسُ الواهنة، وإن شئت فقل المتوحشة في عهدِ الطغيانِ، بتَعَوُّدها استنشاقَ هواءِ الحريةِ الصحيِّ مقداراً فمقداراً، تلك المئانة الخُلُقِيَّة وتلك العِزَّة الباسلة اللتان جعلتاها أكثرَ الشعوبِ أهلاً للاحترام، وكان على أن أبحثَ لوطني، إذنً عن جُمهوريَّة سعيدة هادئة ضاعَ قَدَمُها في ليلِ الزمنِ من بعض الوجوه، فلم تُخْتَبَرْ بغيرِ صَدَمَاتٍ صالحةٍ لإظهارها وتمكينها خُلُقَ الشجاعةِ وحبِّ الوطنِ، وحيث يكون المواطنون المتعودون استقلالاً حكيماً زمناً طويلاً جديرين بأن يكونوا أحراراً، لا أحراراً فقط.

وكنْتُ أودُّ أن أختارَ لنفسي وطناً مصروفاً عنه لعجزِ مجْدودٍ^(١)، وعن حبِّ ضارٍّ للفتوح، مضموناً بموقعٍ أكثرَ حظاً أيضاً، وذلك عن خَوْفِ غُدُوِّه فتَحاً لدولةٍ أخرى، وذلك كمدينةٍ حُرَّةٍ واقعةٍ بين شعوبٍ كثيرةٍ ليس لأى واحدٍ منها مصلحةٌ في الاستيلاءِ عليها، ويكون لكلِّ واحدٍ منها مصلحةٌ في منع الأخرى من الاستيلاءِ عليها، أى أن أختارَ جُمهوريَّةً لا تُثِيرُ طموحَ جارِتها مطلقاً، ويُمكن أن تعتمد على مساعدةِ هذه الجاراتِ اعتماداً مناسباً عند الضرورة، ومن ثَمَّ لا يُمكنُ الدولة الجُمهوريَّة ذات الحظِّ في موقعها بهذا المقدارِ أن تُحَسِّسَ غيرَ نفسها، فإذا كان مواطنوها يمارسون استعمالَ الأسلحةِ، فذلك لِيُبْقُوا في بلدِهم تلك الحميةَ الحربيَّةَ وتلك العِزَّةَ الباسلةَ الملائمتين للأحرار، واللتين تُغْذِيان ذوقَهم أكثرَ من ضرورةِ تَوَلِّيهم أمرَ دفاعهم الخاصِّ.

وكان على أن أبحثَ عن بلدٍ يكون حَقُّ الاشتراعِ فيه مشتركاً بين جميع المواطنين، فمن ذا الذي يستطيعُ أن يَعْلَمَ أحسنَ من هؤلاءِ شروطَ العيشِ معاً في المجتمعِ عينه؟! ولكنني ما كنتُ لأستحسنُ استفتاءاتٍ مماثلةً لما قام به الرومانُ حيث كان رؤساءُ الدولة ومَن هم أحرصُ الناسِ على بقائها ممنوعين من المباحثات التي تتوقفُ عليها سلامتها في الغالبِ، وحيث كان الحكامُ محرومين، عن تناقضي محالٍ، ما يتمتعُ به أحقرُ المواطنين من حقوقِ.

(١) المجدود: ذو الحظ.

وكنتُ، على العكس، أرغبُ لوقفِ المشاريعِ المفْرِضةِ السيِّئةِ المفهومِ، والبِدَعِ الخطِيرةِ التي قَصَّتْ على الأثنيين في نهاية الأمر ألا يكونَ لكلِّ واحدٍ سلطةً اقترحِ قوانينَ جديدةً وَفَقَّ هواه، أن يكونَ هذا الحقُّ خاصًّا بالحكامِ وحدهم، وأن يقومَ هؤلاء بذلك مع حَذَرٍ كثيرٍ، وأن يُمَكِّنَ الشعبُ من الاحتفاظِ بحقه في الموافقة على هذه القوانين، وأن يكونَ نشرُها من التعذرِ بغيرِ احتفالٍ كبيرٍ ما يكونَ معه قبلَ قلبِ النظامِ من الوقتِ الكافي ما يُقنَعُ فيه بكونِ قِدمِ القوانينِ البالغِ على الخصوصِ هو الذي يجعلها مقدسةً محترمةً، وأن يَزْدَرِيَ الشعبُ من قُوْرِهِ ما يرى تبدلَهُ كلَّ يومٍ من القوانينِ، وأن يُعَلِّمَ أنه بتَعَوُّدِ إهمالِ العاداتِ القديمةِ بحجةِ الإصلاحِ تُتَّخَذُ في الغالبِ شُرُورٌ كبيرةٌ إصلاحًا لِمَا هو دونها.

وكنتُ أجتنبُ على الخصوصِ، كسيئةِ الإدارةِ بحكمِ الضرورةِ، جُمهوريةً يَتَعَدَّدُ الشعبُ فيها إمكانَ استغنائها عن حكامه، أو عدمَ تركه لهم غيرَ سلطةٍ وقتيةٍ فيحتفظ عن عدمِ تَرَوُّدِ ببادارةِ الأمورِ المدنيةِ، وتنفيذِ قوانينه الخاصةِ، فهذا ما وَجَبَ أن كان عليه نظامُ الحكوماتِ الأولى الغليظُ قُوْرُ خروجها من الحالِ الطبيعيةِ، وهذا ما كانت عليه إحدى النقايسِ التي قضت على جُمهورية أثينة.

ولكنني كنتُ أختارُ مجتمعًا يكتفى الأفرادُ فيه بتأييدِ القوانينِ، وبتقريرهم أهمَّ الشؤونِ العامةِ ضمنَ هيئةٍ، وبناءً على طلبِ الرؤساءِ، فيُنشِثون محاكمَ محترمةً، ويميزون بين مختلفِ الدوائرِ بعنايةٍ، ويتخبون بين عامٍ وعامٍ أقدرَ مواطنيهم وأنزههم لإدارةِ العدلِ والحكمِ في الدولةِ، كنتُ أختارُ مجتمعًا تكونُ فضيلةُ الحكامِ فيه شاهدةً على حكمةِ الشعبِ فيوجبُ كلَّ من الفريقين شرفَ الآخرِ مقابلةً، فإذا ما ظَهَرَ في مثلِ هذه الحالِ من سوءِ التفاهمِ المشؤومِ ما يُكْثِرُ الوِفاقَ العامَّ، فإن أدوارَ العمايةِ والضلالِ نفسها تُوسَمُ بدلائلِ الاعتدالِ والتقديرِ المتبادلِ، وباحترامٍ شاملٍ للقوانينِ، أي بعلاماتٍ وضامناتٍ لوفائِ صادقٍ دائمٍ.

فتلك هي، أيها السادةُ المَبْجَلُونَ الأَجْلَاءُ الكرامُ، ما كنتُ أبحثُ عنه من المنافعِ في الوطنِ الذي كنتُ أختاره لنفسى، ولو أن العنايةَ الإلهيةَ أضافت إلى ذلك موقعًا رائعا وإقليمًا معتدلاً وبلدًا خصيبًا وأرغدًا ما يكون تحت السماء، ما كنتُ أرغبُ لكهالِ سعادتي في غيرِ التمتعِ بجميعِ

هذه الأطايب في صميم هذا البلد السعيد عائشاً هادئاً في مجتمعٍ ناعمٍ مع مواطنيٍّ مباشرًا
الإنسانية والمحبة وجميع الفضائلِ نحوهم وعلى مثالهم، تاركاً ورائي ما لرجلِ الخيرِ والوطنيِّ
الشريفِ من الذكرى المكرّمة.

ولو كنتُ أقلَّ سعادةً وأكثرَ حكمةً، فوجدتني مُلزماً بأن أختم حياةَ عاجزةٍ ذاويةٍ في أقاليمٍ
أخرى، أسفاباً طائلي على الراحة والسكينة اللتين كانت تحرمني إياهما شُبوبيَّةً غافلةً، لغذيتُ
نفسى بتلك المشاعرِ التي لم أكن لأقيدَ على اتخاذها في بلدي، ولو كنت مُفعماً بمودةٍ رقيقةٍ نزيهةٍ
تجاه مواطنيِّ البُعْداءِ، لَوَجَّهْتُ إليهم الكلمةَ الآتيةَ تقريباً:

«مواطنيِّ الأعزاء، بل إخواني، بما أن روابطِ الدم والقوانينِ تُوحّد بيننا جميعاً تقريباً، فإنه
يُخلو لي ألا أستطيع التفكيرَ فيكم من غيرِ أن أفكر في الوقتِ نفسه في جميعِ الأطايبِ التي تتمتعون
بها، والتي لا يوجدُ بينكم على ما يحتمل من يشعُر بقيمتها أحسنَ مني، أنا الذي أضاعها، وكلما
أنعمتُ النظر في وضعِكم السياسي والمدني قلَّ إمكانُ تصوري استطاعةِ أمورِ البشرِ أن تحتل
ما هو أطيبُ منها، وعندما يُبحثُ في جميعِ الحكوماتِ الأخرى عن ضمانِ أعظمِ خيرٍ للدولة،
يقتصرُ كلُّ شيءٍ على خِططٍ في الأفكارِ دانتها، وعلى الممكناتِ البسيطةِ جُهدَ الاستطاعةِ، وأما
أنتم فإن سعادَتكم قد كَمَلتْ، وليس عليكم غيرُ التمتعِ بها، وليس عليكم لتكونوا سعداءَ تماماً
غيرُ معرفتكم كيف تُقنعون بأن تكونوا هكذا، وأخيراً غَدت سيادتكم - المكتسبةُ أو المسترَدَّةُ
بحدِّ السيفِ، والتي حُفِظتْ مدةَ قرنينِ عن قيمةٍ وحكمةٍ - معترفاً بها اعترافاً تاماً عامّاً، وتُعِينُ
حدودكم وتؤيدُ حقوقكم وتؤكدُ راحَتكم معاهداتٍ مُكرّمةً، ونظامكم رائعٌ، فقد أملاه عقلٌ
عالٍ، وضميتَه دولٌ صديقةٌ ومحترمةٌ، ودولتكم مطمئنةٌ، فليس عليكم أن تخشوا حروباً ولا
فاتحين، وليس عندكم سادةٌ غيرُ ما وضعتموه من القوانينِ الحكيمةِ، ويعمَلُ بهذه القوانينِ
حكّامٌ صالحون من اختياركم، ولستم من الغنيِّ ما تتخشون معه عن نعيمٍ وما تخشرون معه
ذوقِ السعادةِ الحقيقيةِ والفضائلِ المتينةِ في الأطايبِ الفارغةِ، ولستم من الفقرِ ما تحتاجون معه
إلى المساعداتِ الأجنبية التي لا تُنعمُ صناعتكم بها عليكم، ولا يُكَلِّفكم شيئاً تقريباً حفظُ هذه
الحريةِ الثمينةِ التي لا تُصانُ لدى الأممِ العظيمةِ بغيرِ الضرائبِ المُفرطةِ.

وهل تستطيع أن تدوم إلى الأبد، وفي سبيل مواطنيها، ولتكون مثالا للشعوب، جمهورية تُدار بحكمة بالغة وتوفيق كبير؟! هذا هو الأمل الوحيد الذي يبقى لكم أن تصنعوه، والحذر الوحيد الذي يبقى لكم أن تتخذوه، وعليكم وحدكم يتوقف في المستقبل أن تجعلوا تلك السعادة دائمة بحكمة حسن استعمالها، لا أن تصنعوا سعادتكم، فقد كفاكم أجدادكم مؤونة ذلك، ويتوقف بقاؤكم على اتحادكم الدائم، وعلى إطاعتكم القوانين، وعلى احترامكم من يقومون بها، وإذا ما بقي بينكم أقل أثر مرارة، أو تريب فسارعوا إلى تبديده كخميرة شوم ينشأ عنها شقاؤكم وخراب الدولة عاجلا أو آجلا، استحلّفكم جميعا أن تعودوا إلى فؤادكم، وأن تستمعوا إلى صوت ضميركم الخفي، وهل يوجد بينكم من يعرف في العالم كيانا أكثر صلاحا ونورا واحتراما من حاكميتكم؟! ألا يُعطيكُم جميع أعضائها مثال الاعتدال وبساطة الطباع واحترام القوانين وأصدق وفاق؟! ضَعُوا بلا تحفظ، إذن، في رؤساء بالغي الحكمة تلك الثقة النافعة التي يكون العقل مدينا بها للفضيلة، وفكروا في كونهم ممن اخترتم، وفي كونهم يُزكون هذا الاختيار، وفي كون ضروب الشرف التي تحف من رفعتهم تعود إليكم بحكم الضرورة، ولا يرى بينكم أحد من قلة المعرفة ما يجهل معه كون ضياع قوة القوانين وسلطان حماها يؤدي إلى عدم استطاعة أحد أن يتمتع بالسلامة والحرية، ولم تترددون، إذن، أن تصنعوا عن طيبة قلب وطمأنينة نفس ما أنتم ملزمون بصنعه عن مصلحة حقيقية وعن واجب وعقل!؟

ولا تدعوا أثيما ولا خليا مشروما، قاتما على حفظ النظام، بغريكم عند الضرورة بإهمال ما لاكثركم نورا وغيره من آراء حكيمة، ولكن ليذم الإنصاف والاعتدال والرزانة البالغة الحرمة أمورا ناظمة لجميع خطواتكم، دالة جميع العالم فيكم على مثال شعب فخور متواضع محب لمجده حبه لحرية، واحذروا خاصة، وهذه آخر نصيحة مني، أن تصغوا إلى التفاسير الضارة والأحاديث السامة التي تكون عواملها الخفية أشد خطرا من الأفعال التي هي موضوعها، أجل، إن المنزل بأسره يستيقظ ويتب إلى أول صراخ من كلب الجراسة الصالح المخلص الذي لا يعوى إلا عند اقتراب اللصوص، غير أننا نمقت إزعاج تلك الكلاب الصخابة التي تفلت

الراحة العامة بلا انقطاع فلا تؤدى تحذيراتها المستمرة التى هى فى غير محلها إلى الإصغاء وقتما تكون ضرورية».

وانتم أيها السادة المَبَجَّلُون الأجلاء، وانتم أيها الحكام الأفاضل المحترمون، اسمحوالى بأن أقدم إليكم تحياتى وواجباتى على الخصوص، فإذا وُجد فى العالم مقامٌ صالحٌ لتكريم من يَشغَلُونه فذلك المقام هو الذى تُنعمُ به المواهبُ والفضيلة، فذلك هو المقام الذى جعلتم به أنفسكم أكفيا، فذلك هو المقام الذى رَفَعكم إليه مواطنوكم، وتُضيف مزيتهم الخاصة إلى مزيتكم بهاءً جديدًا، وبما أنه وقع اختياركم من قبيل أناسٍ قادرين على الحكم فى أناسٍ آخرين، وذلك للحُكم فيهم، فإننى أجدكم أعلى من جميع الحكام الآخرين، وذلك بالمقدار الذى يكونُ به شعبٌ حُرٌّ، ولا سيما الشعبُ الذى لكم شرفُ قيادته، فوق عامَّةِ الدولِ الأخرى بصائرهِ وعقلِهِ.

وليُسمَح لي بأن أذكرُ مثالا يجب أن يبقى منه أحسنُ الآثار، وأن يظلَّ ماثلا لقلبي على الدوام، ولا أذكر من غير أحلى حنانٍ ذكرى ذلك المواطن الفاضل الذى أرانى مَدِينًا له بوجودى، والذى عَلَّمنى فى صباى غالبًا أن أقوم بالاحترام الواجبِ نحوكم، ولا أزال أراه يعيشُ من عملٍ يديه، ويُغذِّى روحه بأعلى الحقائق، وأبصرُ تاييبَت وبلوتازك وغرُوشِيوس مختلطين أمامه بين آلاتِ حِرَفته، وأبصرُ بجانبه ابنا عزيزًا يتناولُ مع قليلِ ثمرةِ أرقٍ ما يَصُدُر عن أصلحِ الآباءِ من تعاليم، ولكن إذا كانت عَمَياتُ شبابٍ طائشٍ جعلتنى أنسى دروسًا بالغةً تلك الحكمة ذات حين؛ فلإن لي فى نهاية الأمرِ سعادةَ الإحساس بأنه ليس من السهلِ على تربيةِ مازجت القلبَ أن تُضَيِّعَ إلى الأبدِ مهما كان من مَيَلٍ إلى المنكِرِ.

أولئك، أيها السادة المَبَجَّلُون الأجلاء، مَنْ وُلِدُوا فى الدولة التى تَحْكُمُون فيها من المواطنين، ومن عامة السكان أيضًا، وأولئك هم الرجالُ الأذكياءُ المُعَلَّمُون الذين تدور حولهم - لدى الأمم الأخرى، وذلك باسمِ العمالِ والشعبِ - أفكارٌ بالغةُ الحِسنَةِ والإفك، ولم يكن والدى ممتازًا بين مواطنيه مطلقًا، وهذا ما أعتَرَفُ به مسرورًا، وهو لم يكن على غير ما كان عليه الآخرون، وهو،

مع ما كان عليه، لا يُجَدُّ بلِذَا لم يُبْحَثْ فيه عن مجتمعه، ولم يُتَعَهَّدْ فيه مجتمعه، حتى بمنفعة، من قِبَلِ أَكْثَرِ النَّاسِ صِلَاحًا، وليس من شَأْنِي وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وليس من الضَّرُورِيِّ، أنْ أُحَدِّثْكُمْ عَنِ الْإِكْرَامِ الَّذِي يُمَكِّنُ أَنْ يَنْتَظِرَهُ مِنْكُمْ أَنَا مِنْ هَذِهِ الْجِيلَةِ، أَنَا سِيسَاوُونَكُمْ بِالتَّرْبِيَةِ وَبِحَقُوقِ الطَّبِيعَةِ وَالْوِلَادَةِ، أَنَا سِ يُعَدُّونَ دُونَكُمْ بِإِرَادَاتِهِمْ، وَبِهَا هُمْ مَدِينُونَ بِه لِفَضْلِكُمْ مِنْ أَرْجَحِيَةِ يَمْنَحُونَهُ إِيَّاهَا، فَتَكُونُونَ مِنْ أَجْلِهَا مَدِينِينَ لَهُمْ بِضَرْبٍ مِنَ الشُّكْرَانِ بِدَوْرِكُمْ، وَأَعْلَمُ مَعَ السَّرُورِ الْحَارِّ مَقْدَارَ اللَّطْفِ وَالْعَطْفِ اللَّذِينَ تُعَدُّونَ بِهِمَا مَعَهُمْ اتِّزَانَ حَفَظَةِ الْقَانُونِ، وَمَقْدَارَ مَا تَرُدُّونَهُ مِنَ الْإِعْتَابِ وَالْعَنَايَةِ إِلَى مَنْ هُمْ مُلْزَمُونَ بِالْإِجْلَالِ وَالطَّاعَةِ نَحْوَكُمْ، وَهَذَا السَّلُوكُ زَاخِرٌ بِالْعَدْلِ وَالْحِكْمَةِ، وَهُوَ يَصْلُحُ لِأَنْ يُبْعَدَ بِالتَّدْرِيجِ ذِكْرِي مَا يَجِبُ نَسْيَانُهُ مِنَ الْحَوَادِثِ السَّيِّئَةِ لِكَيْلَا يُرَى ثَانِيَةً، وَهَذَا السَّلُوكُ هُوَ مِنَ الْخَصَافَةِ مَا يَجِدُ مَعَهُ هَذَا الشَّعْبُ الْمُنْصَفُ الْكَرِيمُ لَذَّةً فِي الْقِيَامِ بِوَجِبِهِ، وَمَا يُحِبُّ مَعَهُ أَنْ يُمَجِّدَكُمْ عَنِ طَبِيعَةِ، وَمَا يَكُونُ مَعَهُ أَشَدُّ النَّاسِ حِمَاسَةً لِتَأْيِيدِ حَقُوقِهِمْ أَكْثَرَهُمْ اسْتِعْدَادًا لِاحْتِرَامِ حَقُوقِكُمْ.

وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُجَارَ مِنْ حُبِّ رُؤَسَاءِ الْمَجْتَمَعِ الْمَدْنِيِّ لِمَجْدِهِ وَسَعَادَتِهِ، وَلَكِنْ مِنَ الشَّاقِّ عَلَى قَرَارِ النَّاسِ أَنْ يُبَدَى مَنْ يَعْذُونَ أَنْفُسَهُمْ حُكْمًا، وَإِنْ شِئْتَ فَقُلْ سَادَةٌ، لَوْطِنِ أَكْثَرَ قُدْسِيَّةً وَسُمُوءًا، حُبًّا لَوْطِنِ دُنْيَوِيٍّ يُغْذِيهِمْ، وَبِأَلَّا أَجِدُ مِنْ حِلَاوَةٍ فِي إِمْكَانِ قِيَامِي بِاسْتِثْنَاءِ بِالِغِ النَّذْرَةِ نَفْعًا لَنَا، فَاضْعُ فِي صَفِّ أَصْلِحِ مَوَاطِنِنَا حَفَظَةَ الْعَقَائِدِ الْمُقَدَّسَةِ الْغَيْرِ الْمَجَارِ لَهُم بِالْقَوَانِينِ، رُعَاةَ النَّفُوسِ الْأَجَلَاءِ الَّذِينَ تُحْمِلُ فَصَاحْتَهُمُ الْحَيَّةَ الْعَذْبَةَ إِلَى الْأَفْنَدَةِ مَا يَأْخُذُونَ فِي مَعَارِسَتِهِ بِأَنْفُسِهِمْ دَائِمًا مِنْ مَبَادِيِ الْإِنْجِيلِ! يَعْلمُ جَمِيعُ الْعَالَمِ مَقْدَارَ مَا يُزَاوِلُ بِهِ مِنْ نَجَاحٍ قَبْلَ الْوَعْظِ فِي جَنيفٍ، غَيْرَ أَنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ بَلَّغُوا مِنْ عَادَةِ سَمَاعِهِمُ الْقَوْلَ حَوْلَ أَمْرِ وَمَلَا حَفَظَتِهِمُ الْعَمَلَ بِأَمْرِ آخَرَ، مَا يُجِدُ مَعَهُ أَنَا قَلِيلِينَ يَعْلمُونَ مَقْدَارَ اسْتِبْلَاءِ رُوحِ النُّصْرَانِيَّةِ، وَقُدْسِيَّةِ الطَّبَاعِ وَالْقِسْوَةِ عَلَى النَّفْسِ وَالرَّافَةِ بِالْآخِرِينَ، عَلَى هَيْئَةٍ وَعَظْمَانَا، وَمِنْ الْمَحْتَمَلِ أَنْ كَانَتْ مَدِينَةُ جَنيفٍ وَحَدَّهَا هِيَ الَّتِي تُقَدَّمُ مَثَالًا مَمْتَعًا عَنِ اتِّحَادِ كَامِلٍ بَيْنَ مَجْتَمَعٍ مِنْ عُلَمَاءِ الْإِلَهَوَاتِ وَرِجَالِ الْأَدَبِ، فَتَرَانِي أَقِيمُ أَمَلِي فِي أَطْمَئِنَانِهَا الْأَبَدِيِّ عَلَى حِكْمَتِهِمْ وَعَاطِلِهِمُ الْمَعْرُوفِ أَمْرُهُمَا، وَعَلَى غَيْرَتِهِمْ حَوْلَ

سعادة الدولة، لمدى واسع، وألاحظ في الوقت نفسه، ومع غبطة مزوجة بعجب واحترام، مقدار ما يساورهم من مقت لما يتحمل من مبادئ كريمة هؤلاء الناس المقدسون البرابرة الذين يُقدّم تاريخهم غير مثال، فتراهم أقلّ ضناً بالدم البشري لتأييد حقوق الرّب المزعومة، أى لتأييد حقوقهم الخاصة، وذلك بنسبة ما يُعلّلون به أنفسهم من احترام ديمهم على الدوام.

وهل أستطيع أن أنسى ذلك النصف من الجمهورية الغالى الذى يُوجب سعادة النصف الآخر، فما ينطوى عليه من حلم وحكمة يزدى إلى حفظ السلام وحسن الطباع فيه؟ فيا أيتها المواطنات المحبوبات الفاضلات «بنات جنيف»، إن من نصيب جنسكن أن يتكمن في جنسنا داتها، ويا للسعادة عندما يُشعر سلطانكن الطاهر، المزاوّل في القران الزواجى وحده، بنفسه في سبيل مجد الدولة والنعيم العام فقط! هكذا كان النساء يُقدن في إسبارطة، وهكذا يستأهلن القيادة في جنيف، وأى رجل من البرابرة يُقدر أن يقاوم صوت الشرف والعقل من قم زوجة حنون؟! ومن ذا الذى لا يزدري ترفاً باطلاً عندما يرى حليتك البسيطة المتواضعة التى تلوح، بما تقتبسه من بهائكن، أنها أكثر ما يلائم الجمال؟! وعليكن أن تصنّ بسلطانكن البريء المحبب، وروحكن الفتانة، حبّ القوانين في الدولة والوفاق بين المواطنين، وأن تجتمعن بين الأسر المُقرّقة بزواجات موفّقة، وأن تُصلحن، على الخصوص، بدروسكن ذات الوداعة المُقنعة، وبحديثكن ذى اللطاف المعتدلة، ما يكتسبه شبائنا من سوء سلوك البلدان الأخرى التى لا يجلبون منها، مع لهجة صيبانية وأوضاع مضحكة مقتبسة من نساء فاجرات، وبدلاً من أمور مفيدة كثيرة يمكنهم أن يستفيدوها منها، غير إعجاب بها لا أدري ما يكون من عظمة مزعومة وتعويضات حقيرة عن عبودية لا تساوى الحرية المُبجّلة، فكُنّ داتها، إذن، أتنّ حارسات الأخلاق الطاهرات، وروابط السلام العذبات، وداو من على استغلال حقوق القلب والطبيعة نفعا للواجب والفضيلة.

وأتملق نفسى إذ لم يكذبنى الحادث بإقامتى على مثل هذه الأسس أمل السعادة العامة للمواطنين والمجد للجمهورية، وأعترف، مع جميع هذه المنافع، بأنها لا تسطع بذلك الضياء الذى يُغشى معظم العيون، والذى يُعدّ ذوقه الصيبانى المشؤوم عدو السعادة والحرية الأزرق.

ولِيَذْهَبَ شَبَابٌ مَنْحَلٌّ لِلْبَحْثِ فِي مَكَانٍ آخَرَ عَنْ مَلَأْذٍ سَهْلَةٍ وَتَوْبَاتٍ طَوِيلَةٍ، وَلِيُعْجَبَ ذُووِ الذَوْقِ الْمَزْعُومِ، فِي أَمَاكِنَ أُخْرَى، بِعَظْمَةِ الْقُصُورِ وَجَمَالِ الْأَجْهَازَةِ، وَبِالْأَمْتَعَةِ الرَّائِعَةِ وَالْمَنَاظِرِ الْبَهِيَّةِ، وَبِجَمِيعِ دَقَائِقِ السَّرْفِ وَالتَّخَنُّثِ، فَلَا يُوْجَدُ فِي جَنِيْفٍ غَيْرِ رِجَالٍ، غَيْرَ أَنْ لِمِثْلِ هَذَا الْمَخْضَرِ ثَمَنَهُ مَعَ ذَلِكَ، وَمَنْ يَبْحَثُونَ عَنْهُ يَسَاوُونَ الْمُعْجَبِينَ بِالْبَاقِي.

فَتَفَضَّلُوا، أَيُّهَا السَّادَةُ الْمُبْجَلُونَ الْأَجْلَاءُ الْكِرَامَ، أَنْ تَقْبَلُوا، جَمِيعًا، بِذَاتِ الْحِلْمِ، هَذَا الدَّلِيلَ الْبَالِغَ الْإِحْتِرَامِ عَلَى اِهْتِمَامِي بِإِقْبَالِكُمُ الشَّامِلِ، فَإِذَا كُنْتُ مِنَ الشَّقَاءِ مَا أُعَدُّ مَعَهُ مُذْنِبًا بِيَهْجَانِي مِذْيَاعٍ فِي قَلْبِي النَّارِيِّ الْمَفْتُوحِ فَإِنِّي أَلْتَمِسُ الْعَفْوَ عَنْهُ لِمَا يَنْطَوِي عَلَيْهِ مِنْ وُدِّ وَطَنِي صَادِقٍ، وَلِلغَيْزَةِ الْحَازَةِ الشَّرْعِيَّةِ فِي رَجُلٍ لَا يَرَى لِنَفْسِهِ سَعَادَةً غَيْرَ رُؤْيَتِهِ إِيَّاكُمْ سَعَادَةً جَمِيعًا.

وَيَا أَيُّهَا السَّادَةُ الْمُبْجَلُونَ الْأَجْلَاءُ الْكِرَامُ أَجِدُنِي، مَعَ الْإِحْتِرَامِ الْبَالِغِ، خَادِمَكُمْ وَمَوَاطِنَكُمْ الْكَثِيرَ الْخُضُوعِ وَالطَّاعَةِ.

جان جاك روسو

شانبري، في ١٢ من يونيه سنة ١٧٥٤

المقدمة

يَبْدُو لي أن معرفة الإنسان «٢» هي أنفعُ جميع المعارف البشرية وأقلُّها تقدُّمًا، وأجرؤُ على القول بأن الكتابة الوحيدة على معبد دِلْف كانت تشتمل على حُكْمٍ أهمٍّ وأصعبٍ من جميع كتب علماء الأخلاق الضخمة، وكذلك فإنني أعدُّ موضوعَ هذه الرسالة من أكثر المسائل، التي تستطيع الفلسفة أن تُعْرِضَها، إمتاعًا، ومن أكثر المسائل، التي يستطيعُ الفلاسفةُ أن يَحُلُّوها، صعوبةً ويا للأسف، وذلك لأنه كيف يُعرَف مصدرُ التفاوت بين الناس إذا لم يُبدأ بمعرفتهم؟ وكيف يأمل الإنسان أن يَرى نفسه كما صنعتها الطبيعة من خلال جميع التغيرات التي وَجِبَ أن يكون تعاقبُ الأزمانِ والأشياءِ قد أحدثها في نظامه الأصلي؟! وكيف يُمكنه أن يميِّز ما هو أساسى في طبيعته من التغيرات أو الإضافات التي اتفقت لحاله الابتدائية ناشئةً عن الأحوال والتَرَقِّيات؟! وتُشابه النفس البشرية تماثالَ غُلوكُوس الذي بَلَغ من التشويه بفعل الزمن والبحار والعواصف ما صار معه يماثل حيوانًا ضاريا أكثر من أن يماثل إنسانًا، فغيَّرت تلك النفس في المجتمع بالفِ علةً مُتجدِّدة بلا انقطاع وباكساب طائفةً من المعارف والأضاليل، وبتحولاتٍ طَرأت على نظام الأبدان، وبتصادم الأهواء على الدوام، غيَّرت في المظهر ما نُكِّرت معه تقريبًا، فعاد لا يُرى فيها غيرُ تناقضٍ مُشوِّهٍ للهوى الذي يَرى أنه يتعقل، وللإدراك الذي يَغْدُو هَدْيَانًا، وذلك بدلًا من كائنيٍّ يسيرٍ دائميٍّ وفق مبادئٍ ثابتةٍ لا تتحول، وبدلًا من تلك البساطة العُلوية الجلييلة التي طبعها بها خالقها.

ومن أشدَّ الأمور قسوةً أيضًا هو أن جميع تَرَقِّياتِ النوع البشري كلما أبعده من حاله الابتدائية بلا انقطاع جَمَعنا معارفَ جديدةً، وتَزَعنا من أنفسنا وسائلَ اكتسابٍ ما هو أهمُّ من جميعها، وتلك من بعض الوجوه قوةُ دراسةِ الإنسان الذي جَعَلنا معرفته خارجَ طاقتنا.

ومن السهل أن يُدرك وجوبُ البحث في التحولات المتعاقبة التي اعتورت النظامَ البشريَّ، عن الأصل الأول للفروق التي تميِّزُ بين الناس المتساوين فيما بينهم بحكم الطبيعة كما كانت حيواناتُ كلِّ نوعٍ قَبْلَ أن تُدخَلَ عللٌ فِزْيُوِيَّةٌ كثيرةٌ إلى بعضها من الاختلافات ما نلاحظه فيها.

والواقع أن مما لا يتصوّر أن يكون جميع هذه التحولات الأولى، مهما كانت الوسيلة التي وقعت بها، قد غيّرت، دفعةً واحدة وعلى نمطٍ واحد، جميع أفراد النوع، ولكن بما أن بعضهم قد كَمَلَ أو فَسَدَ، وبما أن بعضهم قد اكتسب صفاتٍ مختلفةً حسنةً أو سيئةً، لم تكن ملازمةً لطبيعتهم قَطُّ، فإن الآخرين قد ظلُّوا على حالهم الأصلية زمنًا أكثرَ طولًا، وقد كان هذا مصدرَ التفاوتِ الأوّل بين الناس، هذا التفاوت الذي يسهّل إثباته على العموم هكذا أكثر من تعيين علله الحقيقية بالضبط.

ولا يتصوّر قرائي، إذن، أنني أزعم رؤيتي ما تظهر لي رؤيته صعبةً جدًّا، فقد بدأت ببعض البرهّنات، وقد أتيتُ مخاطرًا ببعض الفرضيات، فكنت أقلّ أملًا في حلّ المُغضلة من قصدي أن ألقى نورًا عليها وأزدها إلى حالها الحقيقية، ويستطيع آخرون أن يسيروا إلى ما هو أبعد من هذا في ذات الطريق، وذلك من غير أن يسهّل على أحد وصوله إلى الحدّ، وذلك لأنه ليس من الجهود الخفيفة أن يُفرّق في طبيعة الإنسان الحاضرة بين ما هو أصلّي وما هو مصنوع، وأن تُعرّف جيدًا حالّ عادت غير موجودة، حالّ لم توجد قَطُّ على ما يحتمل، حالّ لن تكون مطلقًا على الراجح، مع أن من الضروري أن تُكَوّن عنها معارفٍ سديدةً وصولًا لحسن الحكم في حالنا الحاضرة، حتى إنه لا بُدّ من فلسفةٍ أكثر مما يُلوح لذلك الذي يُحاول أن يُعيّن بالضبط ما يجب اتخاذه من احترازاٍ للقيام بملاحظاتٍ متينةٍ حولّ هذا الموضوع، ولا يظهر لي حلّ المُغضلة الآتية حلًّا حسنًا غير جدير بها في عصرنا من أرسطو وبليني، والمُغضلة هي: ما التجارب الضرورية للوصول إلى معرفة الرجل الطبيعي، وما وسائل القيام بهذه التجارب في صميم المجتمع؟

وانسى مع بُعدي من محاولة حلّ هذه المُغضلة أراي قد بلغت من التفكير في الموضوع ما أجرؤ معه على الجواب مقدّمًا بأن أعظم الفلاسفة لا يكونون كثيرى الصلاح لتوجيه هذه التجارب، ولا يكون أقوى الملوك كثيرى الصلاح للقيام بها، أى أن يأتوا بمسابقةٍ ليس من الصواب توقّعها، لما تقتضيه من الثبات على الخصوص، وإن شئت فقلّ من تعاقب الذكاء والوثام الذي لا بُدّ من توقّره في كلا الفريقين لبلوغ النجاح.

وهذه المباحثُ التي يَضُعبُ القيامُ بها كثيرًا، والتي فُكِّرَ فيها قليلًا جدًا حتى الآن، هي، وحدها مع ذلك، كلُّ ما بَقِيَ لنا من الوسائل لإزالة طائفة من المصاعب التي تُحجِّبُ عنا معرفة الأُسُسِ الحقيقية للمجتمع البشري، وهذا الجهل لطبيعة الإنسان هو الذي يُلقِي كثيرَ ارتيابٍ وغموضٍ على تعريف الحقوق الطبيعية الصحيح، وذلك لأن فكرة الحقوق، وأكثرُ منها فكرة الحقوق الطبيعية، هما، كما قال مسيو بُورُ لَأمَكي، فكرتان خاصتان بطبيعة الإنسان كما هو ظاهر، فمن طبيعة الإنسان ونظامه وحاله يجب، إذن، استنباطُ مبادئ هذا العلم كما قال ذلك مداومًا.

وليس من غير حيرةٍ وتُفُورٍ أن نلاحظ ما بين المؤلفين الذين عاجلوا هذا الموضوع المهمَّ من اتفاق قليل، ولا تكاد تُجَدُّ بين أكثر الكتاب اتزانًا اثنين يكونان على رأيٍ واحدٍ حوْل هذه النقطة، وإنى، من غير قولٍ عن قدماء الفلاسفة الذين لم يألوا جُهدًا في مناقضة بعضهم بعضًا عن عَمْدٍ في أكثر المبادئ جَوهَرًا كما يلوح، أجدُ فقهاء الرومان قد أخضعوا الإنسان والحيوانات الأخرى، بلا تمييزٍ، لذات القانون الطبيعي، وذلك لأنهم يَرَوْنَ تحت هذا الاسم ما تُفَرِّضُه الطبيعة على نفسها من قانونٍ أكثر من رؤيتهم القانونَ الذي تُفَرِّضُه على الآخرين، أو على الأصح للاصطلاح الخاص الذي يُدْرِكُ به هؤلاء الفقهاء كلمة «القانون»، هذه الكلمة التي يَلُوح أنهم لم يتخذوها في هذه الفرصة إلا للتعبير عن الصلات العامة التي أقامتها الطبيعة بين جميع ذوات الحياة من أجل بقائها، وبما أن المعاصرين لا يَعْرِفون تحت اسم القانون غير قاعدة مفروضة على موجودٍ أدبي، أى موجودٍ عاقلٍ حُرٍّ من حيث صِلَاتُه بالموجودات الأخرى، فإنهم يَقْصِرُونَ اختصاص القانون الطبيعي، من حيث النتيجة، على الحيوان الوحيد المُزَيَّن بالعقل، أى الإنسان، ومع أن كلَّ واحد منهم يُعَرِّف هذا القانون على شاكلته فإنهم يقيمونه على مبادئٍ بالغةٍ من اللاهوتية ما يُجَدُّ معه بيننا أناسًا قليلين قادرين على فهم هذه المبادئ بعيدين من إمكان اكتشافها بأنفسهم، وذلك من حيث كون جميع تعاريف هؤلاء العلماء، المتناقضين فيما بينهم تناقضًا أزليًا، تَتَّفِقُ، فقط، على كونه يتعذر على المرء فهم قانون الطبيعة، ومن ثمَّ إطاعته،

من غير أن يكون مجَاجًا كبيرًا ولا هوتيًا عميقًا، ومعنى هذا هو أن الناس قد اضطروا لإقامة المجتمع إلى بصائر لا تنشأ إلا بمشقة عظيمة، ولأناسٍ قليلين في صميم المجتمع نفسه.

وإذا ما عُرِفَت الطبيعة قليلا، وإذا ما كان الاتفاق حَول معنى كلمة «القانون» سيئا، فإن من الصعب أن يُجمَع على تعريف حسنٍ للقانون الطبيعي، وإذا عَدَوَت ما تنطوي عليه جميع التعاريف التي تُوجَد في الكتب من نقصٍ في الانسجام وجدتها تشتمل على خطأٍ آخر ناشئ عن اشتقاقها من أنواعٍ للمعرفة مختلفة ليست لدى الناس بحكم الضرورة، ومن فوائد لا يمكنهم تَمَثُّلُ فكرتها إلا بعد خروجهم من حال الطبيعة، وقد بُدئَ بالبحث عن أى القواعد يلائم اتفاق الناس عليها في سبيل المصلحة المشتركة، فأُطلق اسم القانون الطبيعي على مجموعة من تلك القواعد من دون دليلٍ آخر غير النفع الذي ينشأ عن تطبيقها العام، وهذه هي طريقة ملائمة جدًا لوضع التعاريف وإيضاح طبيعة الأمور بمطابقاتٍ مُرادية.

يَبْدُ أننا ما دُمنا لا نَعْرِفُ الإنسانَ الطبيعيَّ، كان من العَبَثِ أن نحاول تعيين القانون الذي فَرَضَ عليه أو القانون الذي هو أحسن ملاءمةً لنظامه، وكلُّ ما نستطيع أن نُبَصِّرَهُ بوضوحٍ بالغٍ حَول موضوع هذا القانون هو ضرورةٌ حديثه بصوت الطبيعة من فَوْرِهِ ليكون طبيعيًا، وضرورةٌ خضوع مَنْ يُلْزِمُهُ له مع علمه بهذا ليكون قانونًا أيضًا.

ولنَدْعُ، إذَنْ، جميعَ الكتبِ العلمية التي لا تُعَلِّمنا غيرَ رؤية الناس كما صَنَعُوا أَنفُسَهُمْ، ولنُنْعِمَ النظر في أول أعمال الروح البشرية وأكثرها بساطةً، فأرى أنه يمكنني أن أُبَصِّرَ فيها مبدئين سابقين للعقل، فيَنخُصُّ أحدهما بحرارة رفاهيتنا وبقاءنا، ويُوَجِّحُ الآخرُ إلينا بنفورٍ طبيعيٍّ من مشاهدة هلاك، أو تَوَجُّعٍ، كلِّ كائنٍ حَسَّاسٍ ولا سيما أمثالنا، فمن الاتفاق والتركيب اللذين تَصْنَعُهُمَا نَفْسُنَا من هذين المبدئين، ومن غير أن تكون هنالك ضرورةٌ لإدخال مبدأ الأُنسِ، يَلُوحُ لي اشتقاقُ جميعِ قواعد الحقوق الطبيعية، هذه القواعد التي يُضطرُّ العقلُ بعدئذٍ إلى إقامتها ثانيةً على أُسُسٍ أخرى عندما ينتهي إلى كَبْتِ الطبيعة بنشونه المتعاقب.

وهكذا فإننا لسنا مُلزمين بأن نجعل من الإنسان فيلسوفاً قبل أن نجعل منه إنساناً، ولم تُرسم واجباته نحو الآخرين بدروسٍ متأخرة من الحكمة فقط، وهو ما دام لا يقاوم دافع الرافة الباطني مطلقاً لا يؤدي إنساناً آخر، ولا أي كائن ذي إحساس، أبداً، وذلك خلا الحال الشرعية التي يكون بقاؤه موضعَ عناية فيها فيكون مضطراً إلى تفضيل نفسه، وبهذه الوسيلة تُحتم المجادلات القديمة، أيضاً، حَوْل اشتراك الحيوانات في القانون الطبيعي، وذلك لأن من الواضح أنها لا تستطيع معرفة هذا القانون حُلُولها من الذكاء والحرية، ولكن بما أنها تَمَّت إلى طبيعتنا بصلة الإحساس المتصفة به من بعض الوجوه فإنه يُحكّم بضرورة اشتراكها في الحقوق الطبيعية أيضاً فيكون الإنسان خاضعاً بنوع من الواجبات نحوها، ويلوح أن الواقع يقضي بأنني إذا كنتُ مُلزمًا بالأصنع أيّ سوءٍ لمثلي فذلك لأنه كائنٌ ذو إحساسٍ أكثر من أن يكون ذا عقل، وبما أن صفة الإحساس مشتركة بين الحيوان والإنسان، فإن من الواجب أن تُمنَح أحدهما، على الأقل، حقَّ عدم معاملته بسوءٍ من قِبَل الآخر على غير جَدْوَى.

ودراسة الإنسان الأصلية هذه مع احتياجاته الحقيقية ومبادئ واجباته الأساسية هي الوسيلة الصالحة أيضاً التي يُمكن استعمالها لإزالة تلك المشاكل التي تَبْدُو حَوْل أصل التفاوت الأدبي، وحَوْل الأسس الحقيقية للهيئة السياسية، وحَوْل حقوق أعضائها المتبادلة، وحَوْل الفِ مسألة مماثلةٍ أخرى غامضةٍ بمقدار أهميتها.

وإذا نُظِر إلى المجتمع البشري بعينٍ هادئةٍ خالية من الغرض ظهر أنه لا يَدُلُّ في البُداءة على غير عنف الأقوياء من الناس واضطهاد الضعفاء، وتثور النفس على قسوة فريقٍ أو تُحمَل على الرثاء لعمى الآخر، وبما أنه لا يوجد بين الناس ما هو أقلُّ ثباتاً من هذه الصلات الخارجية التي تؤدي إليها المصادفة أكثر مما تؤدي إليها الحكمة في الغالب، والتي تُسمَّى ضعفاً أو قوةً وغنىً أو فقراً، فإن النُظْم البشرية تُلوح أول وهلة قائمة على كُتبانٍ من الرمل المتحرك، وليس بغير البحث فيها عن كُتِب، وليس بغير إبعاد الغبار والرمل المحيطين بالبناء، ما تُرى القاعدة الثابتة القائم عليها وما يُعلم احترام أسسه، والواقع أنه إذا لم يُنَحَث في الإنسان وفي خصائصه

الطبيعية ونشونها المتعاقب بحثاً جدياً لم يُمكن إثبات هذه التفصيلات، أو أن يُبازَ في نظام الأمور الحاضر ما صدر عن الإرادة الإلهية مما زعم الفنُّ الإنسانيُّ صنعه، فالمباحثُ السياسية والحلُقيَّة التي تُوجِبُها المسألة المهمة التي أبحثُ فيها هي مفيدةٌ من جميع الوجوه إذن، ويكون تاريخُ الحكوماتِ الافتراضِيِّ درساً ممتعاً للإنسان من جميع النواحي.

وإذا نظرنا إلى ما نصيرُ إليه، عندما نُتْرَكُ لأنفسنا، وَجَبَ علينا أن نُعلِّمَ مَحدَ ذلك الذي أصلح بيده الكريمة نُظْمَنَا، وَمَنْ عليها بقاعدة ثابتة، فتدارك ما كان يَنشأ عنها من فوضى وأذى إلى سعادتنا بوسائل كانت تَغْمُرُ بؤسنا كما يَلُوح.

«تَعَلَّمْ مَا أَمَرَكَ اللهُ أَنْ تَكُونَ.. وَتَعَلَّمْ النَّاجِيَةَ الْإِنْسَانِيَّةَ الَّتِي أَنْتَ فِيهَا».

(برسيوس، الأماجي ٣، ٥، ٧١)

كَلِمَةٌ

حَوْلَ أَصْلِ التَّفَاوُتِ وَأَسَاسِهِ بَيْنَ النَّاسِ

أتكلّم عن الإنسان، وأعلّم من المسألة التي أبحث فيها أنني أكلّم الناس، وذلك لأن المسائل التي هي من هذا النوع لم يُسأل عنها من قبل من يخافون تكريم الحقيقة؛ ولذا فإنني أَدافع مطمئناً عن قضية الإنسانية أمام حكماء يدعونني لأصنع هذا، ولا أكون غير راضٍ عن نفسي إذا ما جعلتُ نفسي أهلاً لموضوعي، خليقاً بقضاتي.

وأتصوّر وجود نوعين للتفاوت في الجنس البشري، فالنوع الأول هو ما أدعوه الطبيعيّ أو الفيزيويّ لأنه من وَضع الطبيعة، ويقوم على اختلاف الأعمار والصحة وقوى البدن وصفات النفس أو الروح، والنوع الثاني هو ما يُمكن أن أدعوه التفاوت الأدبيّ أو السياسيّ لتوقفه على ضربٍ من العهد ولقيامه، أو للإذن فيه على الأقل، بتراضي الناس، ويتألف هذا النوع من مختلف الامتيازات التي يتمتع بها بعضهم إجحافاً بالآخرين كأن يكون أكثر من هؤلاء ثراءً أو إكراماً أو قوة، أو أن يكون في وَضع ينتزع فيه الطاعة.

ومن العيب أن يُسأل عن مصدر التفاوت الطبيعيّ لوجود الجواب في تعريف الكلمة البسيط، وأقلّ من ذلك إمكانُ البحث عن وجود ارتباط جوهريّ بين التفاوتين، وذلك لأن هذا يعنى، فقط، أن يُسأل بكلماتٍ أخرى عن كون القابضين على زمام القيادة أفضلّ ممن يُطيعون بحكم الضرورة، وعن وجود قوة البدن أو الروح، وعن وجود الحكمة أو الفضيلة، في الأفراد أنفسهم دائماً، وعلى نسبة قوتهم أو ثرائهم، وقد يكون من الخير إثارة هذا السؤال بين العبيد على مسمع من ساداتهم، ولكن مع عدم ملاءمته لأناسٍ من العقلاء والأحرار الذين يبحثون عن الحقيقة.

وما يكون موضوعُ هذه الرسالة بالضبط إذن؟ يقوم موضوعها على ملاحظتنا في نشوء الأشياء ذلك الوقت الذي يَعْقُبُ الحقُّ فيه العنفَ وتَخْضَعُ الطبيعةُ فيه للقانون، وعلى إيضاحنا سياقَ الخوارق الذي أزمع به القويُّ أن يَحْدُمَ الضعيفَ وأن يشتريَ الشعبُ راحةً خياليةً بسعادة حقيقية.

وقد سَعَرَ الفلاسفةُ الذين بَحَثُوا في أُسُسِ المجتمع بضرورة العَوْدِ إلى حال الطبيعة، ولكن أحدًا منهم لم يَتَّه إليها، ولم يتردَّد بعضهم في عَزْوِهِم إلى الإنسان في هذه الحال فكرةً العادل وغير العادل من غير أن يكثرثوا لإثباتِ كَوْنِهِ قد أَخَذَ بهذه الفكرة، وكونها نافعةً له أيضًا، وقد تكَلَّمَ آخرون عن الحقوق الطبيعية فيما لكلِّ واحدٍ أن يَحْفَظَ ما يَحْتَضُهُ من غير أن يوضحوا ما يَقْصِدُونَ بكلمة «يَحْتَضُهُ»، وأعطى آخرون في البُدْءِ سلطانًا للأكثرِ قوةً على الأكثرِ ضعفًا فأوجبوا ولادةَ الحكومة حالًا من غير أن يُفَكِّرُوا في الوقت الذي وَجَبَ انقضاؤه قَبْلَ إمكان وجود معنى كلمتي السلطان والحكومة بين الناس، وأخيرًا تكَلَّمَ الجميع بلا انقطاع عن الاحتياج والطمع والضغط والرغبة والزهو فنقلوا إلى حال الطبيعة أفكارًا اكتسبوها في المجتمع، فحدَّثوا عن الإنسان الوحشي، ووصفوا الإنسان المدني، حتى إنه لم يرد خاطر مُعْظَمِ كتابنا أن يَظُنُّوا وجودَ حال الطبيعة لِمَا يظهر من مطالعة الكتب المقدسة كونُ الإنسان الأول أخذَ عن الله معارفَ وتعاليمَ من قَوْرِهِ فلم يكن في هذه الحال قَطُّ، وأنه إذا ما اعْتَمَدَ على أسفار موسى التي يُعَدُّ كلُّ فيلسوفٍ نصرانيٍّ مدينتها وجَبَّ إنكارُ وجود الناس في الحال الطبيعية المُخْض حتى قبل الطوفان ما لم يكونوا قد وَقَعُوا فيها ثانيةً بفعل بعض الحوادث العجيبة، فهذا الرأيُ الغريب مما يُورِث الدفاعُ عنه ارتباكًا ويتعذر إثباته تمامًا.

ولنبداً بطرح جميع الوقائع جانبًا لعدم تناولها المسألة مطلقًا، ولا ينبغي عَدُّ المباحث التي تُتَّخَذُ في معالجة هذا الموضوع من الحقائق التاريخية، بل من البراهين الافتراضية الشرطية الصالحة لإلقاء نورٍ على طبيعة الأمور أكثرَ من صلاحها لإثبات أصلها الحقيقي والمشابهة للبراهين التي يأتيها كلُّ يومٍ طبيعياً حول تكوين العالم، وبأمرنا الدين بأن نعتقد أن الله ذاته إذ أخرج الناس من حال الطبيعة قَوْرَ الخَلْقَةِ فإنهم يكونون متفاوتين لأنه أراد أن يكونوا هكذا،

غير أن الدين لا يمنعنا من وَضْعِ افتراضاتٍ مستنبطة من طبيعة الإنسان والموجودات المحيطة به فقط، وذلك حَوْلَ ما كان يُمكن أن يَكُونَهُ الجنسُ البشريُّ لو بَقِيَ متروكًا لنفسه، وهذه هي المسألةُ المعروضةُ عليّ، وهذا ما أرى درسه في هذه الرسالة، وبها أن موضوعي يُهمُّ الإنسانَ على العموم فإنني سأحاول انتحالَ لهجةِ تلامذِ جميعِ الأممِ، وإن شئتَ فقلُّ بما أني أنسى الأزمئةَ والامكنةَ لكيلاً أفكرُ في غيرِ الناسِ الذين أخاطبهم فإنني أفترضُ نفسي في مدرسةٍ أثينةٍ مُكرِّراً دروسَ أساتذتي متخذاً أمثالَ أفلاطونٍ وإكزِينوقراطِ قضاةً، والنوعَ البشريَّ مستمعاً.

فيا أيها الإنسان، كُنْ من أيِّ بلدٍ شئتَ، ولتكنِ أراؤك كما أردتَ، واستمعْ، فهذا هو تاريخك كما أرى قراءته، لا في كُتُبِ أمثالك الذين هم كاذبون، بل في الطبيعة التي لا تكذبُ مطلقاً، وكلُّ ما يأتي من الطبيعة يكون صادقاً، ولن نَجِدَ ما هو كاذبٌ غيرَ ما أضَعُه من عندي بلا قُصدٍ، والأزمئةُ التي أتكلمُ عنها بعيدةٌ إلى الغايةِ، وما أكثرَ ما غَيَّرتَ ما كنتَ عليه! ولذلك فإن حياةَ نوعك هي التي أصِفُها لك وَفَقَّ الصفاتِ التي يَلْتَمِها والتي استطاعتِ تربيتُك وعاداتُك إفسادها، ولكن من غيرِ أن تُقَدِرَ على عموها، ويوجد، كما أحسُّ، جِيلٌ يَرُغِبُ الفردُ أن يَقِفَ عنده، وأنتَ تَبْحَثُ عن الجيلِ الذي تَوَدُّ وقوفَ نوعك عنده، وبها أنك ساخطٌ على حالك الحاضرةِ لأسبابٍ تُنذِرُ عَقِبَكَ التَّعَسُّ بأعظمِ كَدْرٍ فإنك تريدُ القدرةَ على العودِ إلى الوراءِ على ما يحتملُ، فيجب أن يكونَ هذا الشعورُ ثناءً على أجدادك الأولين وانتقاداً لمعاصريك وهو لا مَنُ يُكْتَبُ لهم شقاءُ الحياةِ بعدك.

القِسْمُ الأوَّلُ

لا أتتبع نظامَ حالِ الإنسان الطبيعية من خلال نشوونها المتعاقب مهما كان من المهم أن يُنظر إليها منذ أصلها، أي في الجئين الأول للنوع، وذلك للحكم جيّدًا في تلك الحال، ولا أقف عند حدّ البحث في النظام الحيواني عما يُمكن أن يكوّنَه هذا النظام في البداءة ليُصبح ما هو عليه في آخر الأمر، فلا أسأل، كما يرى أرسطو، هل كانت أظافره الطويلة مخالِبَ عُقفاً في أول الأمر، وهل كان أشعرَ كالدّب، أو كان، وهو يمشى على أربع أرجل^{٣١}، لا يلاحظ بأنظاره المتجهة نحو الأرض، والمقصورة على أفقٍ يَضَعُ خُطُواتٍ، طبيعةً أفكاره وحدودها معاً، ولا أستطيع أن أكوّن حَوْلَ هذا الموضوع غيرَ افتراضاتٍ مبهمّة، خيالية تقريباً، ولم يتفق لعلم التشريح المقارن غيرُ تقدمٍ قليل، ولا تزال ملاحظاتُ الطبيعيين غيرَ ثابتة، فلا يُمكن أن تُقام على مثل هذه الأسس قاعدةُ استدلالٍ متين، وهكذا، ومن غير رجوعٍ إلى المعارف الخارقة للطبيعة التي هي لدينا حَوْلَ هذه النقطة، ومن غير نظيرٍ إلى التحولات التي لا بُدَّ من حدوثها في تكوين الإنسان داخلاً وخارجاً ما طبّق أعضاءه على منافعٍ جديدة، وتغذّى بأطعمة جديدة، افترض هذا التكوينَ في كلِّ زمنٍ كما هو عليه اليوم، وذلك أنه سار في كلِّ وقتٍ على رجلين، واستعمل يديه كما تُصنَعُ بأرجلنا وأيدينا، وأنه وَجَّهَ أنظاره إلى جميع الطبيعة وقاسَ السماءَ الواسعة بعينه.

وإذا ما جُرِّدَ هذا الكائنُ الذي كُوِّنَ هكذا من جميع المواهب الخارقة للعادة التي استطاع تيّلها، ومن جميع الخصائص المصنوعة التي لم يُقدِرَ على اكتسابها إلا بنشوءٍ طويل، والخلاصةُ أنه إذا ما نُظِرَ إليه كما وَجِبَ أن يكون حين خروجه من أيدي الطبيعة، رأيتُ حيواناً أقلَّ قوّة من بعضهم وأقلَّ نشاطاً من الآخرين، ولكن مع كونه أحسنَ من الجميع نظاماً إذا ما نُظِرَ إليه من كلِّ وجه، فأراه يَشْبَعُ تحت بللُوطيّة، ويَرْتَوِي من أولِ جدولٍ، ويَجِدُ فراشه تحت ذات الشجرة التي أمدته بطعامه، وهكذا تكون حاجاته قد قُضِيَتْ.

وفي كلِّ خطوة تُقدّم الأرضَ المتروكةً لخصبها الطبيعي^{٤٥}، والمستورةً بغاباتٍ واسعةٍ لم تُقَطِّعها القُدوم قطُّ، مستودعاتٍ وملاجئٍ للحيوانات من كلِّ نوع، ويلاحظ الناس المُقرِّقون بينها صنْعَها، ويقتبسونه، ويبلغون حتى غريزة الحيوانات، وذلك مع النفع القائل بأنه إذ لم يكن لكلِّ نوعٍ غيرُ غريزته الخاصة، وبأنه إذ لم يكن للإنسان غريزةً خاصةً على ما يحتمل، فإن

الإنسان يُخْتَصُّ بالفرائض كُلِّها، فيغتذى على السواء بمُعْظَمِ الأغذية «٥٥» التي تقتسمها الحيوانات الأخرى، ويَجِدُ قُوَّتَهُ بأَسْهَلِ مما يستطيعه أيُّ واحدٍ منها.

وإذ تَعَوَّدَ النَّاسُ منذ صِبَاهِمْ عَدَمَ اعتدالِ الفصولِ وشدَّتِها، وإذ تَمَرَّنُوا على التعبِ واضْطَرُّوا إلى الدفاعِ عن حياتهم وصَيْدِهِمْ عُرَاةً عَزُلاً، وذلكِ ضِدَّ الضَّوَارِي والكَوَائِرِ، أو فِرَازاً من غاراتها، فإنهم يكتسبون جِبِلَّةً قويةً، ثابتةً تقريباً، فيَجْلِبُ الأولادُ إلى العالمِ بُنْيَةَ آبائهم الرائعةَ وَيُقَوِّنُها بذاتِ التمريناتِ التي أدت إليها، وهكذا ينالون كُلَّ ما يستطيعه النوعُ البشريُّ من متانة، وهكذا تعاملهم الطبيعةُ كما كان قانونُ إسبارطةِ يعامل أولادَ المواطنين، فتَجَعَلُ من هم حَسَنُ البُنْيَةِ أقوىاءَ أشداءَ، وتُهْلِكُ جميعَ الآخرين، وهي في ذلكِ على خِلافِ مجتمعاتنا التي تَجَعَلُ الدولةَ فيها الأولادَ عِبَنًا على الآباءِ فتقتلهم قبلِ ولادتهم بلا تمييز.

وبما أن بَدَنَ الإنسانِ الوحشيِّ هو الآلةُ الوحيدةُ التي يَعْرِفُها فإنه يستعمله لأغراضٍ مختلفةٍ تَعَجِزُ عنها أغراضنا لعدمِ الممارسةِ، وصِنَاعَتُنَا هي التي تَحْرِمُنَا البَأْسَ والنشاطَ اللذين تُكْرِهُمُ الضرورةُ الإنسانَ على اكتسابهما، ولو كانت لديه فأسٌ فهل كان زَنْدُهُ يقطعُ غُصُونًا قويةً جِدًّا؟ ولو كان لديه مِقْلَاعٌ فهل كان يَزِمِي بيده حجراً بِشِدَّةِ بالغتهِ؟ ولو كانت عنده سُلْمٌ فهل كان يَنْمُلُ^(١) في شجرةٍ بمثلِ تلكِ الخنفةِ؟ ولو كان عنده حِصَانٌ فهل كان يركضُ بمثلِ تلكِ السرعةِ؟ دَعُوا للإنسانِ المتمدِّنِ من الوقتِ ما يَجْمَعُ فيه جميعَ هذه الآلاتِ حَوْلَهُ فإنه يَقْهَرُ الرجلَ الوحشيَّ بسهولةٍ لا رَيْبَ، ولكنكم إذا ما أردتم أن تَرَوْا بِرَازًا، أكثرَ تَفَاوُتًا فاجعلوا هما يتقابلان عاريتين أغزليين، فهناك لا تَلْبَسُونَ أن تَعْرِفُوا فائدةَ تَصَرُّفِ الإنسانِ في جميعِ قُوَاهِ بلا انقطاع، وفائدةُ استعدادِهِ لكلِّ حادثٍ على الدوامِ، أي كافيًا نَفْسَهُ نحوَ واحدٍ في كُلِّ حينٍ «٦».

ويَزْعُمُ هُوْبِرُ أن الإنسانَ جَسورٌ بحكمِ الطبيعةِ، وهو لا يحاولُ غيرَ الهجومِ والقتالِ، والعكسُ ما يراه فيلسوفٌ مشهورٌ آخر، وذلكِ يُوَكِّدُ كُونِبِرٌ لأنَّه يُوفِنْدِرُفُ كونه لا شيءَ أخوفٌ من الإنسانِ في الحالِ الطبيعيةِ، فهو يرتجفُ ويستعدُّ للفرارِ دائماً عندَ أقلِّ صوتٍ يَقْرَعُه

(١) نمل في الشجر: سعد.

وأقل حركة يشعُر بها، وقد يكون هذا تجاه الأشياء التي لا يَعْرِفُها، ولا أشكُّ مطلقاً في خوفه من جميع المناظر الجديدة التي تُعْرِضُ له في كلِّ مرة لا يستطيع أن يُفَرِّقَ فيها بين الخير والشرِّ الطبيعيين اللذين يجب أن ينتظرهما منها، ولا أن يقابل بين قُوَاهِ والأخطار التي تُتَلَقِيه، وهذه الأحوال نادرة في الحال الطبيعية، حيث يسير كلُّ شيءٍ بالغِ النمطية، وحيث لا يكون وجهُ الأرض خاضعاً مطلقاً لتلك التحولات المفاجئة الدائمة التي توجبها هنالك أهواءُ الشعوب المتحدة وتقلُّبها، ولكن بما أن الإنسان الوحشِيَّ يعيش متفرقاً بين الحيوانات ويَجِدُ نفسه باكرًا في حالٍ يقيسُ نفسه بها فإنه لا يُعْتَمُّ أن يقوم بهذه المقايسة، وهو إذ يُجِسُّ أنه يفوقها حيلةً أكثر من فوقها إياه قوةً فإنه يتعلم ألا يخشاهما بَعْدُ، وَصُعُوبًا أو ذُبَابًا أو ذُبَابًا أمام وحشِيٍّ قوِيٍّ نشيطٍ جسورٍ، كما عليه الجميع، مسلَّحٍ بحجارة وهراوة جيدة، تَرَوَا كَوْنَ الخطر متقابلًا على الأقل، وكونَ الحيواناتِ المفترسة التي لا تُحِبُّ مهاجمة بعضها بعضًا مطلقًا، قليلة الرغبة في مهاجمة الإنسان الذي يُجِدُّه مفترسًا مثلها، وأما من حيث الحيوانات التي لها من القوة في الحقيقة ما هو أكثر من حيلة الإنسان فإن الإنسان يكون تجاهها في ذات الوضع الذي تكون عليه الأنواع الأخرى الأضعف منها والقادرة على البقاء مع ذلك، وذلك مع قدرة الإنسان على اتخاذ ملجأ وتركه عند المقابلة، ومع خياره في الفرار أو القتال عند المقابلة في كل مكان، فضلًا عن استعداده للركض مثلها وعثوره على ملجأ أمين في الشجرة تقريبًا، وإلى هذا أضفُ كونه لا يُوجَدُ، كما يَظْهَرُ، حيوانٌ يَشْهَرُ الحرب على الإنسان عن طبيعة، خَلَا الحال التي يكون فيها مدافعًا عن نفسه أو التي يكون فيها جائعًا إلى الغاية، وكونه لا يُبْدِي له تلك الكراهية التي تُنْذِرُ، كما يُلَوِّحُ، بأن أحد الأنواع مُعَدُّ ليكون، عن طبيعة، طعامًا لنوعٍ آخر.

وهذه، لا ريب، هي الأسبابُ في كَوْنِ الزنوجِ والهمج لا يخافون الحيواناتِ المفترسة التي يُمكن أن يلاقوها في الغاب، ويعيش كَرَايِبُ فينزويلاً بين أخرى من هذه الناحية في أمانٍ مطلقٍ ومن غير أدنى محذور، وهم، وإن كانوا عُرَاةً جميعًا تقريبًا، على رواية فرنسوا كُورْتِيَال، يَغْرِضُونَ أنفسهم في الغاب من غير احترازٍ مسلَّحين بقوس وسهم، بيد أنه لم يُسْمَعْ قطُّ افتراسِ الضواري لأحد منهم.

وهناك أعداء آخرون أشدُّ هَوْلًا، فليس لدى الإنسان ذاتُ الوسائل للدفاع تجاههم، وهؤلاء الأعداء هم: الأسقامُ الطبيعية للطفولةِ والهَرَمُ والأمراضُ من كلِّ نوع، أى هذه العلاماتُ الكئيبة لضعفنا والتي تُعدُّ الأُولَيان منها مشتركتين بين جميع الحيوانات والتي تُعدُّ الأخيرة منها خاصةً بالإنسان الذي يعيش في المجتمع، حتى إننى ألاحظ، في موضوع الطفولة، أن للأم، إذ تُحمِل ولدها معها حيثما كانت، من سهولة تغذيته ما ليس لإناثٍ كثيرٍ من الحيوانات التي تُضطرُّ إلى الذهاب والإياب بلا انقطاع مع كثيرٍ من التعب بحثًا عن غذائها من ناحية وإرضاعًا أو إطعامًا لصغارها من ناحية أخرى، أجل، إن من الحقيقة أن المرأة إذا هَلَكَت حاق بالولد خطرُ الهلاك معها كثيرًا، غير أن هذا الخطرُ مشتركٌ بين مائة من الأنواع الأخرى التي لا يكون صغارها من الحال ما تَبَحَث معه عن غذائها بنفسها، وإذا كان دَوْرُ الطفولة أكثرَ طولًا بيننا، كانت الحياة أكثرَ طولًا أيضًا، وتساوى كلُّ شيء من هذه الناحية تقريبًا (٧)، وإن وُجِدَت حَوْلَ مدة الدَّورِ الأولِ وحَوْلَ عدد الصَّغار (٨) قواعدٌ أخرى ليست من موضوعي، ويكون الناس في المَشِيبِ أقلَّ حركةً وعَرَفًا فَتَقِلُّ الحاجة إلى الطعام مع القدرة على تداركه، وكما أن الحياة الوحشية تُبَعِدُ النَّفْسَ والرَّيْبَةَ منهم، وكما أن المَشِيبَ هو من جميع الأمراض ذلك الذي يكون أقلَّ ما يُمكن العَوْنُ الإنسانَ أن يُحَقِّقَهُ، تراهم يَزُولون في آخر الأمر من غير أن يَشْعُرَ الآخرون بذلك، ومن غير أن يَشْعُرُوا هم أنفسهم بذلك.

وأما من حيث الأمراض فإننى لا أَكْرِرُ مطلقًا ما يقوم به مُعْظَمُ الأصْحَاء من تصرُّجاتٍ فارغةٍ باطلةٍ ضِدَّ الطَّبِّ، ولكننى أسأل: هل تُوجَدُ مشاهداتٌ متينةٌ يُمكن أن يُسْتَنْبَطَ منها كونُ الحياة المتوسطة في البلدان التي يكون فيها فنُّ الطَّبِّ أكثرَ الأمور إهمالًا أقصرَ مما في أكثرَ البلدان عنايةً به؟ وكيف يُمكن هذا أن يكون إذا كنا نَجْلِبُ لأنفسنا من الأمراض ما لا يستطيع الطَّبُّ أن يُجَهِّزنا بأدويته؟!

إن التفاوت المتناهي في طراز الحياة، وفرطُ البِطالة في أناسٍ، وفرطُ العمل في الآخرين، وسهولة تهبَّيج شَهَوَاتنا وملاذنا، والأطعمة المَبْتَغَاة كثيرًا من قِبَلِ الأغنياء فتغذيهم بالعُصارات المسببة للحرارة وتُرْهَقُهُم بسوءِ الهضم، وأغذية الفقراء السيئة التي تُعَوِّزُهُم في الغالب أيضًا

والتي يَجْمَلُهُمْ عَدْمُهَا إِلَى إِثْقَالِ مَعْدَتِهِمْ بِشَرِّهِ عِنْدَمَا تَلُوحُ الْفُرْصَةُ، وَالسَّهَرَاتِ، وَأَنْوَاعِ الدَّعَارَاتِ، وَعَدَمِ الْإِعْتِدَالِ فِي تَبَادُلِ ضُرُوبِ الْأَهْوَاءِ، وَمَتَاعِبِ النَّفْسِ وَصَنَائِهَا، وَمَا لَا يُجْنِصِي لَهُ عَدُّ مِنَ الْكُرُوبِ وَالرَّزَايَا الَّتِي يُشْعَرُ بِهَا فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ، وَالَّتِي تَضْعَفُ بِهَا النَّفُوسُ ضَعْفًا مُسْتَمِرًّا، دَلَالَةٌ مَشْرُومَةٌ عَلَى كَوْنِ مُعْظَمِ أَمْرَانَا مِنْ صِنْعِنَا الْخَاصِّ، فَكَانَ يُمَكِّنُنَا اجْتِنَابُ جَمِيعِهَا تَقْرِيْبًا بِمَحَافِظَتِنَا عَلَى طِرَازِ الْعَيْشِ الْبَسِيطِ النَّعْطِيِّ الْإِنْفِرَادِيِّ الَّذِي كَانَتْ الطَّبِيعَةُ قَدْ فَرَضَتْهُ عَلَيْنَا، وَإِذَا كَانَتْ الطَّبِيعَةُ قَدْ أَعَدَّتْنَا لِنَكُونَ أَصْحَاءَ فَإِنِّي أَجْرُو عَلَى الْقَوْلِ بِأَنَّ حَالِ التَّفَكِيرِ مَنَاقِضَةٌ لِلطَّبِيعَةِ، وَأَنَّ الْإِنْسَانَ الَّذِي يُفَكِّرُ حَيَوَانٌ فَاسِدٌ، وَإِذَا مَا نُظِرَ فِي نِظَامِ الْهَمَجِ الصَّالِحِ، نِظَامِ هَوْلَاءِ الَّذِينَ لَمْ نُضَيِّعْهُمْ بِمَشْرُوبَاتِنَا الرُّوحِيَّةِ، وَإِذَا مَا عَلِمَ أَنَّهُمْ لَا يَعْرِفُونَ مِنَ الْأَمْرَاضِ غَيْرِ الْجُرُوحِ وَالْمَشِيبِ تَقْرِيْبًا، مُجِلَّ عَلَى الْإِعْتِقَادِ بِأَنَّ مِنَ السَّهْلِ وَضَعَ تَارِيخَ لِلْأَمْرَاضِ الْبَشَرِيَّةِ بِتَتَبِيعِ تَارِيخِ الْمَجْتَمَعَاتِ الْمَدِينِيَّةِ، وَهَذَا هُوَ، عَلَى الْأَقْلِ، رَأْيُ أَفْلَاطُونِ الَّذِي اسْتَتَجَّ مِنْ أَدْوِيَّةِ اسْتَعْمَلَتْ أَوْ اسْتُخِينَتْ مِنْ قَبْلِ بُودَالِيْزِيُوسِ وَمَكَاوُنِ فِي أَثْنَاءِ حِصَارِ تِرْوَادَةَ كَوْنِ كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرَاضِ الَّتِي أَثَارَتِهَا هَذِهِ الْأَدْوِيَّةُ لَمْ تَكُنْ مَعْرُوفَةً بَيْنَ النَّاسِ، وَيَرْوِي سِلْسُوسُ كَوْنِ الْحِمِيَّةِ الضَّرُورِيَّةِ جِدًّا فِي الْوَقْتِ الْحَاضِرِ قَدْ اخْتَرَعَتْ مِنْ قَبْلِ بَقْرَاطِ.

وَبِمَا أَنَّ الْإِنْسَانَ خَاضِعٌ لِقَلِيلٍ مِنْ عِلَلِ الْأَمْرَاضِ فِي حَالِ الطَّبِيعَةِ فَإِنَّهُ لَا يَكُونُ مَحْتَاجًا إِلَى عِلَاجَاتِ إِذْنٍ، وَأَقْلُ مِنْ ذَلِكَ اِحْتِيَاجُهُ إِلَى أَطْبَاءَ، وَلَا يَكُونُ النَّوْعُ الْبَشَرِيُّ أَسْوَأَ مِنْ جَمِيعِ الْحَيَوَانَاتِ الْآخَرَى فِي هَذِهِ النَّاحِيَّةِ، وَمِنَ السَّهْلِ أَنْ يُعْرَفَ مِنَ الصَّانِدِينَ عَنْ مَصَادِفَتِهِمْ حَيَوَانَاتٍ عَلِيلَةٌ كَثِيرَةٌ فِي أَثْنَاءِ صَيْدِهِمْ أَوْ لَا، وَكَثِيرٌ مِنَ الصَّانِدِينَ مَنْ يَجِدُونَ بَيْنَ طَرَائِدِهِمْ حَيَوَانَاتٍ أَصَابَتْ بِجُرُوحٍ بَلِيغَةٍ فَانْدَمَلَتْ جِيدًا، وَحَيَوَانَاتٍ كُسِرَتْ فِيهَا عِظَامٌ، أَوْ قُطِعَتْ فِيهَا أَعْضَاءٌ، فَعَادَتْ إِلَى حَالِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ لَهَا جِرَاحٌ سِوَى الزَّمَنِ، وَمَنْ غَيْرِ أَنْ تَتَّخِذَ مِنَ النِّظَامِ سِوَى حَيَاتِهَا الْعَادِيَّةِ فَشَفِيَتْ تَمَامًا مِنْ دُونَ أَنْ تُزْلَمَ بِبَضْعٍ، أَوْ أَنْ تُسَمَّ بِعَقَاقِيرٍ، أَوْ أَنْ تُنْحَلَ بِصِيَامٍ، ثُمَّ مَهْمَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ لِلطَّبِّ الْحَسَنِ الْعِلَاجِ بَيْنَنَا مِنْ فَائِدَةٍ فَإِنَّ مِنَ الثَّابِتِ دَائِمًا أَنَّهُ لَيْسَ لَدَى الْهَمَجِيِّ الْمَرِيضِ الْمَتْرُوكِ لِنَفْسِهِ مَا يَأْمُلُهُ مِنَ غَيْرِ الطَّبِيعَةِ، وَأَنَّهُ لَيْسَ لَدَيْهِ مَا يَخْشَاهُ مِقَابِلَةً مِنْ غَيْرِ مَرَضِهِ، وَهَذَا يَجْعَلُهُ فِي وَضْعٍ أَفْضَلَ مِنْ وَضَعِنَا غَالِبًا.

ولنحترز، إذن، من خلط الإنسان الوحشى بمن نراهم تحت عيوننا من الناس، فالطبيعة تعامل جميع الحيوانات المتروكة لعنايتها باستحباب يدل، كما يلوح، على درجة اغتباطها بهذا الحق، فللفرس والهري والثور، وللحمار أيضاً، في الغالب، قوام أكثر علواً، وبنية أشد قوة ومتانة وجلداً وبأساً في الغابات مما في بيوتنا، وذلك أنها تفقد نصف هذه المزايا عندما تصبح أهلية، فيمكن أن يقال إن كل اعتناء في حسن معاملة هذه الحيوانات وتغذيتها لا يؤدي إلى غير إفسادها، وقل مثل هذا عن الإنسان، وذلك أنه عندما يصبح أنيساً وعبداً يصير ضعيفاً جباناً ذليلاً، ومن شأن طراز عيشه الرغيد المخنث أن يؤمن قوته وشجاعته، ولنصف إلى هذا وجود فرق بين الرجل الوحشى والرجل المتمدن أكثر مما بين الحيوان الوحشى والحيوان الأهلى، وذلك بما أن الطبيعة تعامل الإنسان والحيوان على السواء فإن ما يمنحه الإنسان نفسه من رغد أكثر مما يمنحه الحيوانات التي يؤنسها بعد أسباباً خاصة في انحطاطه أكثر من انحطاطها.

إذن، ليس من شقاء هؤلاء الناس الأولين البالغ، وليس من العوائق العظيمة في بقائهم على الخصوص، أن يكونوا عراة، عاطلين من المأوى، محرومين جميع تلك الزوائد التي نعتقد أنها ضرورية جداً، وإذا لم يكونوا ذوى جلود شغرى فلعدم احتياجهم إليها في البلاد الحارة، وهم لا يلبثون أن يعرفوا في البلاد الباردة اتخاذ جلود الحيوانات التي غلبوها، وإذا لم يكن لهم غير رجلين للركض، فإن لهم ذراعين للدفاع عن أنفسهم وتدارك احتياجاتهم، ومن المحتمل أن يتأخر مشى أولادهم، وأن يتعلموا المشى بمشقة، غير أن أمهاتهم يحمّلنهم بسهولة، أى يقمن بهذه المزية التي تُغوز الأنواع الأخرى؛ حيث تُضطر الأم عندما تُتبع أن تترك صغارها أو أن تسير على خطواتها، ثم إن من الواضح في كل حال أن الأول الذى يصنع لنفسه ثياباً أو أقام مسكناً يكون قد اتخذ لنفسه أشياء ضرورية قليلاً، ما دام قد استغنى عنها حتى ذلك الحين ولم يُضِر السبب الذى لم يستطع به كإنسان كامل أن يحتمل حياة صبر عليها منذ طفولته، وذلك ما لم يتحمل تسابق الأحوال الغريب العرضى الذى سأتكلم عنه فيما بعد، والذى يُمكن أنه لم يحدث قط.

وعلى الإنسان الوحشى المنفرد البطال والقريب من الخطر دائماً أن يُحِبَّ النوم، وأن يكون نومه خفيفاً، كالحوانات القليلة التفكير فتنام كل الوقت الذى لا تُفكّر فيه مطلقاً، وبما أن بقاءه الخاص هو مدارُ عنايته الوحيدة فإنه يجب أن يكون أكثر خصائصه عملاً ما كان الدفاع والمهجوم غرضه الرئيس، وذلك قهراً لقيصته، أو ضمناً لعدم كونه قبيصةً حيوانٍ آخر، وعلى العكس يجب أن تبقى الأعضاء التى لا تتكامل إلا بالنعومة والحسيّة فى حال من الغلظة ما يُبعد كل نوع من الدقة فيه، وبما أن حواسّه تكون مُقسّمةً من هذه الناحية فإن اللمس والذوق يكونان غايةً فى الغلظة، ويكون نظره وسمعُه وشمُه غايةً فى الدقة، وهذه هى حال الحيوان على العموم، وهذه هى، أيضاً، حال الشعوب الوحشية كما يزوى السّياح، وهكذا لا ينبغي أن يُعجَب من كون هو يتتوّرأس الرجاء الصالح يكتشفون بالنظر المُجرّد سُفنًا فى البحر من بُعد لا يراها الهولنديون فيه إلا بنظارات، ولا من وحوش أمريكا الذين يَشْمُون الإسبان من أثر القَدَم كما يستطيع صنعُه أحسنُ الكلاب، ولا من احتمال أمم البرابرة عُزيمهم من غير مشقة، ومن شخِذ ذوقهم بقوة الفلفل الأحمر، ومن شربهم المسكرات الأوربية كالماء.

ولم أنظر إلى غير الإنسان الطبيعى حتى الآن، فلنحاول أن ننظر إليه الآن من ناحية ما بعد الطبيعة ومن الناحية الأدبية.

ولا أبصر فى كل حيوانٍ غير آلةٍ مُحَكِّمةٍ منحتها الطبيعة حواسّ لتدور بنفسها ولتضمن نفسها، إلى درجة ما، تجاه كل ما يُمكن أن يُقوّضها أو يُخلِّبها، وأبصر بالضبط ذات الأشياء فى الآلة البشرية مع الفرق القائل إن الطبيعة وحدها هى التى تُصنَع كل شىء فى أفعال الحيوان بدلاً من قيام الإنسان بأفعاله عاملاً حُرّاً، وتختار إحدى الآلتين أو تطرح عن غريزة، وتختار الآلة الأخرى أو تطرح عن عمل حرّ، ومن ثمّ لا يستطيع الحيوان أن ينحرف عن القاعدة المفروضة عليه وإن كان له نفعٌ فى هذا الانحراف، والإنسان يُنحرف عن مثل هذه القواعد فى غير مصلحته، وهكذا فإن حماسة تموت جوعاً بجانب طبقٍ مملوءٍ بأطيب اللحوم، ويموت هِرّاً على كُدسٍ من الفواكه أو الحبوب، وإن استطاع كلٌّ منهما أن يتغذى جيداً من الطعام الذى يزدريه إذا ما خطر بباله أن يحاول ذلك، وهكذا فإن الناس الفاسقين ينهمكون فى الملاذ التى

ثَوَقِعَهُمْ فِي الْحَمَى وَالْمَوْتِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ النَّفْسَ تُفْسِدُ الْحَوَاسَّ وَلِأَنَّ الْإِرَادَةَ تَتَكَلَّمُ حِينَهَا تَسْكُتُ الطَّبِيعَةُ.

وَلِكُلِّ حَيْوَانٍ أَفْكَارٌ مَا دَامَ يُوجَدُ لَهُ حَوَاسٌّ، حَتَّى إِنَّهُ يَجْلِبُ بَيْنَ أَفْكَارِهِ إِلَى حَدِّ مَا، وَلَا يَخْتَلِفُ الْإِنْسَانُ عَنِ الْحَيْوَانِ مِنْ هَذِهِ النَّاحِيَةِ إِلَّا إِلَى حَدِّ مَا، حَتَّى إِنْ بَعْضُ الْفَلَسَافَةِ ذَهَبُوا إِلَى وَجُودِ فَرْقٍ بَيْنَ هَذَا الْإِنْسَانِ وَذَلِكَ الْإِنْسَانِ أَعْظَمَ مِمَّا بَيْنَ هَذَا الْإِنْسَانِ وَذَلِكَ الْحَيْوَانِ، وَلِذَلِكَ لَيْسَ الْإِدْرَاكُ هُوَ الَّذِي يَجْعَلُ الْفَرْقَ النَّوعِيَّ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَالْحَيْوَانِ بِمَقْدَارِ الْعَامِلِ الْخَرِّ فِي الْإِنْسَانِ، وَالطَّبِيعَةُ تُقْوِدُ كُلَّ حَيْوَانٍ، وَالْحَيْوَانُ يُطِيعُهَا، وَالْإِنْسَانُ يُتَبَلَّى ذَاتَ الْعَامِلِ، وَلَكِنْ مَعَ عِلْمِهِ بِأَنَّهُ خَرٌّ فِي الْإِذْعَانِ أَوْ الْمَقَاوِمَةِ، وَفِي شَعُورِهِ بِهَذِهِ الْحَرِيَةِ تَبْدُو رُوحِيَّةً نَفْسِيَّةً، وَذَلِكَ أَنَّ الْحِكْمَةَ الطَّبِيعِيَّةَ تُوضِّحُ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ نِظَامَ الْحَوَاسِّ، وَتَكْوِينَ الْأَفْكَارِ، وَلَكِنَّهُ لَا يُوْجَدُ فِي قُوَّةِ الْإِرَادَةِ، وَإِنْ شَتَّ فَقُلُّ فِي قُدْرَةِ الْإِخْتِيَارِ، وَلَا يُوْجَدُ فِي الشُّعُورِ بِهَذِهِ الْقُدْرَةِ، غَيْرُ أَفْعَالٍ رُوحِيَّةٍ خَالِصَةٍ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُفَسَّرَ مِنْهَا شَيْءٌ بِقَوَائِنِ الْمِيكَانِيكِ.

وَلَكِنْ إِذَا كَانَتْ الْمَصَاعِبُ الَّتِي تَحِيطُ بِجَمِيعِ هَذِهِ الْمَسَائِلِ تَتْرَكَ بِمَجَالٍ لِلْجَدَلِ حَوْلَ هَذَا الْفَرْقِ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَالْحَيْوَانِ فَإِنَّهُ تُوْجَدُ صِفَةٌ أُخْرَى بِالْغَيْهِ النَّوعِيَّةِ تُفَرِّقُ بَيْنَهُمَا وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ جَدَالٌ حَوْلَهَا، وَهَذِهِ هِيَ خَاصِيَّةُ التَّكَامُلِ، هَذِهِ الْخَاصِيَّةُ الَّتِي تُنْمِي جَمِيعَ الْخِصَائِصِ الْآخَرَى تَتَابَعًا بِفِعْلِ الْأَحْوَالِ، وَتَكْمُنُ فِي النَّوعِ كَمَا تَكْمُنُ فِي الْفَرْدِ بَيْنَنَا، وَذَلِكَ بَدَلًا مِنْ حَالِ الْحَيْوَانِ الَّذِي يَنْقَى مَدَى حَيَاتِهِ مَا كَانَ عَلَيْهِ فِي نِهَآيَةِ بَضْعَةِ أَشْهُرٍ مِنْ سِنَتِهِ، وَمِنْ حَالِ جِنْسِهِ فِي نِهَآيَةِ أَلْفِ سِنَةٍ مَا كَانَ عَلَيْهِ فِي السَّنَةِ الْأُولَى مِنْهَا، وَلَمْ يَكُنْ الْإِنْسَانُ وَحْدَهُ هَدَفًا لِلتَّخَافَةِ؟ أَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ يَعُودُ إِلَى حَالِهِ الْأُولَى عَلَى هَذَا الْوَجْهِ، وَلِأَنَّ الْإِنْسَانَ الَّذِي يَخْتَسِرُ عَنْ مَشِيْبٍ أَوْ حَوَادِثٍ أُخْرَى كُلِّ مَا نَالَ بِاسْتِعْدَادِهِ لِلْكَهَالِ يَسْقُطُ إِلَى مَا هُوَ أَحْطُّ مِنَ الْحَيْوَانِ نَفْسِهِ مَعَ أَنَّ الْحَيْوَانَ الَّذِي لَمْ يَكْتَسِبْ شَيْئًا وَلَمْ يَخْتَسِرْ شَيْئًا يَبْقَى مَحَافِظًا عَلَى قُوَّةِ غَرِيْزَتِهِ؟ إِنْ مِنْ عَوَامِلِ الْغَمِّ فِينَا أَنْ نُنْظِرَ إِلَى الْإِعْتِرَافِ بِأَنَّ هَذِهِ الْخَاصِيَّةَ الْفَارِقَةَ وَغَيْرَ الْمَحْدُودَةِ تَقْرِيْبًا هِيَ مَصْدَرُ جَمِيعِ رَزَايَا الْإِنْسَانِ، وَأَنَّهَا هِيَ الَّتِي تُخْرِجُهُ بِفِعْلِ الزَّمَنِ مِنْ تِلْكَ الْحَالِ الْأَصْلِيَّةِ الَّتِي يَقْضِي فِيهَا أَيَّامًا هَادِئَةً بِرَيْثَةٍ، وَأَنَّهَا هِيَ الَّتِي تُبْرِزُ مَعَ الْقُرُونِ مَعَارِفَهُ وَأَصَالِيْلَهُ وَعِيُوبَهُ وَفَضَائِلَهُ فَتَجْعَلُهُ مَعَ

الزمن طاغيةً نفسه وطاقية الطبيعة ١٩٥، ومن الفظاعة أن يُضطرَّ المرءُ أن يمدح كمدح ذلك الذي كان أولَّ من أوحى إلى أهل ضِفَّاف الأورثوك باستخدام الألواح على أصداغ أولادهم فتضمَّن لهم قسماً من سخافتهم وسعادتهم الأصلية على الأقل.

وبالوظائف الحيوانية الصُّرفة ١٠٥، إذن، يبدأ الإنسان الممجى الذي تكبله الطبيعة إلى الغريزة وحدها، أو تُعوِّضه، على الصحيح، مما يعوّزه على ما يحتمل، بخصائص صالحة لتقوم مقامها في البداءة، ولترفعه فوقها كثيراً فيما بعد، وتقوم على المشاهدة والشعور حاله الأولى التي تكون مشتركةً بينه وبين جميع الحيوانات، وتكون الإرادة وعدم الإرادة والرغبة والرَّهبة أولى أعمالِ نفسه، وتكون هذه الأعمال وحدها تقريباً، وذلك حتى تؤدِّي أحوال أخرى إلى نشوء جديد من خصائصه.

ومهما يقلُّ علماء الأخلاق يُعدُّ الإدراك البشري مديناً كثيراً للأهواء التي هي مدينةٌ كثيراً لهذا الإدراك أيضاً، كما يُسلم به على العموم، وذلك أن عقلنا يتكامل بفاعلية الأهواء، وذلك أننا لا نبحث عن المعرفة إلا لأننا نرغب في الاستمتاع، فيتعذر علينا أن نتمثل السبب في كون الذي لا رغائب ولا مخاوف عنده يتكبد مشقة التعقل، والأهواء بدورها نجد أصلها في احتياجاتنا، ونجد نشوءها في معارفنا، وذلك لأنه لا يُمكن أن يُرغَب في الأشياء أو أن تُخشى الأشياء إلا للأفكار التي يُمكن أن تدور حولها، أو لاندفاع الطبيعة، وإذ إن الإنسان الوحشي محرومٌ كلُّ نوع من الذكاء فإنه لا يبتلى غير أهواء هذا النوع الأخير، ولا تغدو رغائبه حدَّ احتياجاته الطبيعية ١١٥، وكلُّ ما يعرفه في الكون هو الغذاء والأنثى والنوم، وكلُّ ما يخافه من الشرور هو الألم والجوع، وأقول الألم، لا الموت، لأن الحيوان لا يعرف ما الموت مطلقاً، فمعرفة الموت وأهواله هي من أول ما اكتسبه الإنسان بابتعاده عن الحال الحيوانية.

ويسهل عليّ، عند الاقتضاء، أن أؤيد هذا الشعور بالوقائع فأثبت أن تقدم النفس لدى جميع أمم العالم يتناسب وما أخذته الشعوب عن الطبيعة من الاحتياجات أو التي جعلتها الأحوال خاضعةً لها، ومن ثمَّ يتناسب والأهواء التي حملتها على قضاء هذه الاحتياجات، وإنى إذ أُبين أن الفنون تولد وتنتشر في مصر مع فيضان النيل أتبع تقدمها عند الأغرقة حيث رُئي

نبتها ونموها ونهوضها حتى السماوات بين رمال الأتيك وصخره من غير أن تستطيع التأصل على ضفاف الأوروتاس الخصيبة، فألاحظ أن شعوب الشمال أكثر جدًا من شعوب الجنوب على العموم، وذلك لأنها أقل استغناء من أن تكون هكذا، وذلك كما لو كانت الطبيعة تود أن تساوي بين الأشياء بأن تمنح النفوس من الخضب ما تاباه على الأرض.

ولكن من ذا الذي لا يترى، من غير رجوع إلى أدلة التاريخ المتقلبة، أن كل شيء يُبعد من الإنسان الوحشي كلاً من الإغراء ووسائل تبديل حاله كما يلوح؟ لا يُصور خياله شيئاً له، ولا يسأله قلبه شيئاً، وتكون احتياجاته الضئيلة من سهولة وجودها قبضةً يده، ويكون من ابتعاده عن درجة المعارف التي لا بُدَّ منها ليرغب في اكتساب ما هو أعظم منها، ما لا يُمكن أن يكون له معه حذر ولا حُبُّ اطلاع، ويُغدو غير مكترث لمنظر الطبيعة لما يصير مألوفاً لديه، وهو يُبصر فيه ذات النظام وذات التقلبات دائماً، وليس عنده روح الدهش من أعظم العجائب، وليس عنده ما يجب أن يُنحَث به عن الفلسفة التي يحتاج الإنسان إليها ليُعرف أن يلاحظ مرةً ما رآه في جميع الأيام، وتُسَلِّم روحه التي لا يهزُّها شيءٌ نفسها إلى إحساس وجوده الحاضر من غير أيِّ فكرٍ عن المستقبل مهما كان قريباً، ولا تكاد أغراضه المحدودة كأبصاره تمتدُّ إلى نهاية نهاره، ولا تزال هذه درجة إدراك الكرايبي الذي يبيع فراشه القطنى صباحاً ويكي مساءً لاشترائه، وذلك عن عدم بصره بأنه سيحتاج إليه في الليلة القادمة.

وكلما فُكِّر في هذا الموضوع عَظُمَت في نظرنا المسافة بين الإحساسات الخالصة وأبسط المعارف، ومن المُحال أن يُتمثَّل إمكان استطاعة الإنسان بقواه وحدها، ومن غير استعانة بطريق، ومن غير دافع ضرورة، أن يُجاوِز مثل تلك الفاصلة، وما أكثر القرون التي مرَّت على ما يحتمل قبل أن يشاهد الإنسان ناراً غير التي في السماء! وما أكثر ما وَجَب وقوعه من مصادفاتٍ لتعلُّم أكثر استعمال لهذا العنصر شيوعاً! وما أكثر ما تُرك يُطفأ قبل اكتساب صنعة إنتاجه ثانية! وما أكثر ما زال، على ما يحتمل، كلُّ واحدٍ من هذه الأسرار بزوال الذي اكتشفها! وما نقول عن الزراعة، عن هذا الفن الذي يتطلب عملاً كثيراً وحذراً كبيراً، عن هذا الفن الذي يرتبط في فنون كثيرة أخرى، والذي لا تمكن مزاولته في غير مجتمع مبدوءٍ على الأقل كما هو واضح جداً،

والذى لا ينفخ كثيراً في إخراج أقوات من الأرض ثمَّدُّ بها من غير هذا إلا بِحَمْلِهَا على إنتاج ما هو أكثر ملاءمة لذوقنا؟ ولكن لنفترض أن الناس بلغوا من الكثرة ما عادت الإنتاجات الطبيعية معه غير كافية لتغذيتهم هذا الافتراض الذى يدلُّ، عند القول العابر، على حياة بالغة النفع للنوع البشرى، ولنفترض أن آلات الفلاحة نزلت من السماء وصارت قبضة الممَّج من غير كبير^(١) ولا مَعْمَلٍ، وأن هؤلاء الناس قَصَّوا على الحقد القاتل الذى يَحْمِلونه نَحْوَ عمل دائم كذلك، وأنهم تَعَلَّموا البَصْرَ فى احتياجاتهم من أمد بعيد، وأنهم حَزَرُوا كيف يجب أن تُحْرَث الأرض، وتُبَدَّرَ الحبوب، وتُغْرَسَ الأشجار، وأنهم وَجَدُوا فنَّ طَخَنِ البُرِّ وتخمير العِنَب، أى اتفقت لهم جميع هذه الأمور التى وجب أن تكون الآلهة قد عَلَّمَتْهم إياها ما دام لم يُتَمَثَلْ كيف تَعَلَّمُوا بأنفسهم، فمن يكون ذلك الإنسان الذى يَبْلُغُ من السخافة ما يُزْعج معه نفسه بزراعة حقلٍ تُنزع غَلَّتُهُ من قِبَلِ أولِ آتٍ، إنساناً كان أو حيواناً، غيرَ مبالٍ بمن يلائمه هذا الحصاد؟ وكيف يُمكن كلُّ واحدٍ أن يَغْرِمَ على قضاء حياته فى عملٍ شاقٍ يَتَوَقَّأُ بأنه لا ينال مقابله مع اضطراره إليه؟ والخلاصة: كيف يُحْمَلُ الناسُ بهذا الوَضْعِ على زراعة الأرض ما دامت غيرَ مُقَسَّمةٍ بينهم، أى ما دامت حال الطبيعة غيرَ مُلغاةٍ مطلقاً؟

ومتى افترضنا وجود إنسان وحشٍ بارعٍ فى فنِّ التفكير كما يجعله لنا فلاسفتنا، ومتى جعلنا منه فيلسوفاً على مثالهم، قادرٍ على اكتشافه وحده أعلى الحقائق، واضعٍ بسلاسل من البراهين المجردة جداً مبادئ عدلٍ وعقلٍ مستنبطةٍ من حبِّ النظام على العموم أو مقتبسةٍ من إرادة خالقه المعروفة، والخلاصة أننا إذا افترضنا له فى النفس من الذكاء والثقافة ما يجب أن يكون له، فيوجد فيه ثِقَلٌ وسُخْفٌ فعلاً، فأى فائدة يَسْتخرِجُ النوعُ من هذه اللاهوتيات التى لا يُمكن أن تُنقل من واحدٍ إلى آخر، والتى تزول مع الذى ابتدعها؟ وأى تقدم يُمكن أن يتفق للنوع البشرى المُفَرَّقِ فى الغابات بين الحيوانات؟ وما المدى الذى يُمكن الناس أن يتكاملوا فيه ويتفقوا مقابلةً، هؤلاء الناس الذين كانوا عاطلين من المأوى الثابت، غيرَ محتاجٍ بعضهم إلى بعض، فلا يكادون يتلاقون مرتين فى حياتهم على ما يحتمل، وذلك مع عدم تعارفٍ وتحدثٍ؟

(١) الكبير: زقٍ ينفخ فيه الحداد.

وَلِيُنْعَمَ النَّظْرُ فِي مَقْدَارِ الْأَفْكَارِ الَّتِي نَعُدُّ مَدِينِينَ بِهَا لِاسْتِعْمَالِ الْكَلَامِ، وَفِي مَقْدَارِ مَا تُدْرَبُ بِالنَّحْوِ أَعْمَالُ النَّفْسِ وَتُسَهَّلَ بِهِ، وَلِيُفَكَّرَ فِي الْمَشَاقِّ الَّتِي لَا تُتَصَوَّرُ وَفِيهَا لَا حَدٌّ لَهُ مِنَ الزَّمَنِ نَمَنَّا لِاخْتِرَاعِ اللُّغَاتِ الْأُولَى، وَلِتُضَفَّ هَذِهِ التَّأْمَلَاتُ إِلَى السَّابِقَةِ، وَلِيُحْكَمَ فِي مَقْدَارِ مَا وَجَبَ مِنَ أَلْفِ الْقُرُونِ، لِيُنْتَمَى فِي النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ بِالتَّعَاقِبِ مَا كَانَتْ قَادِرَةً عَلَيْهِ مِنَ الْأَفْعَالِ.

وَلِيُسْمَخَ لِي بِالنَّظَرِ هُنَيْهَةً فِي عَوَائِقِ أَسْأَلِ اللُّغَاتِ، وَيُمْكِنْتَنِي أَنْ أَذْكَرَ، أَوْ أَكْرُرَ، هُنَا مَبَاحَثَ الشَّمَاسِ دُوْكَوْنِيْدِيَاكِ الَّتِي قَامَ بِهَا حَوْلُ هَذَا الْمَوْضُوعِ فَتُوَيْدُ مِنْهَا جِي تَمَامًا، وَيَحْتَمَلُ أَنْ كَانَتْ أَوْلَ مَا أَوْحَى إِلَيَّ بِالْفِكْرَةِ الْأُولَى، وَلَكِنَّهُ يَتَضَحُّ مِنَ الْوَجْهِ الَّذِي يُجَلُّ بِهِ هَذَا الْفِيلَسُوفُ مَا يُشِيرُهُ مِنَ الْمَشَاكِلِ حَوْلَ أَسْأَلِ الْحَرَكَاتِ الْمَوْضُوعَةِ أَنَّهُ افْتَرَضَ مَا أَسْأَلُ عَنْهُ، أَيَّ ضَرْبًا مِنَ الْمَجْتَمَعِ الْقَائِمِ بَيْنَ مَبْتَدَعِي اللُّغَةِ، فَارَى، حِينَ أَرَدْتُ إِلَى تَأْمَلَاتِهِ، أَنْ أُضَيِّفَ تَأْمَلَاتِي لِأَعْرِضَ عَيْنَ الْمَشَاكِلِ عَلَى نُورِ مَا يَنْسَبُ مَوْضُوعِي، وَأَوْلُ مَشْكَالَةٍ تَظْهَرُ هُوَ أَنْ يُتَصَوَّرَ كَيْفَ امْتَكَنَ أَنْ تَصِيرَ اللُّغَاتُ ضَرُورِيَّةً، وَذَلِكَ بِمَا أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ النَّاسِ أَيُّ اتِّصَالٍ وَلَا أَيُّ احْتِيَاجٍ إِلَى هَذَا الْإِتِّصَالِ؛ فَإِنَّهُ لَا يُتَصَوَّرُ لَزُومُ هَذَا الْإِخْتِرَاعِ وَلَا إِمْكَانُهُ لَوْ كَانَ غَيْرَ ضَرُورِيٍّ، وَأَقُولُ كَأَخْرَجِينَ كَثِيرِينَ: إِنْ اللُّغَاتُ وُلِدَتْ مِنْ إِخْتِلَاطِ الْأَبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ وَالْأَوْلَادِ إِخْتِلَاطًا أَهْلِيًّا، غَيْرَ أَنْ هَذِهِ الْوَسِيلَةُ لَا تَحُلُّ الْمَشَاكِلَ مَطْلَقًا، وَهِيَ، فَضْلًا عَنْ ذَلِكَ، تَنْطَوِي عَلَى خَطَأٍ مَنْ يُبْرَهِنُونَ حَوْلَ حَالِ الطَّبِيعَةِ فَيَدْخُلُونَ إِلَى بَرَاهِينِهِمْ أَفْكَارًا اقْتَبَسَتْ مِنَ الْمَجْتَمَعِ، فَلَا يَنْفَكُونَ يَرُونَ الْأُسْرَةَ تَعِيشَ تَحْتَ سَقْفِ وَاحِدٍ، وَأَنْ أَفْرَادَهَا يَحْتَفِظُونَ فِيهَا بَيْنَهُمْ بِاتِّحَادٍ وَثِيْقٍ دَائِمٍ كَمَا بَيْنَنَا، حَيْثُ تَجْمَعُ بَيْنَهُمْ مَصَالِحٌ كَثِيرَةٌ مُشْتَرَكَةٌ، مَعَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِلنَّاسِ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ الْإِبْتِدَائِيَّةِ مَنْزِلٌ وَلَا كَوْخٌ وَلَا مُلْكٌ مِنْ أَيِّ نَوْعٍ كَانَ، فَيَعِيشُ كُلُّ وَاحِدٍ أَيْنَمَا وَجِدَ اتِّفَاقًا، وَلِلَّيْلَةِ وَاحِدَةً فِي الْغَالِبِ، وَكَانَ الذُّكُورُ وَالْإِنَاثُ يَخْتَلِطُونَ عَرَضًا وَفَقَّ مَا يَقَعُ مِنَ التَّقَاءِ وَفُرْصَةِ وَمَيْلٍ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ الْكَلَامُ تُرْجَمَانًا ضَرُورِيًّا كَثِيرًا لِلْأُمُورِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهِمْ أَنْ يُعَبَّرَ وَاعْتَبَرُوا عَنْهَا، وَكَانُوا يَفْتَرِقُونَ بِسَهُولَةٍ ١٢٥ كَالَّتِي يَجْتَمِعُونَ بِهَا، وَكَانَتْ الْأُمُّ تُرْضِعُ أَوْلَادَهَا فِي الْبُدَاءَةِ عَنْ احْتِيَاجٍ خَاصٍّ لَهَا، ثُمَّ جَعَلْتَهُمْ الْعَادَةُ غَالِبِينَ فَصَارَتْ تُغَدِّيهِمْ عَنْ احْتِيَاجِ فِيهِمْ، وَكَانُوا إِذَا مَا أَصْبَحُوا مِنَ الْقُوَّةِ مَا يَبْتَخَنُونَ مَعَهُ عَنْ قُوَّتِهِمْ لَمْ يُعْتَمُوا أَنْ يَتْرَكُوا الْأُمَّ نَفْسَهَا، وَبِمَا أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنْ وَسَائِلِ الْإِتِّقَاءِ تَقْرِيْبًا غَيْرُ عَدَمِ

الغياب عن العين فإنهم كانوا لا يتعارفون إذا ما تَلَقَوْا ثَانِيَةً، ولنلاحظ، أيضاً، اضطراز الولد إلى إيضاح جميع احتياجاته، ومن ثَمَّ وجود أمورٍ كثيرة يقولها الولدُ لأمه أكثر من أن تقولها أمه له، فكان عليه أن يقوم بأعظم جهودٍ للإبداع، فوجب أن تكون اللغة التي يستعملها من صنعه الخاصِّ إلى حدِّ بعيد، وهذا ما يجعل اللغاتِ من الكثرة بعدد الأفراد الذين يتكلمون بها، وهذا مع وجوب زيادة تنوعها بما يأتونه من حياة التَّسَكُّعِ والتَّيْهَانِ التي لا تترك لأية لغةٍ من الوقت ما نكتسب معه ثباتاً، وذلك لأن القول بأن الأم تُمَلِّي على الولد من الكلمات ما يجب عليه أن يستعمله ليسألها عن هذا الشيء، أو ذاك يدلُّ جيداً على الوجه الذي تُعَلِّمُ به اللغات التي تَمَّ تكوينها، غير أن هذا لا يُوضِح كيف تَكُونُ.

ولنفترض أن هذه الكلمة الأولى مشكلةٌ ذَلَّتْ، ولتُجاوِزَ للحظةٍ ما وَجَبَ وجودُه من مسافةٍ واسعة بين الحال الطبيعية الخالصة والحاجة إلى اللغات، ولنبحث بافتراضها ضرورةً «١٣» عن الوجه الذي استطاعت أن تبدأ به وتستقرَّ، وهذه مشكلةٌ جديدةٌ أسوأ من السابقة أيضاً، وذلك لأن الناس إذا كانوا محتاجين إلى الكلام ليتعلموا التفكير فإنهم أكثرُ احتياجاً إلى معرفة التفكير لإيجاد فنِّ الكلام، وإذا ما أدرك الوجه الذي أُخِذَتْ به تَبَرَّاتُ الصوت لتكون ترجمةً اتفافيةً لأفكارنا فإنه يبقى علينا، دائماً، أن نَعْرِفَ ما استطاع أن يَكُونُ ترجمةً هذا الاتفاق عن الأفكار التي ليس موضوعُها محسوساً فتستطيع أن تدلَّ على نفسها بالحركة أو بالصوت، وذلك أننا لا نكاد نستطيع أن نَضَعُ فَرَضِيَّاتٍ محتملةً حَوْلَ ظهور هذا الفن في نقل الإنسان أفكاره وإقامة صلةٍ بين النفوس، هذا الفن العالي البعيد جداً من أصله، ولكن مع كون الفيلسوف لا يزال يراه على مسافةٍ لا يُعْرِفُ مَدَاهَا بُعْدًا من الكمال، ولكن مع عدم وجود إنسانٍ بالغٍ من الجزأة ما يُؤكِّد عدم الوصول إليه مطلقاً، ولو وَقَفَتْ نَفَعًا له ما يُوجِبُه الزمنُ من الانقلابات، ولو أُنْقِصَتِ المُبْتَسِرَاتُ^(١) عن المجامع الأدبية أو صَمَّتْ أمامها، ولو استطاعت هذه المجامع أن تُعْنَى بهذا الموضوع الشائك في قرونٍ كاملة بلا انقطاع.

وصوت الطبيعة هو اللغة الأولى للإنسان، وهو أكثر اللغات انتشارًا ونشاطًا، وهو الوحيد الذي احتاج إليه قبل وجوب إقناعه أناسًا مجتمعين، وبما أن هذا الصوت لم يُنتزع إلا بنوع من الغريزة في الأحوال الملحة التماسًا للعون في الأخطار العظيمة، أو للتخفيف في الأمراض العنيفة، فإنه لم يكن كبير الاستعمال في أثناء الحياة العادية حيث يسود أكثر المشاعر اعتدالًا، ولمَّا أخذت أفكار الناس تنتشر وتزيد وقامت بينهم صلة أشد إحكامًا، بحثوا عن حركات أكثر عددًا، وعن لغة أعظم اتساعًا؛ فزادوا إمالات الصوت، وأضافوا إليه من الحركات ما هو أكثر تعبيرًا، وما يكون معناه أقل توقعًا على تحديد سابق، وبالحرركات يُعبَّر، إذن، عن الأشياء المنظورة والمتحركة، وبالأصوات المماثلة يُعبَّر عن الأشياء التي تُفَرِّغُ السَّمْعَ، ولكن بما أن الحركة لا تدل على غير الأشياء الحاضرة أو التي يسهل وصفها، وعلى الأعمال المنظورة، وبما أنها ليست شاملة الاستعمال ما دام ظلام الجسم أو تداخله يجعلها غير ذات عمل، وبما أنها تقتضي اتباعًا أكثر من إثارة، فإنه رنى في نهاية الأمر أن تُستبدل بها مفاصل الصوت التي هي، من غير أن تكون عين الصلة ببعض الأفكار، أصلح لتمثيلها جميعها كإشارات مصطلح عليها، واستبدال كهذا لا يُمكن أن يتم إلا باتفاق عام وعلى وجه يصعب تطبيقه على أناس لم تعود أعضاؤهم الغليظة ممارسته بعد، وأصعب من ذلك أيضًا إدراكه في ذاته ما وجب أن يكون ذلك الاتفاق الإجماعي مُبرهنًا وما ظهر أن الكلام ضروري إلى الغاية توطيدًا لعادة الكلام.

ويجب أن يرى أن الكلمات الأولى التي استعملها الناس قد انطوت في روحها على معنى أكثر اتساعًا بما لم يكن للكلمات التي تُستعمل في اللغات القائمة، وهي إذ تُجهل تقسيم الكلام إلى أجزائه المتابعة فإنها منحت في البداية كل كلمة معنى جملة بأجمعها، وهي إذ أخذت تميز الفاعل من المفعول والفعل من الاسم، وهذا ما لا يصدُر عن جهدٍ ضيق من العبقرية، فإن الأسماء لم تكن في البداية غير أسماء خاصة، وإن الحاضر هو الزمن الوحيد للأفعال، وأما النعوت فوجب أن تكون قد تقدّمت بصعوبة عظيمة، وذلك لأن كل نعت هو كلمة مجردة، ولأن المجردات أعمال شاقة غير طبيعية إلا قليلًا.

وقد نال كل شيء اسمًا خاصًا في البداية، وذلك من غير نظير إلى الأجناس والأنواع التي لم يكن الواضعون الأولون ليُفرقوا بينها، وقد تمثّل جميع الأفراد لنفوسهم على أفراد كما في رسم

الطبيعة، وإذا كانت إحدى البلوطات تُدعى (أ) وكانت الأخرى تُدعى (ب) فإن الفكرة الأولى التي تُستنبط من الأمرين هي أنها ليسا عينَ الشيء، فَوَجِبَ في الغالب مرورُ زمنٍ كبيرٍ لملاحظة ما هو مشتركٌ بينهما، وذلك أنه كلما كانت المعارف محدودةً اتسع مَدَى المُعْجَم، ولم يكن من السهل أن يُزَالَ عُسْرُ استعمالِ هذا المعجم؛ وذلك لأن صَفَّ الموجودات تحت تسمياتٍ عامَّةٍ وِجْسيَّةٍ كان يتطلب معرفة الخصائص والفروق، كان يتطلب من الملاحظات والتعريفات، أى من التاريخ الطبيعيِّ ومما بعد الطبيعة، ما هو أكثرُ مما يُمكن آدمي ذلك الزمن أن يُحَوِّروه بمراحل.

ثم إن الأفكار العامة لا يُمكن أن تُدخَلَ في النفس من غير مساعدة الكلمات، ولا يُمكن أن يراها الإدراك من غير جُمْلٍ، وهذا هو أحدُ الأسباب في عجز الحيوانات عن تكوين مثل هذه الأفكار واكتساب ما يتوقف عليها من كمال، وإذا ما انتقل قِرْدٌ من جَوْزَةٍ إلى أخرى بلا تردُّدٍ فهل يُرَى أنه كان لديه فكرةٌ عامة عن هذا النوع من الثَمَرِ.. وأنه يقابلُ مثاله بِتَيْنِكَ الجوزتين؟ كلاً، لا رَيْب، غير أن منظر إحدى الجوزتين يَرُدُّ إلى ذاكرته من المشاعر ما أخذه عن الأخرى، وتُخْبِرُ عيناه، اللتان عُدلتا على وجهٍ ما، ذوقه بالتعديل الذي يوشك أن يصيبه، وكلُّ فكرةٍ عامَّةٍ ذهنيةٌ، ولا تَلْبَثُ الفكرةُ أن تكون خاصةً إذا ما زجها شيءٌ من الخيال، وإذا حاولتم أن ترسموا في ذهنكم صورةً شجرةٍ على العموم لم تَبْلُغُوا غايتكم قَطُّ، فيجب أن تُرَى، على الرغم منكم، صغيرةً أو كبيرةً، عاريةً أو كثيفةً، زاهرةً أو قائمةً، وإذا كنتم من الحال ما لا تَرَوْنَ معه فيها غيرَ ما هو مشتركٌ بين جميع الشجر عادت هذه الصورةُ لا تشابه شجرةً مطلقاً، وتُبْصِرُ الموجودات المجردةُ على ذات الوجه، أو هي لا تُدركُ بغير الكلام، ومن ذلك أن تعريف المثلث يعطيكم عنه فكرةً حقيقيةً، فمتى جعلتم له صورةً في ذهنكم كان مثلثاً خاصاً، لا مثلثاً آخرَ، ولم يُمكنكم أن تجتنبوا منحَه خطوطاً محسوسةً أو رسماً مُلَوَّناً، ولذا يجب استعمال جُمْلٍ، ولذا يجب الكلامُ، لتبيل أفكارٍ عامةً، وذلك لأن الخيال إذا ما وَقَفَ عاد الإدراك لا يسير بغير مساعدة الكلام، ولذا إذا كان المُبدعون الأولون لم يستطيعوا إطلاق أسماءٍ على غير ما كان عندهم من أفكارٍ فإن الأسماء الأولى لم تستطع أن تكون غير أسماءٍ خاصة.

ولكن عندما أخذ نحويونا الجدد ينشرون أفكارهم ويُعمِّمون كلماتهم بوسائل لا أتصورها وجب أن يؤدي جهل المبدعين إلى حصر هذا النهج ضمن حدود ضيقة جدًا، وبما أنهم كثروا أسماء الأفراد في البُداء إلى الغاية، عن عدم معرفة الأنواع والأجناس، فإنهم جعلوا أنواعًا وأجناسًا قليلةً إلى الغاية فيما بعد، وذلك عن عدم نظير إلى الموجودات من حيث جميع فروقها، وكان لأبد لهم من تجارب ومعارف أكثر مما كانوا يستطيعون حيازته، وكان لأبد لهم من مباحث وجهود أكثر مما كانوا يريدون اتخاذها، حتى يوسعوا نطاق التقسيمات إلى مدى بعيد بدرجة الكفاية، والواقع أنه إذا ما اكتشفت في كل يوم، وفي يومنا أيضًا، أنواع جديدة لم تلاحظ سابقًا فإن من الرأي أن يُنعم النظر في مقدار ما كان قد غاب منها عن لا يتحكمون في الأمور إلا عن أول نظرة، ومن غير الضروري أن يُضاف إلى هذا كون الأصناف الابتدائية وأكثر التصورات عمومًا قد غابت عن ملاحظتهم أيضًا، وكيف كانوا، مثلًا، يتصورون أو يسمعون كلمات: المادة والنفس والجوهر والنمط والشكل والحركة، مادام فلاسفتنا الذين يستعملونها منذ زمن طويل جدًا يجيدون مشقة في سماعها بأنفسهم.. وما دامت الأفكار التي تُربط بهذه الكلمات خاصة بما بعد الطبيعة تمامًا فلا يجيدون لها نظيرًا في الطبيعة.

وأقف عند هذه الخطوات الأولى، وأتمس من قضاتي أن يُمنسكوا عن قراءتهم لينظروا في اختراع الأسماء المادية، أي في قسم اللغة الذي هو أسهل ما يوجد، وذلك أنه لا يزال يوجد طريق كبيرة تُسلك قبل أن يُعبَّر عن جميع أفكار الناس، وقبل أن تتخذ هذه الأفكار شكلًا ثابتًا يُعربُّ به عن مقاصد الجمهور ويؤثر في المجتمع، وأتمس من قضاتي أن يتأملوا فيما يجب من الوقت والمعارف لإيجاد الأعداد «١٤» والأسماء المجردة والمضارع وجميع أزمنة الأفعال والحروف والتراكيب وربط الجملة ووجوه القياس وتأليف منطق الكلام، وأما أنا، وتُخيفني المصاعب التي تتكاثر، وأقنع بما هو ثابت تقريبًا من استحالة ظهور اللغات واستقرارها بوسائل بشرية صرفة، فأدع لمن يريد القيام بذلك أن يناقش في هذه المسألة الصعبة التي كانت أكثر الأمور لزومًا للمجتمع المرتبط في نظام اللغات، أو للغات المخترعة المرتبطة في نظام المجتمع.

ومهما يكن من أمر هذه الأصول (للغات والمجتمع) فإنه يُرى على الأقل، من قلة عناية الطبيعة بتقريب بعض الناس من بعضٍ باحتياجاتٍ متقابلة وتسهيلها استعمالَ الكلام، مقدارَ قلةٍ إعدادها لأنسبهم ومقدارَ قلةٍ ما وَضَعَتْه من ذاتها في جميع ما صنعوه إيجاباً للمثل روابط الاتحاد هذه، والواقع أنه يستحيل تصورُ السبب في كون الإنسان في هذه الحال الابتدائية يحتاج إلى إنسانٍ آخرٍ أكثرَ من احتياج الفرد أو الذنب إلى آخرٍ من نوعه، ولا تَصَوُّرُ السببِ في حمل الآخر على قضاء هذا الاحتياج عند افتراضه، ولا تَصَوُّرُ وجهٍ إمكانِ اتفاقهما على الشروط في هذه الحال الأخيرة، وأعلم أنه يقال لنا مكرِّراً، وبلا انقطاع، إنه لم يكن مثل الإنسان بانسٍ في هذه الحال، فإذا صحَّ ما اعتقد إثباتي له من أنه لم يساوره مِثْلٌ أو فرصةٌ للخروج منها إلا بعد قرون كثيرة كان هذا قضية تُرْفَعُ على الطبيعة، لا على الذي جَبَلْتَهُ هكذا، وأما كلمة «بانس» فلا أجد لها معنى أو إنها لا تَعْنِي غيرَ جِزْمَانِ أَلِيمٍ أو ألمٍ في الجسم والروح، ومما أودُّ أن يُوضَّحَ لي في الواقع ما يُمكن أن يكون نوعُ البؤس في شخصٍ حُرٍّ يتمتع فؤاده بالسكون وبدنه بالصحة، ومما أسأل: أيُّ الأمرين، الحياة المدنية أو الطبيعية، يكون أكثرَ عدمَ احتمالٍ، كما يَغْدُو، لدى من يتمتعون بهما، ولا تكاد نرى حَوْلنا غيرَ أناسٍ يتوجعون من حياتهم، حتى إننا نرى أناساً كثيرين يتزعجونها ما استطاعوا، ولا تكاد القوانين البشرية والإلهية مجتمعةً تَقْفُ هذا الاختلال، ومما أسأل: هل سُمِعَ، قَطُّ، أن همجياً طليقاً دار في خَلْدِهِ أن يشتكى من الحياة فقتل نفسه، وليُنظَرُ، إذنْ، مع قليلِ زَهْوٍ، في الناحية التي يأتي البؤس الحقيقي منها، وعلى العكس لا شىء أشدُّ بؤساً من الإنسان الوحشِي الذي بهرته المعارف وأوجعته الأهواء باحثاً حَوْلَ حياةٍ مختلفة عن حياته، ويظهر أن العناية الرَبَّانية البالغة الحكمة قضت بالألا تَنُمُو الخصائص الحائِزُ لها إلا في فُرْصٍ ممارستها، وذلك لكيلا تكون زائدة ثقيلة قبل الأوان، أو تكون متأخرة لا غيةً عند الاقتضاء، وقد كان يَكْمُنُ في الغريزة وحدها كلُّ ما يحتاج إليه للعيش في حال الطبيعة، وليس له في عقلٍ مثقَّفٍ غيرُ ما يحتاج إليه المجتمع.

ويظْهَرُ أول وهلةٍ أنه لم يكن بين الناس في هذه الحال أيُّ نوعٍ من الصلات الأدبية، ولا واجبات معينة، فيستطيعوا أن يكونوا صالحين أو طالحين، ولم تكن لديهم معايِبٌ ولا فضائلٌ، ما لم تُؤَخَذْ هذه الكلماتِ ضَمْنِ معنى ماديٍّ فُتدعى معايِبَ في الفرد الصفات التي يُمكن أن

تَضَرَّ بقاءه الخاص، وتُدعى فضائل الصفات التي يُمكن أن تساعد على بقاءه، فيجب في هذه الحال أن يُدعى الأكثرُ فضيلةً الأقلُ مقاومةً لاندفاعات الطبيعة، ولكننا، من غير أن نبتعد عن المعنى العادى، نجدُ أن من المناسب أن نَقِفَ الحكمَ الذى نستطيع سَوِّقَهُ حَوْلَ مثل هذا الوضع، وأن نَحْدَرَ مُبْتَسِرَاتِنَا حتى يُبْحَثَ، والميزانُ فى اليد، عن وجود فضائل أكثر من المعايير بين المتمدنين، أو عن كون فضائلهم أنفع من عدم شؤم معاييرهم، أو عن كون تقدم معارفهم تعويضًا كافيًا من الشرور التي يأتونها مقابلةً بنسبة الخير الذى يجب أن يصنعوه، أو عن كونهم، إجمالاً، فى وضع لا يَبْدُونَ فيه أعظمَ سعادةً فى عدم وجود شرٍّ يُخْشَوْنَهُ، ولا خَيْرٍ يَرْجُوْنَهُ من أحد، من خضوعهم لطاعة عامة ومن إلزامهم بتبئ كلِّ شىء من أولئك الذين لا يُلْزَمُونَ أنفسهم بإعطائهم شيئاً.

ودَعْنَا لا نستتج مع هُوْبِز، على الخصوص، كونَ الإنسان طالحاً بحكم الطبيعة لكيلا تُتَمَثَّلَ فكرةُ الصلاح، وكونه فاسداً لأنه لا يَعْرِفُ الفضيلة، وكونه يابى على أمثاله دائماً خِدمًا لا يعتقد حَقَّهُم فى طلبها، ولا كونه يطلب، عن حَقِّ، كلِّ شىء يحتاج إليه فيتصورُ، عن حماقة، أنه مالكُ جميع العالم، وقد أصاب هُوْبِزُ فى ملاحظته نقصَ جميع التعريفات الحديثة للحقوق الطبيعية، غير أن النتائج التي استخرجها من تعريفه تدلُّ على اتخاذ هذا التعريفَ ضِمْنِ معنى ليس أقلَّ خطأ، وكان على هذا المؤلف، حين يُبْرَهُنُ حَوْلَ المبادئ التي وضعها، أن يقول: بما أن حال الطبيعة هي الحال التي تكون فيها العناية ببقائنا أقلَّ صَرًّا ببقاء الآخرين فإن هذه الحال كانت أنسبَ للسلم وأصلحَ للجنس البشرى، والعكس هو ما قاله تمامًا نتيجة قبوله قبولاً غير مناسب، وكجزء من عناية الإنسان الوحشى ببقائه، قضاء طائفة من الأهواء التي هي من عمل المجتمع والتي جعلت القوانين أمراً ضرورياً، ومن قوله إن الإنسان الطالح هو ولدٌ قوى، وبِقَى أن يُعْرِفَ هل الإنسان الوحشى ولدٌ قوى، وإذا ما أُعْطِيَ هذا فما عليه أن يستنبط؟ وإذا كان هذا الإنسان القوى تابعاً لآخرين أتباعه لهم عند ضعفه لم يُوجَدَ تَطَرُّفٌ لا يكون مذنباً به، وليَضْرِبَ أمه إذا ما تأخرت عن إعطائه ثديها، وليَخْتُقْ أحدَ إخوته الصغار إذا ما أزعجه، وليَعَضَّ ساق أخٍ آخر له إذا ما أقلقته، فلا تنطوى هذه الأمور على غير افتراضين متناقضين فى

حال الطبيعة التي يكون فيها ذلك الإنسان قوياً وتابعاً، ويكون الإنسان ضعيفاً عندما يكون تابعاً، وهو يكون طليقاً قبل أن يكون قوياً، ولم يَرْ هُوْبِزُ أن ذات العلة التي تَمْتَنعُ الهَمَجُ من استعمال عقلهم كما يَزُعمُ فقهاؤنا تَمْتَنعُهم في الوقت نفسه من سوء استعمال خصائصهم كما يَزُعمُ هُوْبِزُ نفسه، فبذلك يُمكن أن يقال إن الهَمَجُ ليسوا طالحين لأنهم لا يَعْلَمون معنى كونهم صالحين، وذلك لأن سكون الأهواء وجهل العيب هما اللذان يُجولان دون صنعهم الشَّرَّ، «فجهل العيب أكثرُ فائدةً للواحد من معرفة فضيلة الآخر»^(١)، ثم يُوجد مبدأً آخرُ لم يُبْصِرْهُ هُوْبِزُ قَطُّ، وذلك: بما أن الإنسان قد أُعْطِيَ ما يُلَطَّفُ به في بعض الأحوال قسوةً أنانيته أو رغبته في البقاء قبل أن تُولد هذه الرغبة «١٥» فإنه يُعَدَّلُ ما فيه من هُمَيَّا البحثِ عن هِئاهُته بتفوره الفطريُّ من مشاهدة نظيره يَألمُ، ولا أُجِدُّ ما أخشاه من تناقضٍ بذهابي إلى أن الإنسان حائزٌ للفضيلة الطبيعية الوحيدة التي لا يُمكن أن يُنكِرَها أكثرُ الناس طعنًا في الفضائل البشرية، وأتكلم عن الرحمة، عن هذا الأمر الملائم للأشخاص البالغين من الضعف والمَعْرُوضين لكثير من الشرور كما نحن عليه، عن هذه الفضيلة البالغة من الشمول العظيم والنفع العميم للإنسان ما تَسْبِقُ فيه كلُّ تأملٍ، عن هذه الفضيلة البالغة من ملاءمة الطبيعة ما تَصُدُّرُ معه حتى عن الحيوان أحيانًا دلائلٌ محسوسةٌ عليها، وإني، من غير قولٍ عن حَنَانَ الأُمَمَاتِ على صغارها وعن الأخطار التي تقتحمها لتصونها منها، أقول إنه يَرى في كلِّ يومٍ نفورَ الخيلِ من دُوسِ الأجسام الحية تحت سنابكها، ويَرى، مع طيب الخاطر، أن مؤلف قصة النحل المُلزَمَ بأن يَعْرِفَ الإنسانَ موجودًا رحيبًا حَسَّاسًا يَخْرُجُ في المثال الذي أورده عن ذلك من أسلوبه الفاتر الدقيق ليُقَدِّمَ إلينا صورةً مؤثرةً عن إنسانٍ سجينٍ يُبْصِرُ في الخارج حيوانًا ضارياً يَنْزِعُ من حِضْنِ أمِّه طفلًا فيَسْحَقُ بأنياه الفتَّاكة أعضاءه الضعيفة ويَمْرُقُ بمخالبه أحشائه المختلجة، فيأهول ما يَشْعُرُ به شاهدٌ مثل هذا الحادث الذي لا يُهمُّه شخصياً! ويا للجزع الذي يستحوذ عليه عند هذا المنظر حيث لا يستطيع أن يقوم بأى عَوْنٍ لِلأمِّ المَغْشَى عليها، وللطفل المُسَلِّمِ رُوْحَه!

(١) جوستان: التاريخ، الباب الثاني، الفصل الثاني..

وهذا هو انفعال الطبيعة الخالص السابق لكل تأمل، وهذه هي قوة الحنان الطبيعي الذي لم يكذ أفسد الأخلاق يقضي عليه، وذلك لما يرى كل يوم في دور تمثيلنا من أناسٍ راحمين باكين نَعَسَ شَقِيٌّ يزيد آلام أعدائه لو كان في مكان الطاغية، وذلك كسبيلًا السَّفَاح الكثير الشفقة تجاه ما لم يوجبه من البؤس، أو إسكندر الفيروسي الذي لم يجزؤ على مشاهدة تمثيل آية مأساة خشية أن يرى وهو يتنُّ مع أندروماك وبريام، على حين كان يسمع غير راحمٍ صرَّاحٍ مواطنين كثيرين يُذَبِّحون كل يوم وفق أو امره، «فالتبيعة تُصرِّح بأنها أنعمت على النوع البشري بأرق القلوب عند من يسكب لهم عبرات»^(١).

أجل، سَعَرَ ما ندقيل جيداً بأن الناس مع جميع أخلاقهم لم يكونوا قط غير غيلانٍ لو لم تُمنَّ الطبيعة عليهم بالرحمة دعماً للعقل، بيد أنه لم ير صدور جميع الفضائل الاجتماعية التي يُنكر وجودها في الناس، عن هذه الصفة الوحيدة، والواقع ما المروءة والرحمة والإنسانية إن لم تكن الرحمة مُطبَّقة على الضعفاء أو المذنبين أو النوع البشري على العموم؟ حتى إن العطف واللطف، عند حُسن الحكم، نتيجة رافة ثابتة، مستقرّة على موضوع خاص، وذلك: هل تُعدُّ الرغبة في عدم تألم الشخص شيئاً آخر غير الرغبة في كونه سعيداً؟ ومتى صحَّ أن تكون الرافة غير شعورٍ يَصْعُنَا في مكان الذي يألم، غير شعورٍ غامضٍ حادٍّ عند الإنسان الوحشي، نام مع ضعف في الإنسان المتمدن، فما تجلبه هذه الفكرة إلى حقيقة ما أقول إن لم يكن تأييداً له؟ والواقع أن الرافة تشتدُّ بنسبة مطابقة الحيوان الناظر للحيوان المتألم مطابقة وثيقة، ومن الواضح حقاً وجوب كون هذه المطابقة أكثر إحكاماً، بما لا حدَّ له، في حال الطبيعة مما في حال التعقل، فالعقل هو الذي يوجد الأناية، والتأمل هو الذي يقويها، والعقل هو الذي يلوي الإنسان على نفسه، ويفصله عن كل ما يُمكن أن يُزعجه أو يُجزئه، والفلسفة هي التي تفرزه، وبالفلسفة يقول سيرا عند رؤيته إنساناً متألماً: «إن شئت فاهلك، فأنا في أمان»، ولا يوجد غير أخطار المجتمع بأسره ما يُقلق الفيلسوف في نومه، أو ينتزعُه من فراشه، ويُمكن أن يذبح إنسانٌ تحت نافذته إنساناً آخر بلا عقاب، وليس عليه إلا أن يضع يديه على أذنيه وأن

(١) جوفينال، أهاجي، ١٥، ١٣١.

يُساجل نفسه قليلاً لِيَمْنَع الطبيعة التي تحرَّكت فيه من أن تتَّمثل في الشخص الذي يُذبح، ولا تجدُّ عند الإنسان الوحشِي هذا النبوغَ العجيب، وتجدُّ الإنسانَ الوحشِيَّ يُسَلِّمُ نفسه في كلِّ وقت، وبلا زوِيَّة، إلى أول شعورٍ إنسانِي، وترى الرَّعاعَ يتجمعون في الفِتنِ والمشاجرات والشوارع، وترى الإنسانَ الفطينَ يبتعد عنها، والأوباشُ ونساءُ الأسواقِ هم الذين يَفْصِلون بين المتنازعين ويحولون دون تذابيح ذوى الصلاح.

ومن الثابت، إذنً، كَوْنُ الرأفة شعورًا طبيعيًا يُعَدُّل في كلِّ فردٍ نشاطَ حبِّ الذات فيساعد على بقاءِ كلِّ نوعٍ بقاءً متقابلًا، والرأفةُ هي التي نُحْمِلُنَا، من غير تأمُّلٍ، على مساعدة مَنْ نراهم بالمون، والرأفةُ هي التي تقوم في الحال الطبيعية مقامَ القوانين والعادات والفضيلة، وذلك مع مزيتها في عدم وجود أحدٍ يحاول عصيانَ صوتها العذب، والرأفةُ هي التي تُصْرِفُ كلَّ همجي قوِيٍّ عن اختطافه من ولدٍ ضعيفٍ أو من شائبٍ عاجزٍ قوته الذي ناله بمشقةٍ إذا ما أمَلَّ نَيْلَهُ في مكانٍ آخر، والرأفةُ توجي إلى جميع الناس بمبدأ الصلاح الطبيعيِّ القائل: «اصنع خيرًا نحو نفسك بأقلِّ شرٍّ ممكنٍ نحو الآخرين»، وذلك بدلًا من المبدأ العالی للعدل العقليِّ القائل: «عامل الآخرين بما تريد أن يعاملوك به»، والذي هو أقلُّ من الأول فائدةً على ما يحتمل وإن كان أكثر منه كمالًا، والخلاصةُ أنه يجب أن يُنَحَّث في هذا الشعور الطبيعيِّ، أكثر مما في البراهين الدقيقة، عن ذلك النفور الذي يُحْسُهُ كلُّ إنسانٍ عند صنعه الشرِّ، ولو مستقلًا عن مبادئ التربية، ومع أنه يعود على سُفْراطٍ ومن هم على شاكلته أمرٌ اكتساب الفضيلة بالعقل فإن الجنس البشريَّ كان يزول منذ زمنٍ طويلٍ لو تَوَقَّف بقاؤه على تعقلات من يتألف منهم.

ولم يكن الناس، الذين هم همجٌ أكثر من أن يكونوا أشرارًا وأكثر ميلًا إلى اجتناب الشرِّ الذي يُمكن أن يصيبهم من محاولتهم إصابة الآخرين به، عُرضَةً لمنازعاتٍ بالغة الخطر مع أهواءٍ قليلة النشاط وزاجرٍ كثير النفع، وبما أنه لم يكن بينهم أيُّ تعاملٍ فإنهم لم يَعرِفُوا زَهْوًا ولا اعتبارًا ولا احترامًا ولا ازدراءً، ولم يكن عندهم أدنى فكرةٍ عن «مالِي» و«مالِك»، ولا أيُّ رأيٍ حقيقيٍّ عن العدل، وإنهم كانوا يَعُدُّون العنف الذي يُمكن أن يعاونه شرًّا يسهل تلافيه، لا إهانةً يجب العقاب عليها، وإنهم كانوا لا يفكِّرون حتى في الانتقام ما لم يكن آليًا وحالا، وذلك كالكلب

الذي يَعَضُّ الحجر الذي يُرمى إليه، ولذا كان من النادر حدوثُ نتائجٍ دائمةٍ لمنازعاتهم، ما لم تَصُدِّرَ عن أمر القُوت، غير أنني أبصر ما هو أشدُّ خطرًا، فَبَقِيَ لي أن أتكلّم عنه.

يُوجدُ بين الأهواء التي تحرك قلب الإنسان هَوَى ملتهبٌ صائلٌ يَجْعَلُ كُلَّ واحدٍ من الجنسين ضروريًا للآخر، هَوَى هائلٌ يقتحم جميع الأخطار، وَيَقْلِبُ جميع العوائق رأسًا على عَقِب، وَيَلُوحِ صالحًا في صَوْلَاتِهِ لتقويض الجنس البشري المُعَدُّ لِحِفْظِهِ، وما يَجْدُثُ للناس الذين تَسَلَّطت عليهم هذه الحُمَيَّا الجائعة الجافية الخالعة للعِذارِ والعاطلة من الاعتدال والتي تُنازع كُلَّ يومٍ معاشقهم على حساب دَمِيهِمْ؟

وأول ما يجب أن يُعترف به هو أن الأهواء كلها كانت عنيفةً أصبحت القوانينُ ضروريةً لزجرها، ولكنك إذا عَدَوْتَ ما تُوجبه هذه الأهواء بيننا كُلَّ يومٍ من ارتباكٍ وجرائمٍ وجدتها تدلُّ على عدم كفاية القوانين من هذه الناحية، ومن الحَسَنِ أيضًا أن يُنَحَّثَ في هل نشأت هذه الارتباكاتُ مع القوانين نفسها، وذلك لأن القوانين إذا ما استطاعت أن تُحوّل دون هذه الارتباكات حينئذٍ فإن أقلَّ ما يُنتظر منها منع وقوع شرٍّ ما كان ليُوجدَ بغيرها.

ولنبداً بأن نَمَيِّزَ بين الأمور الأدبية والبدنية في إحساس الحبِّ، فالبدنيُّ هو تلك الرغبةُ العامة التي تَحْمِلُ جنسًا على الاقتران بجنسٍ آخر، والأدبيُّ هو الذي يُعَيِّنُ هذه الرغبةَ ويُقَرِّفُها على أمرٍ واحدٍ حضراً، أو هو الذي يَمْنَحُ هذا الأمرَ المُفَضَّلَ، على الأقلِّ، درجةً بالغةً من النشاط، والواقعُ أن من السهل أن يُرى كَوْنُ أدبِ الحبِّ شعورًا مصنوعًا نشأ عن عادة المجتمع، وكونه رُوجٌ من قِبَلِ النساءِ مع كثير من البراعة والعناية تأييدًا لسلطانهنَّ وجعلًا للجنس المُلْزَمِ بالطاعة مسيطرًا، وبما أن هذا الشعور قائمٌ على بعض مبادئ الجمال والمزية لا يكون الهمجى معه في وضعٍ يستطيع أن يناهها فيه، وعلى مقاييسٍ لا يكون معها في وضعٍ يستطيع أن يصنعها فيه، فإنه يجب أن يكون في حُكْمِ العَدَمِ تقريبًا بالنسبة إليه، وذلك بما أن نفسه لم تستطع أن تُكوِّنَ أفكارًا مُجَرِّدةً في الوفاق والنسبة فإن فؤاده لا يتأثر كذلك بمشاعر الإعجاب والحبِّ التي تُؤلِّدُ من تطبيق هذه الأفكار حتى من غير أن يُشعر بها، وهو يَسْمَعُ، فقط، ما ألقته الطبيعة فيه من مزاج، لا الذوق الذي لم يستطع اكتسابه، فتكونُ كُلُّ امرأةٍ صالحَةً له.

والناس، إذ يقتصرون على الحُبِّ البدني، ويكونون من السعادة ما يجهلون معه هذه المفضلات التي تبيح الإحساس وتزيد المصاعب فيهم، يجب أن يكون شعورهم بحرارة المزاج أقل حدوداً ونشاطاً، ومن ثمَّ يجب أن تكون المنازعات بينهم أكثر نُدرةً وأقلَّ قسوة، وما كان الخيال الذي يفتُّ فينا كثيراً ليخاطب القلوب الوحشية مطلقاً، فكلُّ ينتظر اندفاع الطبيعة بهدوء، وهو يفرُّغ لها من غير خيار ومع لذة أعظم من الصَّولة، فإذا قضى الوطر حمدت الرغبة.

ومما لا ريب فيه، إذن، كون الحُبِّ نفسه، كجميع الأهواء، لم يتل في غير المجتمع تلك الحرارة الصائلة التي تجعله سُؤماً على الناس غالباً، ومن موجبات السُّخرية كثيراً أيضاً أن يُعرض الهمج متذابحين بلا انقطاع إرواء لغلة ببيمتهم لمخالفة هذا الرأي للتجربة مباشرة، ولأن الكرايب، وهم أقلُّ الشعوب الموجودة ابتعاداً عن الحال الطبيعية حتى الآن، هم أكثر الشعوب هدوءاً في حُبهم وأقلهم غيرةً، وإن كانوا يعيشون في إقليم محرقٍ يظهر أنه يمنع هذه الأهواء نشاطاً بالغاً على الدوام.

وأما من حيث الاستقرار التي يُمكن الوصول إليها في كثير من أنواع الحيوان عن الوقائع التي تُدعى أحواش دجاجنا في كلِّ وقت، أو التي تُدوى بأصواتها غاباتنا أيام الربيع حينما تتنازع الإناث، فيجب أن يُبدأ باستثناء جميع الأنواع التي جعلت الطبيعة بينها، في قوة الأجناس النسبية، علاقاتٍ تختلف عن التي بيننا كما هو واضح، وهكذا لا يصلح ما بين الدبوك من عراكٍ أن يكون استقراراً للنوع البشري، ففي الأنواع التي تُحسن مراعاة النسبة فيها لا يكون لهذه الوقائع أسبابٌ غير نُدرة الإناث بالقياس إلى الذكور، أو الفواصل المانعة التي تأتي الأنثى فيها اقتراب الذكر باستمرار، وهذا ما يُرَدُّ إلى السبب الأول، وذلك لأن كلَّ أنثى إذا كانت لا تقبل الذكر في غير شهرين من السنة فإن هذا يعدل نقص عدد الإناث خمسة أسداس، والواقع أن كلاً من الحالين لا يطبق على النوع البشري حيث يزيد عدد الإناث على عدد الذكور عادةً، وحيث لم يلاحظ قط، حتى بين الهمج، وجود أوقات معينة للأهواء وعدم المبالاة كما بين الحيوانات الأخرى، ثم إنه يأتي بين كثير من هذه الحيوانات، وحين دخول جميع النوع في دور من الهيجان، وقت هائلٍ للوَلع الشامل وللضوضاء والفوضى والاعتراك، وقت

لا عهد به للنوع البشرى الذى لا يكون الحُبُّ عنده دَوْرِيًّا على الإطلاق، ولذلك لا ينبغي لنا أن نستدلَّ من وقائع مثل هذه الحيوانات لحيازة نساءٍ اتفاق ذات الأمر للإنسان في حال الطبيعة، حتى إنه إذا أمكن استنباط هذه النتيجة أبصر أن هذه المنازعات لا تقضى على الأنواع الأخرى مطلقاً، فلا يكون لدينا سببٌ يحفزنا إلى التفكير في كونها أكثر شؤماً على نوعنا، ومن الواضح جداً كونها تؤدي إلى تخريبٍ في ذلك أيضاً أقل مما تؤدي إليه في المجتمع، ولا سيما البلدان التى تُعدُّ الطبائع فيها شيئاً مذكوراً فتُسفر غيرَ العُشاق وانتقام الأزواج في كل يوم عن مبارزاتٍ ومقاتلٍ وشرٍّ من ذلك، والتى لا ينفع فيها واجبُ الوفاء الأزلِّ لغير الزنى، والتى تُنشر قوانينُ العقاف والشرف نفسها ضروبَ الدعارة بحكم الضرورة وتزيد الإجهاضات.

ولنستتج كونَ الإنسان الوحشِيَّ، وهو يطوفُ في الغاب عاطلاً من الصنّاعة والكلام والمسكن والحرب والرابطة، ومن أى احتياج إلى أمثاله، ومن أية رغبة في الإضرار بهم، ومن تمييزٍ أى واحدٍ منهم فردياً على ما يحتمل، كونَ هذا الإنسان الذى هو عُرضةٌ لقليلٍ من الأهواء والذى يكفى نفسه بنفسه، لم يكن عنده غيرُ المشاعر والمعارف الخاصة بهذه الحال، ولنستتج أنه لم يكن ليُسفرُ بغير احتياجاته الحقيقية، وأنه لم يكن لينظر إلى غير ما يعتقد وجودَ مصلحةٍ له في رؤيته، وأن ذكاه كان لا يتقدم أكثر من زهوه، فإذا ما قام باكتشافٍ مصادفةً كان أقلَّ مَنْ يُمكنه نقله إلى الآخرين ما دام لم يعرف حتى أولاده، وكان كلُّ فنٍّ يزول مع المخترع، وكان لا يوجد تربيةٌ ولا تقدم، وكانت الأجيال تتعاقب على غير جدوى، وكان كلُّ جيلٍ يسير من ذات النقطة دائماً، وكانت القرون تُمرُّ ضمنَ بربرية الأجيال الأولى، وقد أصبح النوع مسناً والإنسان ولداً.

وإذا كنتُ قد أسهبتُ كثيراً في افتراض هذه الحال الابتدائية فوجود أذاليلٍ قديمة كثيرة ومبتسراتٍ متصلة يجب اقتلاعها، ولا اعتقادي وجوب بحثي حتى الجذور وإثباتي في صورة صادقة لحال الطبيعة مقدار بُعْدِ التفاوت، حتى الطبيعي، من أن ينطوى في هذه الحال على حقائق ونفوذ يفترضهما كتابنا.

والحق أن من السهل أن يُرى بين الفروق التي تميزُ الناسَ كثيرٌ يُعدُّ طبيعياً مع أنه من صنع العادة وصُنِعَ أنواع الحياة التي يتحلها الناس في المجتمع، وهكذا فإن المزاج المتين أو القَصف، وإن القوة أو الضعف اللذين يُشتَقَّان منه، يَصدُران في الغالب عن الطراز الشديد أو المُخنث الذي نُشئ عليه أكثر مما عن نظام الأبدان الابتدائي، وقُلْ مِثْلَ هذا عن قُوى النفس، فليست التربية وحدها هي التي تُصعِّق الفرق بين النفوس المُثَقَّفة وغير المُثَقَّفة، وإنما تزيِدُ الفرق الذي يوجد بين الأولى بنسبة الثقافة، وذلك لأن العملاق والقزم يسيران على ذات الطريق، ولأن كلَّ خطوة يقوم بها كلُّ منهما تُنعم على العملاق بفائدة جديدة، والواقع أنه إذا ما قيسَ تنوع التربية العجيب وأنواع الحياة التي تُسودُّ مختلف نُظُمِ الحال المدنية ببساطة الحياة الحيوانية والوحشية ونمطيتها حيث يفتدى الجميع من ذات الأطعمة ويعيش على ذات الوجه ويضع عينَ الأشياء تماماً أذرك مقداراً ما يجب أن يكون عليه الاختلاف بين الإنسان والإنسان في حال الطبيعة أقلَّ مما في حال المجتمع، ومقدارُ التفاوت الطبيعي الذي يجب أن يزيد في النوع البشري بتفاوت النظام.

يَبْدُ أن الطبيعة إذا ما أبدت في توزيع هباتها من المحابة ما يُغزى إليها؛ فأى فائدة ينال من ذلك أكثرُ الناس حُظوةً لديها إجحافاً بالآخرين في حالٍ من الأمور لا يكاد يقول بأى نوع من الصلات بينهم؟ وما نفعُ الجمال حيث لا يوجد حُبٌّ مطلقاً؟ وما نفعُ الذكاء لأناسٍ لا يتكلمون مطلقاً؟ وما نفعُ الحيلة لأناسٍ ليس لديهم أعمالٌ مطلقاً؟ وما أسمعُ تكراره دائماً كونُ الأقوياء يضطهدون الضعفاء، ولكن ليُشرِّح لي ما يُعنى بكلمة الاضطهاد، ويُسيطر بعضهم بعنف، ويثن الآخرون المُعبَّدون لأهوائهم، وذاك ما ألاحظ بيننا تماماً، ولكنني لا أرى كيف يُمكن هذا أن يقال عن أناسٍ من الهَمَجِ لم يسهلْ جعلهم يتصوِّرون ما نُعنى بالسيطرة والعبودية، أجل، يُمكن إنساناً أن يستولى على فواكه اقتطفها إنسانٌ آخر، وعلى قنينة دَبَحها، وعلى كهفٍ اتخذه ملجأً، ولكن كيف يمكنه أن يكون قادراً على حملِه على الطاعة؟ وأى قيودٍ للتابعة يُمكن أن تكون بين أناسٍ لا يملكون شيئاً؟ وإذا ما طردتُ من شجرة مثلاً أمكنني أن أذهب إلى أخرى،

وإذا ما أُوذيتُ في مكانٍ فمن ذا الذي يمنعني من الذهاب إلى مكانٍ آخر؟ وإذا ما وُجدَ إنسانٌ أقوى مني، إنسانٌ على شيءٍ من الفساد والكسل والقسوة ما يَحْمِلُنِي معه على تدارك قُوته في أثناء بطالته، وَجِبَ أن يَغْزِمَ على عدم غُفُو له عن طَرْفَةِ عَيْنٍ، وعلى إِمساكِي مُقَيَّدًا بعناية فائقة في أثناء نومه، وذلك خشيةً أن أفرَّ أو أن أقتله، أى أن يُلْزَمَ بعَرَضٍ نفسه مختارًا المشقةَ أعظمَ من التي يريد اجتنابها ومن التي يريد توجيهها إليَّ، وإذا ما قُتِرَ حَدْرَهُ ثانيةً بعد جميع هذا وحوَّلَ رأسه لصوت مفاجئ، أو غلَّتْ في الغابة عشرين خطوة، وتُكْسَرُ قيودي، ولن يرانى مدى حياته.

وانى، من غير إسهابٍ في هذه الجزئيات على غير جدوى، أرى وجوبَ بَصْرِ كُلِّ واحدٍ في كون روابط العبودية لم تؤلَّفَ من غير اتباع بعض الناس لبعضٍ اتباعًا متقابلًا ومن الاحتياجات المتبادلة التي تَصِلُ ما بينها فيتَعَدَّرُ استبعادُ إنسانٍ من غير سابقٍ وَضَعِ له في حالٍ من لا يستغنى عن آخر، أى وَضَعِ لا يوجد في حال الطبيعة حيث يكون كلُّ واحدٍ سيدًا نفسه ولا يكون لقانون الأقوى أى عمل.

وانى، بعد أن أثبتُّ أن التفاوت لا يكاد يُشعر به في حال الطبيعة، وأن نفوذه فيها يكون صِفْرًا تقريبًا، بَقِيََ علىَّ أن أُبَيِّنَ أصله وتقدِّمه في نشوء الروح البشرية نشوءًا متعاقبًا، وانى، بعد أن بينتُ أن الكمال والفضائل الاجتماعية وغيرها من المزايا التي تكون كامنةً في الإنسان الفطري لا تستطيع أن تَنُمُوَ من تلقاء نفسها، وأنها كانت تحتاج، لوقوع هذا، إلى تضافرٍ عواملٍ كثيرةٍ غريبةٍ تضافرًا عَرَضِيًّا، فكان يُمكنُ ألا تَظْهَرَ، وكان الإنسان يَظَلُّ بدونها في حاله الابتدائية إلى الأبد، بَقِيََ علىَّ أن أنعم النظر فأقرب بين مختلف المصادفات التي استطاعت أن تُكْمِلَ العقل البشرى بإفساد النوع وأن تُحوِّلَ الإنسان إلى شُرَّيرٍ يجعله اجتماعيًا، وأن تجلب الإنسان والعالم في نهاية الأمر، ومنذ زمنٍ بعيدٍ، إلى النقطة التي نراها فيها.

وبما أن من الممكن أن تكون الحوادث التي أصفها قد وقعت على وجوهٍ مختلفة فإننى أعترف بأنه ليس لدى غير الفرضيات ما أعين به خيارى، بيد أن فرضيات كهذه تُصيح أسبابًا عندما تكون أزجَحَ ما يمكن استنباطه من طبيعة الأمور، والوسائل الوحيدة لاكتشاف الحقيقة، ومع

ذلك فإن النتائج التي أريد استخراجها ليست فرضية، ما تَعَدَّرَ وَضَعُ أية نظرية أخرى، بناءً على المبادئ التي أقرُّرها، لا تُمَدُّني بذات النتائج ولا أستطيع أن أستنبطها منها.

وهذا يُغنييني عن جعلِ تأملاتي شاملةً للأسلوب الذي يُعَوِّضُ به مرورُ الزمن من قلة احتمال وقوع الحوادث، وللقدرة العجيبة في العلل التافهة عند تأثيرها بلا مهل، ولتَعَدُّرِ نَقْضِ بعض الافتراضات من ناحية وإن كنا لا نستطيع أن نُعْطِيَهَا، من ناحيةٍ أخرى، درجةً ثبوت الوقائع، ولكونه يَدْخُلُ ضِمْنَ نطاق التاريخ، لدى وجوده، وعندما يُظْهَرُ من الوقائع أمران على أنها حقيقيان فيُربطُ بينهما بسلسلةٍ من الوقائع المتوسطة المجهولة أو المُفْتَرَضِ أنها كذلك، أن يَمْنَحَ الوقائع التي تُربطُ بينهما، ولكونه يَدْخُلُ ضِمْنَ نطاق الفلسفة، عند سكوت التاريخ، أن تُعَيِّنَ الوقائع المماثلة التي يُمكن أن تُربطُ بينهما، ثم لكون المشابهة، في موضوع الحوادث، تُرَدُّ الوقائع إلى عدد قليل جداً من الأصناف المختلفة أكثر مما يُتَّصَوَّرُ، ويكفيني أن أدعَ هذه الأمور لتقدير قضاتي، وأن أُنْخِذَ من الترتيب ما لا يحتاج معه القارئ العاميُّ إلى تَدَبُّرها.

القِسْمُ الثَّانِي

كان مؤسس المجتمع المدني الحقيقي هو الإنسان الأول الذي سَوَّرَ أرضاً فرأى أن يقول: «هى لى»، وقد وَجَدَ من البسطاء من يُصَدِّقونه، فكان مؤسس المجتمع المدني^(١) الحقيقي، وما أكثر ما صان النوع البشرى من جرائم وحروبٍ وقتلٍ وبؤسٍ وهولٍ ذلك الذى خَلَعَ الأوتاد وملا الخندق وهو يقول: «اخذروا سماعَ هذا الدَّجَالِ، فالهلاكُ يُكْتَبُ لكم إذا نَسِيتُمْ أن الثَّمَرَاتِ للجميع وأن الأرض ليست مُلكاً لأحد!» ولكن يوجد ما يدلُّ كثيراً على كون الأشياء قد بلغت إذ ذاك درجةً عادت لا تستطيع البقاء معه كما كانت، وذلك لأن فكرة التملك، إذ كانت تابعةً لكثيرٍ من الفكرِ السابقة التى لم تستطع أن تنشأ إلا بالتابع، لم تُكوِّن دفعةً واحدةً فى نفسِ الإنسان، فَوَجِبَ أن يقع تقدُّمٌ كثير، وأن يتمَّ كثيرٌ من الصَّناعة والمعارف، وأن يُنْقَلَ هذا ويُزَادَ بين جيلٍ وجيلٍ قَبْلَ بلوغِ هذا الحدِّ الأخير من حال الطبيعة، ولتناولِ الأمور من عِلِّ إذَنْ، ولنحاول أن نجمعَ تحت وجهة نظرٍ تعاقبَ الحوادث والمعارف؛ ذلك فى نظامها الأكثرِ طبيعيةً.

وكان أولُ إحساسٍ فى الإنسان شعوره بوجوده، وكان أولُ اعتناءٍ فى الإنسان اهتمامه ببقائه، وكانت إنتاجاتُ الأرض تُقدِّمُ إليه جميعَ ما يحتاج إليه، وكانت الغريزة تحمِّله على استعمال هذا، وكان الجوعُ وغيره من الشَّهَوَاتِ يُشْعِرُهُ بمختلف أساليب البقاء مناوبةً، فكان يوجد فى هذا ما يدعُوهُ إلى إدامة نوعه، وبها أن هذا الميلُ الأعمى عارٍ من كلِّ شعورٍ قلبى فإنه كان لا يُسْفِرُ عن غيرِ عملٍ حيوانى خالص، فإذا ما قُضِيَ الوَطْرُ عاد الجنسان لا يتعارفان، وعاد الولد لا يكون للأُم شيئاً مذكوراً عندما ما يستطيع الاستغناء عنها.

هذا ما كان عليه حال الإنسان الناشئ، وهذا هو عيش الإنسان المقصورِ فى أول الأمر على الإحساسات الخالصة، والذى لا يكاد يستفيد من هِبَاتِ تَعْرِضِهَا الطبيعة عليه، والذى يَبْغِدُ من التفكير فى انتزاع شىء منها، ولكن المصاعب لا تَلْبَثُ أن تَظْهَرُ، فيجب التغلب عليها، فارتفاعُ الأشجار الذى كان يَمْنَعُهُ من الوصول إلى ثمراتها، وتسابقُ الحيوانات التى كانت

(١) كان هؤلاء الأولاد المساكين يقولون: هذا الكلب لى، وهناك مكانى تحت الشمس، وذلك هو بدء اغتصاب جميع الأرض وصورته [بسكال، الأفكار، القسم الأول، مادة ٩: ٥٣].

تحاول الأكل منها، وضرأء الحيوانات التي كانت ترغب فيها حفظاً لحياتها، أمورٌ كانت تحمله على تَعَوُّد التمرينات الرياضية، فَوَجِبَ أن يكون نشيطاً سريعَ العَدُوِّ قوياً في القتال، ولم تُعْتَمِ الأسلحة الطبيعية، التي هي من غصون الشجر ومن الحجارة، أن أصبحت قبضته، وقد تعلم اقتحام عوائق الطبيعة، ومكافحة الحيوانات الأخرى عند الضرورة، ومنازعة الناس الآخرين قوته، أو تعويض نفسه مما كان قد أُجِرَ على تركه للأقوى.

وقد زادت مشاق الناس بنسبة تكاثر النوع البشري، ولا بُدَّ من أن يكون اختلاف الأرضين والأقاليم والفصول قد جعل فُرُوقاً في طراز حياتهم، وقد تطلبت سنونٌ عقيمةً وفصولٌ شتاءٍ طويلةً قاسيةً وفصولٌ صيفٍ محرقةً تأتي على كلِّ شيءٍ صناعةً جديدةً منهم، وقد اخترعوا الشبَّاكَ والصَّنَانِيرَ على شواطئ البحر وضياف الأنهار وأصبحوا عَرَكَاً^(١) وأكله سمك، وقد صنعوا أقواساً وسهاماً في الغابات وصاروا صيادين ومحاربين، وقد ألبسوا أنفسهم في البلدان الباردة جلودَ الحيوانات التي كانوا يذبحونها، وما كان من صاعقةٍ أو بركانٍ أو مصادفةٍ مباركةٍ ذمَّهم على النار التي هي وسيلةٌ جديدةٌ ضدَّ شدة الشتاء، فتعلموا حفظَ هذا العنصر، ثم إيجاده ثانيةً، ثم إعدادهم به ما كانوا يلتمونه نَيْئاً من اللحوم.

وما كان من تطييقٍ مختلفٍ الموجودات المكرَّر لنفسه، ومن بعضها لبعض، أو جَدَّ في نفس الإنسان، بحُكْم الطبيعة، إدراكاً لبعض الصلات، وقد أوجبت هذه الصلاتُ - التي نُعِبَّر عنها بكلمات الكبير والصغير والقوى والضعيف والسريع والبطيء والجبان والجسور، وما إليها من الأفكار المماثلة المقابل بينها عند الحاجة، ومن غير أن يُفَكَّر فيها تقريباً - في الإنسان نوعاً من التأمل، وإن شئت فقل حَذَرًا ألياً يَدُلُّه على أكثر الاحتياطات ضرورةً لسلامته.

وقد زادت المعارف الجديدة التي صدرت عن هذا النشوء أفضليته على الحيوانات الأخرى بجعله شاعراً بها، فَتَمَرَّنَ على نَضْبِ أشراكِ لها، وخادَعَهَا بألف طريقة، وغدا مالك بعضها ونقمةً على بعضها الآخر مع الزمن؛ وإن كان كثيرٌ منها يفوقه سرعةً عَدُوِّ أو قوةً عِرَاكِ بين ما

(١) العرك: جمع عركى، وهو صياد السمك.

يَقْدِرُ أَنْ يَجِدُهُ أَوْ يَضُرَّهُ، وَهَكَذَا فَإِنْ أُولَ نَظَرَةٍ أَلْقَاهَا عَلَى نَفْسِهِ أَدَّتْ إِلَى أَوَّلِ حَرَكَةِ زَهْوٍ فِيهِ، وَهَكَذَا فَإِنَّهُ لَمْ يَكْذِبْ يَعْزِفُ أَنْ يَمَيِّزَ بَيْنَ الْمَرَاتِبِ وَأَنْ يَتَأَمَّلَ فِي الْأَوَّلَى الْخَاصَّةِ بِنَوْعِهِ حَتَّى أَعَدَّ السَّبِيلَ مِنْ بَعِيدٍ لِادِّعَاءِ الْأَفْضَلِيَّةِ كَفَرْدٍ.

وَمَعَ أَنْ أَمْثَالَهُ لَمْ يَكُونُوا تَجَاهَهُ مِثْلَهُمْ تَجَاهِنًا، وَلَمْ يَخَالِطَهُمْ أَكْثَرَ مِنْ مَخَالَطَتِهِ الْحَيَوَانَاتِ الْأُخْرَى قَطُّ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يَغْيَبُوا عَنْ نِطَاقِ مَلاحِظَاتِهِ، وَمَا كَانَ مِنْ مِطَابَقَاتِ اسْتِطَاعِ الزَّمَانِ أَنْ يَجْمِلَهُ عَلَى الْإِتْبَاهِ إِلَيْهَا بَيْنَهُمْ، وَبَيْنَ نَفْسِهِ وَأُنثَاهُ، جَعَلَهُ يَتَحَكَّمُ فِي أَمْرِ الْأَخْرَيْنِ الَّذِينَ لَمْ يَرَهُمْ، وَهُوَ، إِذَا بَصَرَ سُلُوكَهُمْ جَمِيعًا كَمَا كَانَ يَصْنَعُ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْأَحْوَالِ، انْتَهَى إِلَى النَّتِيجَةِ الْقَائِلَةِ إِنَّ طَرِيزَ تَفْكِيرِهِمْ وَشُهُورِهِمْ يَطَابِقُ مَا عِنْدَهُ، وَقَدْ حَفَزَتْهُ هَذِهِ الْحَقِيقَةُ الْمَهْمَةُ الرَّاسِخَةُ فِي ذَهْنِهِ إِلَى اتِّبَاعِهِ، عَنْ حَذْسٍ أَصْدَقَ وَأَسْرَعَ مِنْ أَيِّ عِلْمٍ مَنْطِقٍ، أَحْسَنَ قَوَاعِدِ السُّلُوكِ الَّتِي رَاعَاهَا نَحْوَهُمْ فِي سَبِيلِ سَلَامَتِهِ وَفَائِدَتِهِ.

وَقَدْ عَلِمَ مِنَ التَّجَرِبَةِ أَنَّ حُبَّ الرَّفَاهِيَّةِ هُوَ الدَّافِعُ الرَّوحِي لَأَعْمَالِ الْبَشَرِ، فَوَجَدَ نَفْسَهُ فِي حَالٍ يَمَيِّزُ فِيهَا الْفُرْصَ النَّادِرَةَ الَّتِي تَجْعَلُهُ الْمَصْلِحَةَ الْمَشْرُوكَةَ يَعْتَمِدُ فِيهَا، كَمَا يَجِبُ، عَلَى مَسَاعِدَةِ أَمْثَالِهِ، وَالْفُرْصَ الَّتِي هِيَ أَكْثَرُ نُذْرَةٍ أَيْضًا فِي حَمْلِ الْمَزَاحِمَةِ إِيَّاهُ عَلَى الْحَدَرِ مِنْهُمْ كَمَا يَجِبُ، فَفِي الْحَالِ الْأَوَّلِيِّ كَانَ يَتَّحِدُ مَعَهُمْ ضِمْنًا قَطِيعًا، أَوْ ضِمْنًا شَرِكَةَ طَلِيقَةٍ، نَوْعًا مَا، لَا تُلْزِمُ أَحَدًا وَلَا تَدُومُ أَكْثَرَ مِنْ دَوَامِ الْإِحْتِيَاجِ الَّذِي أَدَّى إِلَى تَأْلِيفِهَا، وَفِي الْحَالِ الثَّانِيَةِ كَانَ كُلُّ وَاحِدٍ يَنْحَثُ عَنْ مَنَافِعِهِ الْخَاصَّةِ، وَذَلِكَ عَنْ قَسْرِ، إِذَا مَا أَبْصَرَ نَفْسَهُ قَوِيًّا بِدَرَجَةِ الْكِفَايَةِ، أَوْ عَنْ حِيلَةٍ وَجَذْقٍ، إِذَا مَا شَعَرَ بِأَنَّهُ الْأَضْعَفُ.

وَمَنْ نَمَّ تَرَى كَيْفَ اسْتِطَاعَ النَّاسُ أَنْ يَنَالُوا، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْدُرُوا، فَكِرَةٌ غَلِيظَةٌ عَنِ الْإِتْرَامَاتِ الْمُتَقَابِلَةِ وَفَوَائِدِ الْقِيَامِ بِهَا، وَلَكِنْ بِمَقْدَارٍ مَا يُمَكِّنُ أَنْ تَقْتَضِيهِ الْمَصْلِحَةُ الْحَاضِرَةُ الظَّاهِرَةُ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ لَا عَهْدَ لَهُمْ بِالْبَصْرِ فِي الْعَوَاقِبِ، فَكَانُوا بَعِيدِينَ مِنَ الْإِكْتِرَاطِ الْمُسْتَقْبَلِ بَعِيدًا، وَلَمْ يَكُونُوا لِيَفْكَرُوا حَتَّى فِي الْغَدِ، فَإِذَا مَا وَجِبَ نَيْلُ وَعَلِي شَعَرَ كُلُّ وَاحِدٍ بِوُجُوبِ التَّرَامِهِ مَكَانَهُ مَخْلَصًا، وَلَكِنْ إِذَا مَرَّ أَرْنَبٌ ضِمْنًا مَتَنَاوَلَ أَحَدَهُمْ، لَمْ يُشَكَّ فِي كَوْنِهِ يَتَعَقَبُهُ مِنْ غَيْرِ تَرَدُّدٍ... فَإِذَا فَازَ بِقِنِيصَتِهِ، لَمْ يُبَالِ كَثِيرًا فِي كَوْنِ رَفَقَانِهِ يُخَطِّبُونَ طَرِيدَتَهُمْ.

ومن السهل إدراك كون مثل هذه المخالطة لم يتطلب لغة أدق من لغة الغريبان والقردة التي تتجمع على ذلك النمط تقريباً، فما كان من أصوات عديمة المفاصل، ومن حركات كثيرة وصَرَخات تقليدية وَجِب أن يكون قد تألف منه لسان عامّ زمنًا طويلاً، وإلى ذلك يُضَافُ في كلِّ بلدٍ بعضُ أصواتٍ اتفاقيه ذاتِ مفاصلٍ ليس من السهل كثيراً إيضاح نظامها كما قلتُ آنفاً فحدّثتُ لغاتٍ خاصة، ولكن غليظة ناقصة، كالتى تُوجد بين بعض الأمم الوحشية في الوقت الحاضر.

وأجوبُ كسهم عددًا كبيراً من القرون مأخوذاً بالزمن الذى يَمُرُّ وبكثرة الأمور التى على أن أتكلّم عنها، ويتقدم الأمور غير المحسوس تقريباً في أوائلها، وذلك لأن الحوادث كلما كانت بطيئة في تعاقبها وُصِفَتْ بسرعة.

وذلك التقدّم في أوائل الأمور مَكَّن الإنسان من القيام بتقدمٍ آخرَ بأسرع من ذلك، وكلما تنوّرت النفوس تكاملت الصناعة، ولسرعان ما انقطع الإنسان عن النوم تحت أول شجرة، أو الانزواء في كهوف، فقد اخترعت أنواع من الفؤوس الحجرية القاسية الحادة، واستُخدمت في قَطْع الخشب، وحفر الأرض، وصنع أكواخٍ من عُصُون رُئى طليها بالطين والوَخَل، وهناك كان دَوْرُ أول انقلابٍ أسفر عن تأليف الأسر والتفريق بينها وعن اتخاذ ضربٍ من الملك نشأ عنه كثيرٌ من الخصام والعراك، وبما أن الأكثر قوة، مع ذلك، هم أول من أنشأوا لأنفسهم، كما يُلوح، مساكن كانوا يشعرون بقدرتهم على الدفاع عنها فإن هذا يجمل على الاعتقاد بأن الضعفاء وَجَدُوا أنه أقصر وأضمن لهم أن يقلدوا الأقوياء من أن يحاولوا طردهم من منازلهم، وأما أولئك الذين كانت لديهم أكواخ فإنه لم يَكُنْ لِيَبْنِىَ لأحد أن يحاول وَضَعَ يده على كوخ جاره، وذلك عن كونه غير خاص به أقل من كونه غير نافع له، وعن كونه لا يستطيع الاستيلاء عليه من غير أن يُعَرِّض نفسه لمقاتلة الأسرة التى تُشغله قتالاً شديداً.

وكان أول نشوءٍ في الفؤاد نتيجة وضع جديد جامع في منزلٍ مشتركٍ بين الأزواج والنساء والآباء والأولاد، وقد أدت عادة العيش معاً عن ظهور أرق ما يُعرَف عن الناس من المشاعر، أى الحب الزوجى والحب الأبوى، وقد أصبحت كل أسرة مجتمعاً صغيراً بالغ الاتحاد لكون الحرية والوداد المتبادل كانا الرابطتين الوحيدتين، وهناك قام أول اختلافٍ في طراز حياة

الجنسين اللذين لم يكن لهما غير طرازٍ واحدٍ حتى ذلك الحين، فصار النساء أكثرَ قعودًا وتَعَوَّذنَ المحافظةَ على الكوخ والأولاد على حين كان الرجل يذهب للبحث عن الطعام المشترك، وبدأ الجنسان يفقدان شيئًا من توحشهما وشدهما عن حياة أكثرَ لينًا، ولكن كل واحد إذا صار أقلَّ صلاحًا لمكافحة الحيوانات الوحشية على انفراد غداً أسهل على الإنسان، بالمقابلة، أن يتجمع لمقاومتها مشتركًا.

والناس في هذه الحال الجديدة، إذ تمتعوا بفرغٍ عظيم جدًا، مع حياة بسيطة منفردة، واحتياجاتٍ محدودة جدًا، وأدواتٍ كانوا قد اخترعوها لقضاء هذه الحاجات، اتخذوا هذه الحياة نيلًا لأنواع كثيرة من الرفاهية لا عهدَ لأبائهم بها، فكان هذا أولَ نيرٍ قرّضوه على أنفسهم من غير أن يفكروا فيه، وأولَ منبعٍ للشروع أعدوه لذراريهم، وذلك لأنك إذا عدت استمرازمهم على التخنث بدنا وروحًا هكذا، وكون هذه الرفاهة فقدت جميعَ لذتها عن عادة، وأنها تحوّلت منحةً إلى احتياجات حقيقية، وجدتَ فقدما أشدَّ قسوةً مما في حيازتها من حلاوة، فيكون الإنسان شقيًا بضياعها من غير أن يكون سعيدًا بحيازتها.

وهنا يُمكن أن يُبصر أحسنَ من ذلك كيف أن عادة الكلام قامت أو كملت في صميم كل أسرة على وجهٍ غير محسوس، ويُمكن أن يُفترض، أيضًا، كيف استطاع مختلفُ العلل الخاصة توسيع اللغة وتعجيل نشونها بجعلها أكثرَ لزومًا، ومن الطوفانات والزلازل ما أدى إلى إحاطة بقاع مسكونة بالمياه أو بالهَوَات، ومن الانقلابات في الكرة الأرضية ما أدى إلى اقتطاع أجزاء من القارة وفصلها عنها مُحولةً إلى جزائر، ومما يُرى بين الناس الذين تَدَانُوا على هذا الوجه واضطُّروا إلى العيش معًا وجوبُ تكوُّن لهجةٍ مشتركة أكثرَ مما بين من كانوا يبيهُون في غابات القارة، وهكذا فإن من المحتمل جدًا أن يكون الجزريون قد حملوا إلينا عادة الكلام بعد أول محاولتهم للملاحة، وإن من المحتمل جدًا، على الأقل، أن يكون المجتمع واللغات قد وُلدا في الجزر وكَمَلًا فيها قبل أن يُعرفا في القارة.

ويبدأ كل شيء بتغيير منظره، وبما أن الناس تاهوا في الغاب حتى الآن، وبما أنهم اتخذوا قاعدة أكثر ثباتًا، تَدَانُوا ببطءٍ وتجمَّعوا زمرةً ثم ألفوا في كل بقعة أمة خاصة متحدة طابعًا وأخلاقًا، لا

بأنظمة وقوانين، بل بطراز واحد من الحياة الغذائية وبتأثير الإقليم العام، وأخيراً لم يفت الجوارز الدائم أن يوجد ارتباطاً بين مختلف الأُسُر، ويسكن شباب من الجنسين أكواخاً مجاورة، وأسفر الخِلاط العابر الذي تقتضيه الطبيعة من فوره عن خِلاطٍ آخر ليس أقل حلاوةً، وهو أكثر دواماً بمعاشرة متبادلة، ويُتَعَوَّد النظر في مختلف الموضوعات وعمَل مقايسات، وتُكتَسَبُ على وجه غير محسوس أفكار عن المزية والجمال تُنتج مشاعر عن الأفضلية، وعاد لا يُمكن الاستغناء عن الاجتماع باستمرارٍ وصولاً إلى الاجتماع، وينساب في النفس شعورٌ رقيق ناعم، ويتحول إلى هياج صائل عند أقل اعتراض، وتستيقظ الغيرة مع الحب، ويفوز الخلاف، ويصحى بالدم البشري في سبيل الطف الأهواء.

وكلما تعاقبت الأفكار والمشاعر، وتحرَّك الفؤاد والذكاء، داوم الجنس البشري على التأسس، واتسع مدى الروابط، ووثقت الصلات، وتتعوَّد الاجتماع أمام الأكواخ أو حول دُوحة^(١)، ويصبح الغناء والرقص وأولادُ الغرام والفراغ الحقيقيون مدارَ تسلية، وإن شئت فقل مدارَ اعتناء، رجالٍ ونساءٍ من ذوى البطالة والاحتشاد، وقد بدأ كلُّ ينظر إلى الآخرين ويريد أن يُنظر إليه بدوره، وهكذا كان للتقدير العام قيمة، فأصبح من يُغنى أو يرقص أحسن من غيره، ومن هو أعظم جمالاً، أو قوةً، أو مهارةً، أو فصاحةً، من سواه أكثر اعتباراً، وكان هذا أول خطوة نحو التفاوت ونحو العيب في وقت واحد، وقد نشأ الزهو والازدراء عن هذه الأفضليات الأولى من ناحية، ونشأ الحياء والحسد عنها من ناحية أخرى، وما أوجبه هذه الخناثر الجديدة من اختيارٍ أسفر في نهاية الأمر عن مركباتٍ شؤم على السعادة وصفاء القلب.

ولم يكد الناس يبدؤون بتقدير بعضهم بعضاً مبادلةً، ولم تكذ فكرة الاعتبار تتكوّن في نفوسهم، حتى زعم كلُّ وجود حق له في ذلك، وصار يتعذر إنكار ذلك على أحد من غير عقاب، ومن هناك نشأ أول واجبات الأدب حتى بين المهجج، ومن هناك صار كلُّ خطأ إهانةً، وذلك لأن المهان كان يرى في الشر الذي ينشأ عن الإهانة ازدراءً لشخصه أشدَّ إيلاًماً من الشر نفسه غالباً، وهكذا إذ كان كلُّ واحدٍ يجازى على الازدراء الموجه إليه بنسبة ما يُقدَّر فإن

(١) الدوحة: الشجرة العظيمة المنسعة.

الانتقامات أصبحت هائلة، وصار الناس قَسَاةَ سَفَاحِين، وهذه هي الدرجة التي انتهى إليها بالضبط مُعْظَمُ الشعوب الوحشية التي نَعْلَمُ أمرَها، وإنه لِمَا وَقَعَ من عدم التمييز بين الأفكار بدرجة الكفاية، ومن عدم ملاحظة مقدار ما كان من ابتعاد هذه الشعوب عن الحال الطبيعية الأولى، أَسْرَعَ كثيرٌ في استنتاجه كونَ الإنسان قاسياً بحكم الطبيعة فيحتاج إلى ضابطةٍ لإلانتة، وبيئاً لا تَجِدُ ما هو الطُفُّ منه في حاله الفطرية، عندما تضعه الطبيعة على أبعاد متساوية من غباوة الوحوش وبصائر الإنسان المتمدن المشؤومة، ويكون مقصوراً بالغريزة والعقل على ضمان نفسه من السَّوء الذي يهدده، تراه مُزْدَجِرًا بالرأفة الطبيعية عن إساءة أحدٍ من تلقاء نفسه، وذلك من غير أن يُجْمَلَ عليه بشيء، حتى بعد أن يكون قد تَلَقَّاه، والأمرُ هو كما جاء في مبدأ الحكيم لوك القائل: «لا يُمكن أن توجد إهانةٌ حيث لا يوجد تَمَلُّكٌ».

يَبْدُ أنه يجب أن يلاحظ أن المجتمع المبدوء والصلات التي أقيمت بين الناس كانا يتطلبان فيهم صفاتٍ تختلف عن الصفات التي حازوها من نظامهم الابتدائي، وأن أدب السلوك إذ أخذ يتسرب في الأعمال البشرية، وأن كلَّ واحدٍ قَبْلَ القوانينِ إذ كان القاضى الوحيدَ والمتقَمَ عن الإهانات التي يكون قد تلقاها، فإن الصلاح الملائم للحالة الطبيعية الخالصة عاد لا يلانم المجتمعَ الناشئ، وأنه وَجِبَ أن تصبح العقوبات أكثرَ شدةً كلما صارت فَرَضُ الإهانة أكثرَ شيوغاً، وصار الخوف من الانتقام يقوم مقام الرادع القانوني، وهكذا، فإن الناس وإن صاروا أقلَّ صبراً ونَقَصَتْ رَأْفَتُهُمُ الطبيعية بعض الشيء، وَجِبَ أن يكون هذا الدور، الذي هو دورُ نشوء المواهب البشرية، أسعدَ الأدوار وأكثرَها دواماً لِمَا يَبْدُو وَسَطاً بين بلادة الحالة الابتدائية ونشاط أنانيتنا التَّزِق، وكلما أُنْعِمَ النظر في ذلك وَجِدَتْ هذه الحال أقلَّ عُرضَةً للانقلابات، وأصلح للإنسان «١٦»، فكان لا ينبغي له أن يُخْرَجَ منها إلا عن مصادفة مشؤومة كان يجب ألا تَقَعَ لاقتضاء المصلحة العامة ذلك، ويلوح أن مثال الوحوش، الذين وَجِدَ معظمهم في هذه الحال، يؤيد كونَ الجنسِ البشريِّ قد خُلِقَ ليقى فيها على الدوام، وكونَ كلِّ تقدمٍ حدث بعد ذلك خُطوةً نحو الكمال في الظاهر ونحو هَرَمِ النوع في الحقيقة.

والناس ما رَضُوا عن أكوأخهم الخَلْوِيَّة، وما اقتصرُوا على خَزَز ثيابهم الجلدية بِشَوْكٍ أو حَسَكٍ، وما أَرَزَتُوا بِرِيشٍ وَصَدْفٍ، وما نَقَشُوا بِدَثَمٍ بِمِخْتَلَفِ الألوان، وما أَصْلَحُوا سَهَامَتَهُمْ وَأَقْوَامَتَهُمْ أو زخرفوها، وما شَذَّبُوا بِحِجَارَةٍ حَادِيَّةٍ زَوَارِقَ صَيْدٍ، أو بَعْضَ الآلاتِ الموسيقية الغليظة، والخلاصةُ أن الناس ما تعاطَوْا أَعْمَالًا لا يستطيع الفردُ أن يصنعها، وما اتَّخَذُوا فَنُونًا لا تحتاجُ إلى تضافرِ أيدٍ كثيرة، عاشوا أحرارًا أَصْحَاءَ صالِحِينَ سَعَدَاءَ ما استطاعوا أن يكونوا كذلك بطبيعتهم، وما استمروا على التمتع فيما بينهم بِالطَّافِ معاشرَةً مستقلة، ولكن الإنسان منذ احتياجه إلى معونةِ إنسانٍ آخر، منذ رَئى أن من المفيد لو اُحِدٍ أن يكون ذا مُؤْنٍ لِأَئِثْنِ، زالت المساواة عنده، وانتحل التملك، وصار العملُ ضروريًا، وتحولت الغابات الواسعة إلى حقول باسمة وَجَبَ أن تُرَوَى بِعَرَقِ الناس فلم تلبث أن رُئى فيها نشوءُ العبودية والبؤس ونموُّهما مع الغلات.

وكان التعدينُ والزراعة ذَيْنِكَ الفَتَيْنِ اللذَيْنِ أدى اكتشافُهُما إلى هذا الانقلاب الكبير، وعند الشاعر أن الذهب والفضة، وعند الفيلسوف أن الحديد والقمح، هما اللذان مَدَّنَا الناس وأهلَكَ النوعَ البشريَّ، وقد كان كُلُّ منهما مجهولًا لدى وحوش أمريكا فَبَقُوا كما هم عليه لهذا السبب، حتى إن الشعوب الأخرى ظَلَّتْ من البرابرة كما يَلُوح ما زاولت أحدَ ذَيْنِكَ الفَتَيْنِ دون الآخر، ومن أَوْجِهِ الأسبابِ، على ما يحتمل، في أن أوربية كانت، إن لم يكن قَبْلًا، أَتَبَّتْ وأرقى حضارةً من بقية العالم هو كونُها أَكثَرَ فيضًا بالحديد وَخِصْبًا بالبرِّ.

ومن الصعب أن يُفْتَرَضَ كيف انتهى الناسُ إلى معرفة الحديد واستعماله، وذلك لأنَّ ما يتعذر اعتقاده كونهم تَصَوَّرُوا من تلقاء أنفسهم استخراجَ هذه المادة من المُنْجَمِ وأن يقوموا في سبيله بإعداداتٍ لا بُدَّ منها صَهْرًا لها قبل أن يَعْرِفُوا ما ينشأ عن ذلك، وأقلُّ من هذا أن يُعْزَى هذا الاكتشافُ من ناحيةٍ أخرى إلى حريقِ عَرَضِيٍّ ما دامت المناجم لا تُكُونُ في غير الأماكن الجديية الخالية من الشجر والنبات، فكان الطبيعة، كما يظهر، قد اتخذت من الاحتياطات ما تُخْفِي معه هذا السِّرَّ المقدسِ عنا، ولم يَبْقَ، إِذْنِ، غيرُ حالٍ عجيبةٍ لبركانٍ يَقْدِفُ موادَّ معدنيةً ذائبةً فأوحى إلى الباحثين بفكرة تقليدِ عمل الطبيعة هذا، وكذلك يجب أن تُفْتَرَضَ لهم جُرْأَةٌ وبصيرةٌ للقيام بهذا العمل الشاق، وأن يُلاحظَ من بعيدٍ ما يُمكن أن ينالوه من الفوائد، وهذا ما لا يلائم غيرَ نفوسٍ كانت أكثرَ ممارسةً من التي لم يَتَّفَقْ لها مِرَاسٌ.

وأما الزراعة فإن مبدأها عُرف قبل أن تمارس بزمن طويل، وليس من الممكن ألا يكون الناس، المنهمكون بلا انقطاع في تناول طعامهم من الشجر والنبات، قد عَنَت لهم بسرعة فكرة الطُّرُق التي تتخذها الطبيعة لتكثير النباتات، بيد أن من الراجح أن تكون صناعتهم قد تحولت أخيراً جداً من هذه الناحية، وذلك إما عن كون الشجر مع صيد البر والبحر قد جَهَّزهم بغذائهم، فلم يكن ليجتاج إلى عنايتهم، وإما عن جهلهم استعمال القمح، وإما عن عدم وجود آلات لفلاحة، وإما عن عدم بَصَرٍ في الاحتياج القادم، وإما عن عدم وجود وسائل لمنع الآخرين من اغتصاب ثمرة عملهم، وهم لما أصبحوا أكثرَ جداً أمكن الاعتقاد بأنهم بدأوا يزرعون بحجارة حادة وعُصِي مُذْرَبَةٌ بعض البقول والجذور حول أكوامهم، وذلك قبل أن يَعْرِفُوا إعداد القمح وأن يكون عندهم من الآلات ما يزرعونه به على مقادير عظيمة، وذلك من غير أن يُحَسَّب، لتعاطى هذا العمل وَيَذُر الأَرْضِينَ، وجوب توطين النفس على خسران بعض الشيء في البداءة كسباً للكثير فيما بعد، أى القيام بأمر بعيد كل البعد من ذهنية الإنسان الوحشِي الذي يَجِد مشقة عظيمة في تفكيره صباحاً في احتياجاته المسائية كما قلتُ.

إذَنْ، كان اختراعُ الفنون الأخرى أمراً ضرورياً لحتمل النوع البشري على تعاطى فن الزراعة، وعندما وَجَبَ وجودُ أناسٍ لَصَهْر الحديد وتطريقه، وجب وجودُ أناسٍ آخرين لإطعامهم، وكلما زاد عدد العمال قَلَّت الأيدي التي تُسْتَعْمَل لتقديم الغذاء العام، وذلك مع عدم قلة الأفواه التي تستهلكه، وبما أنه وجب وجودُ غَلَّاتٍ لبعضهم بدلاً من حديدهم وَجَد الآخرون في نهاية الأمر سِرَّ استعمال الحديد في تكثير الغلَّات، ومن ثَمَّ نشأت الحِرَاة والزراعة من ناحية وَفَنُّ عمل المعاول وتكثير استعمالها من ناحية أخرى.

وأدت زراعة الأرض إلى تقسيمها، وأدى الاعتراف بالتملك إلى أولى قواعد العدل، وذلك لأنه يجب لإعادة مالِ كُلِّ واحدٍ إليه أن يكون هذا الشخصُ مالِكاً شيئاً ما، وزد على ذلك كونَ الناس إذ صاروا يَنْظُرُونَ إلى المستقبل وكان لدى الجميع ما يَحْتَسِرُه أصبح لكلِّ واحدٍ من الأسباب ما يَحْتَسِي معه الثَّار عن خطإٍ يُمكن أن يقترفه تجاه الآخرين، ويكون هذا الأصلُ

أقرب إلى الطبيعة بنسبة ما يتعذر تمثُّل صدور مبدأ التملك عن أمرٍ خَلاَ عملِ اليد، وهل يُمكنُ الإنسان أن يُضيف غيرَ عمله إلى أشياء لم يُوجدَها في الأصل فيَجعلها مُلْكَه؟ وَعَمَلُ الفَلاح وحده، إذ يَمْنَحُه حَقًّا في غَلَّةِ الأرض التي حَرَّثها، يَمْنَحُه حَقًّا في الأرض ذاتها حتى الحَصَادِ على الأقل، وهكذا تَحَوَّل التصرفُ المستمرُّ بين عامٍ وعامٍ إلى مِلْك، ومن قول «غَرْوَسْيُوس» أن القدماءَ عندما أطلقوا لقبَ المُشترعة على «سِيرِس»، وعندما أطلقوا اسمَ القانون الحاملِ على عيدٍ يُحتفل فيه لتكريمها، قَصَدُوا بذلك كونَ تقسيمِ الأَرْضين قد أسْفَرَ عن نوعٍ جديدٍ من الحقِّ، أي حقَّ التملك الذي يختلف عن الحقِّ الناشئ عن القانون الطبيعي.

أجَل، كان يُمكنُ الأمور في هذه الحال أن تَبْقَى متساوية، لو كانت المناقبُ متساوية، فيكون استعمالُ الحديد واستهلاكُ الغَلَّات متوازنين دائماً، غير أن النسبة التي كان لا يُمكنُها شيءٌ لم تَلَبَّث أن زالت، فكان الأقوى أكثرَ عملاً، وحوَّل الأكثرُ براعةً عمله إلى أحسنِ حسابٍ، ووَجَد الأكثرُ لباقةً وسائلَ لاختصارِ العمل، وكَثُرَ احتياجُ الفَلاح إلى الحديد، وزاد احتياجُ الحَدَّادِ إلى القمح، وبينما كان الاثنان يعمَلان على السواء كان أحدهما يَكْسِبُ كثيراً ولم يَكُدِ الآخرُ يُجوز ما يعيش به، وهكذا فإن التفاوت الطبيعي ينتشر مع تفاوت الاختلاط على وجهٍ غيرِ محسوس، وإن الفُروق بين الناس التي تنمو باختلاف الأحوال أصبحت أكثرَ بروزاً ودواماً في نتائجها وبدأت تؤثر بذات النسبة في نصيب الأفراد.

وبما أن الأمور قد انتهت إلى هذه المرحلة فإنه يَسْهُلُ تمثُّلُ البقية، ولا أِقْفُ عند وصف اختراع الفنون الأخرى المتعاقب، ولا عند تقدم اللغات واختبارِ المواهب واستخدامها، ولا عند تفاوت الحظوظ والتمتع بالثروات وسوء استعمالها، ولا عندما يَتَّبِعُها من الجزئيات التي يُمكنُ كل واحدٍ أن يتدارك نقصها، وإنما أقصر على إلقاء نظرةٍ في النوع البشري الذي وُضِعَ في نظام الأمور الجديد هذا.

واليك، إذَنْ، جميع خصائصنا النامية والذاكرة والمُخَيَّلَة فاعلة، والآنانية المُغرِضة، والعقل العامل، والذهن في أقصى كماله تقريباً، وإليك جميع الصفات الطبيعية عاملة، ومكان كلِّ إنسانٍ

ونصيبه القائم على الذكاء أو الجمال أو القوة أو البراعة أو المزية أو المواهب، لا على مقدار الأموال والقدرة على النفع والضّر، وبما أن هذه الصفات هي التي كانت تستطيع أن تجتذب اعتبارًا وحدها فقد وجب نيلها أو تكلفها من قورها، وقد أصبح من مصلحة الإنسان أن يتظاهر بغير ما هو عليه، فما هو عليه والتظاهر بما هو عليه صار أمرين يختلف أحدهما عن الآخر اختلافًا تامًا، وعن هذا الاختلاف نشأ الجاه المهيّب والمكر الخادع وجميع المعاييب التي هي موكب ذلك، والإنسان، بعد أن كان، من ناحية أخرى، حرًا مستقلًا، أضحي الآن خاضعًا، عن طائفة من الاحتياجات الجديدة، لكل طبيعة، ولا سيما أمثاله الذين غدا عبدًا لهم من جهة، وإن بدأ سيدًا لهم، فإذا كان غنيًا احتاج إلى خدمهم، وإذا كان فقيرًا احتاج إلى مساعدتهم، وما كان توسط الحال ليجعله يستغنى عنهم مطلقًا، ولذا يجب أن يحاول بلا انقطاع جعلهم يكثر ثون لنصيبه، وحملهم على أن يجِدُوا في الحقيقة أو في الظاهر فائدتهم في العمل لفائدته، وهذا ما يجعله شاطرًا محتملًا نحو أناس، متجبرًا قاسيًا نحو آخرين، وهذا ما يضعه في حالٍ من الضرورة بخادعٍ معه كلٌّ من يحتاج إليهم حينها لا يستطيع إخافتهم ولا يجِدُ من مصلحته أن يخدمهم نافعًا، ثم إن الطموح القاسم في الناس ومحميًا زيادة ما لهم النسبي ليغلو بعضهم بعضًا يوحيان إليهم جميعًا بميلٍ أسود إلى الضّر مقابلة، يوحيان بحسدٍ خفي يكون أشدَّ خطرًا بما يلبسه من قناع الرفق غالبًا جعلًا لضربه أكثر سدادًا، والخلاصة أن التنافس والتراحم من ناحية، وتضارب المصالح والرغبة الخفية في الانتفاع على حساب الآخرين من ناحية أخرى، أي أن هذه الشرور كلها، أول نتيجة للتملك وموكب لازم للتفاوت الناشئ.

ولم تكن الثروات، قبل اختراع الرموز الممثلة لها، لتقوم على غير الأرضين والمواشي، هذه الأموال الحقيقية الوحيدة التي يُمكن الناس أن يجوزوها، والواقع أن الموارث إذا ما زادت عددًا واتساعًا زيادة تُغطّي جميع الأرض وتماشت كلها عاد بعض الناس لا يستطيع أن يتوسّع إلا على حساب الآخرين، ولم يُغيّر شيئًا قط أولئك الزائدون على العدد والذين كان ضعفهم أو ثاقلمهم قد حال دون اكتسابهم من ذلك بدورهم، فعدّوا فقراء من غير أن يُخسروا شيئًا، وذلك لأنهم وحدهم لم يُغيروا شيئًا قط مع أن كل شيء تغيّر حولهم، فاضطروا أن ينالوا أو أن يغتصبوا

غذاءهم من أيدي الأغنياء، ومن هنا بدأت تظهر السيطرة والعبودية والشدة والاعتصابات، ولم يكد الأغنياء يعرفون لذة السيطرة من ناحيتهم حتى استخفوا بالآخرين من قورهم، وقد سخروا عبيدهم القدماء لإخضاع عبيد جدد، وهم لم يفكروا في غير قهر جيرانهم واستعبادهم، وهم في ذلك كالذئاب الجائعة التي ذابت لحم الإنسان ذات مرة فصارت ترفض كل طعام آخر ولا تزغب في غير اقتراس الناس.

وهكذا فإن الأكثر بأساً والأكثر بؤساً إذ جعلوا من قوتهم أو احتياجاتهم ضرباً من الحقوق حول مال الآخرين مساوياً حق التملك على رأيهم عقب المساواة المتحطمة أقطع ارتباك، وهكذا فإن اغتصابات الأغنياء ولصوصيات الفقراء وأهواء الجميع الجامعة إذ خنقت الرأفة الطبيعية وصوت العدل الضعيف جعلت الناس بخلاء طامعين خبيثاء، وكان يقع بين حق الأقوى وحق واضع اليد الأول صدام دائم لا ينتهي إلا بمعارك وسفك دماء «١٧»، وأدى المجتمع الناشئ إلى أشنع الحروب، وبما أن النوع البشري المهين الحزين لم يستطع بعد أن يرجع القهقري، ولا أن يعدل عما اتفق له من كسب مشؤوم، وبما أنه لم يعمل لغير ما فيه فوضوحه بإساءة استعماله الخصائص التي تشرّفه، فإنه وضع نفسه على حافة الهلاك، «فعل الغنى والفقير أن يقرأ من الثراء، وأن يتخسراً ما نشدها بها وجد حديثاً من شرورها»^(١).

وليس من الممكن ألا يكون الناس قد قاموا في نهاية الأمر بتأملات حول وضع بالغ هذا البؤس وحول البلايا التي أصيبوا بها، ويجب أن يكون الأغنياء، على الخصوص، قد شعروا من قورهم بمقدار ما كانت في غير مصلحتهم حرب دائمة يقومون بجميع نفقاتها وحدهم ويكون الخطر الذي يحيق بالحياة فيها عاماً، ويكون الخطر الذي يحيق بأموالهم خاصاً، ثم مهما يكن اللون الذي استطاعوا أن يضربوا به اغتصابتهم فإنهم كانوا يشعرون شعوراً كافياً بأن حالهم لم يقم على غير حق قلبى فاضح نالوه بالقوة، فيمكن القوة أن تنزع منهم من غير أن يكون من الأسباب ما يتظلمون معه، حتى إن الذين اغتنوا بالصناعة وحدها لم يكونوا ليقدروا أن يقيموا تملكهم على حجاج أحسن من تلك، ومن العتب أن يقال مكرراً: «إننى أنا الذى بنى

هذا الجدار، وقد نلت هذا الموضع بعملى، وقد يُمكن أن يكون الجواب: من الذى أعطاك هذا الموقف، وإلى أى شىء تستند فى ادعائك أن تدفع إليك عن عملٍ لم نطلب منك صنعه؟ ألا تعلم أن فريقًا كبيرًا من إخوانك يهلك أو يألم من احتياجه إلى ما تملك كثيرًا، وأنه يجب أن تكون لديك موافقة صريحة إجماعية من النوع البشرى حتى تملك من القوت العام أكثر مما تحتاج إليه لتقويم أودك؟»، والغنى المجرد من الأسباب المقبولة لتزكية نفسه، ومن القوى الكافية للدفاع عن نفسه، والغنى الساحق للفرد بسهولة، والمسحوق من قبل زمر من اللصوص، والغنى الذى هو وحده ضد الجميع والذى لا يستطيع أن يتحد، عن حسد متقابل، هو وأمثاله ضد أعداء متحدين عن أمل مشترك فى السلب، هذا الغنى الذى ضغطته الضرورة يفكر أخيرًا فى أرزاق مشروع خطر على بال إنسان، وذلك أن يستخدم نفعًا له قوى من كانوا يهاجمونه، وأن يجعل حماته من خصومه فيوجى إليهم بمبادئ أخرى ويمنحهم نظرًا أخرى تكون ملائمة له كعدم ملائمة الحق الطبيعى له.

وهو عند هذا النظر، وبعد أن عرّض على جيرانه فظاعة وضع كان يسألهم جميعًا ضد بعضهم بعضًا، وكان يجعل أملاكهم مرهقة إرهابًا احتياجاتهم، وحيث كان لا يوجد أحد يرى سلامته فى الفقر ولا فى الغنى، اخترع بسهولة من الأسباب المقبولة ما يجلبهم به إلى عرّضه، فقال لهم: «دعونا نتحد لوقاية الضعفاء من الاضطهاد وردع ذوى الطموح وصيانة ملك كل واحد، فتوضع أنظمة للعدل والأمن يلتزم الجميع بالخضوع لها من غير استثناء أحد، وتقوم بها أهواء النصيب من بعض الوجوه بجعل القوى والضعيف خاضعين لواجبات متبادلة على السواء، والخلاصة هى أن نجتمع قوانا فى سلطة عالية تحكّم فينا وفق قوانين رشيدة ونحمي وتدافع عن جميع أعضاء الجماعة وتدفع الأعداء المشتركين ونمسيكنا ضمن وفاق أبدى».

وكان أقل كلام حول هذا المقصد يكفى لمخادعة أناس غلاظ سهل إغواؤهم، وذلك لما كان عليهم أن يأتوه من منازعات كثيرة لا يستغنون فيها عن التحكيم، ولما كانوا عليه من طموح وبخل كثيرين لا يستغنون فيها عن سادة لزم من طويل، وكل يسعى إلى قيوده بسرعة معتقدًا أنه يضمن حريته، وذلك لأنه إذا كان لديه من العقل ما يكفى للشعور بفوائد أحد النظم السياسية

فإنه ليس لديه من التجربة ما يُبصر معه أخطارَ هذا النظام، وكان أكثرُ الناس قدرةً على البصر في سوء الاستعمال هم الذين يَرَوْنَ الانتفاعَ به، حتى إنَّ الحكماء رأوا من الضروري أن يُضَحُّوا بقسمٍ من حريتهم حفظاً للقسم الآخر، شأنُ الجريح الذي تُبترُّ ذراعُه إنقاذاً لبقية الجسم.

ذلك ما كان، أو ما وَجِبَ أن كان، أصلُ المجتمع والقانون اللذين رَبَطَا الضعيفَ بقيودٍ جديدة، ومنحا الغنى «١٨» قُوًى جديدة، فقضيا على الحرية الطبيعية من غير رجوع، وثبَّتَا قانونَ التملك والتفاوتِ إلى الأبد، وحوَّلَا اغتصاباً لِبَقَا إلى حَقٍّ لا يُنْقَضُ، وسَخَّرَا الجنسَ البشريَّ للعمل والعبودية والبؤس نفعاً لبعض ذوى الطُمُوح، ومن السهل أن يُرى كيف أن قيام مجتمعٍ واحد جعل قيام جميع المجتمعات الأخرى أمراً ضرورياً، وكيف أنه وجب على بقية الجنس البشري أن تتحد من ناحيتها لمقاومة القُوًى المتحدة، وقد تكاثرت المجتمعات واتسعت فلم تَلَبَثْ أن ملأت جميعَ وجه الأرض، وصار يتعذر أن تُجِدَ زاويةً واحدةً في العالم يُمكن الإنسان أن يتحرر فيها من النير ويتخلص من السيف الذي يراه مُضَلَّتًا عليه دائماً، وبما أن الحقوق المدنية أصبحت قاعدةً للمواطنين العامة على هذا الوجه عاد قانون الطبيعة لا يكون له مكانٌ إلا بين مختلف المجتمعات حيث عُدل، باسم الحقوق الدُولية، ببضعة عهودٍ ضمنية جَعَلَا للتجارة أمراً ممكناً وتعويضاً من الرأفة الطبيعية التي خَسِرَتْ بين مجتمعٍ وآخر، تقريباً، كلُّ قوة كانت لها بين إنسانٍ وآخر، والتي عادت لا تكون في غير بعض أكابر الوطنيين العالمين الذين يجاوزون الحواجزَ الخيالية الفاصلةَ بين الشعوب، والذين يسرون على غرار المولى الخالق فيَسْمَلُونَ جميعَ النوع البشري برعايتهم.

وبما أن الهيئات السياسية قد بَقِيَتْ بينهم في الحال الطبيعية على هذا الوجه فإنها لم تُعْتَمَ أن شَعَرَتْ بالمحاذير التي كانت قد حَمَلَتْ الأفراد على الخروج منها، وقد أصبحت هذه الحال أيضاً أكثرَ شؤماً بين هذه الهيئات الكبيرة مما كانت عليه سابقاً بين الأفراد الذين تألفت منهم، فمن ثَمَّ ظهرت الحروبُ القومية والمعاركُ والمَقَاتِلُ والأثَارُ التي أزعشت الطبيعةَ وصَدَمَتِ العقلَ، وجميعُ هذه المُبْتَسِرَاتِ الفظيعة التي تَضَعُ شرفَ سفك الدماء الإنسانية في مرتبة الفضائل، وقد تَعَلَّمَ أكثرُ الناس صلاحاً أن يَعُدُّوا بين وظائفهم واجبَ ذبح أمثالهم، وأخيراً رُنِيَ أن

الناس يتذابحون بالألوف من غير أن يعرفوا السبب، وكان يُقترَف من القتل في يوم معركة، وكان يُقترَف من الفظائع عند الاستيلاء على مدينة واحدة، ما هو أكثر مما كان يُقترَف في حال الطبيعة، في قرونٍ بأثرها، على جميع وجه الأرض، وهذه هي النتائج الأولى التي تُبصر من تقسيم النوع البشري إلى مجتمعاتٍ شتى، فلننعد إلى نُظُمها.

وأعلمُ أن كثيرين قد جعلوا للمجتمعات السياسية مصادرَ أخرى، كفتوح القوى أو اتحاد الضعفاء، ولا أهمية للخيار بين هذه العلل فيما أريد إثباته، ومع ذلك فإن ما عرَضته أقرب إلى الطبيعة كما يُلوح لي، وذلك للأسباب الآتية: أولاً: بما أن حق الفتح في الحال الأولى ليس حقاً في ذاته فإنه لا يُمكن أن يصلح أساساً يُبنى عليه حقٌ آخر، فيبقى كلٌّ من الفاتح والشعب المغلوب تجاه الآخر في حال حربٍ، ما لم تُرد إلى الشعب المغلوب حريته كاملة فيقع اختياره طوعاً على قاهره ليكون رئيساً له، ورئياً يقع هذا تكون كلِّ مصلحة قائمة على العنف، ومن ثم تكون باطلة عن ذات الأمر، فلا يكون بهذا الافتراض أيُّ مجتمعٍ حقيقى، أو أية هيئة سياسية، أو أيُّ قانونٍ غير ما للأقوى، ثانياً: بما أن كلمة القوى وكلمة الضعيف مبهمتان في الحال الثانية فإن معنى هاتين الكلمتين في الفاصلة بين قيام حق التملك أو وضع اليد الأول وحق الحكومات السياسية أحسن إيفاء بكلمتى الفقير والغنى، وذلك لأنه لم يكن للإنسان قبل القوانين في الحقيقة وسيلة أخرى لإخضاع أمثاله غير مهاجمة ما لهم أو جعل نصيب لهم في ما لهم، ثالثاً: بما أنه لم يكن لدى الفقراء ما يُحسرونه غير حريتهم فإن من حماقتهم الكبيرة أن يتخللوا باختيارهم عن المال الوحيد الذى بقى لهم فلا يكتسبوا شيئاً مقابلةً، وبما أن الأغنياء هم، على العكس، مُرَهَقو الحس في جميع أقسام أموالهم فإنه كان من السهل جداً أن يؤذوا، ولذا كان عليهم أن يتخذوا من الاحتياطات الكثيرة ما يضمنون به أنفسهم من ذلك، ثم إن من الصواب أن يُعتقد كونُ الشيء قد اخترع من قبل من ينفعهم أكثر من كونه قد اخترع من قبل من يضرهم.

ولم يكن للحكومة الناشئة شكلٌ ثابت ومنتظم قط، وكان نقص الفلسفة والتجربة يحول دون البصر في المحاذير الحاضرة، وكان لا يُفكر في الاستعداد تجاه الآخرين إلا بالمقدار الذى يبدون به، وقد ظلَّت الحال السياسية ناقصة دائماً لأنها كانت من عمل المصادفة تقريباً، ولأن الزمن بعد

بدء السوء لم يستطع أن يُصلح نقائص النظام قَطُّ عند اكتشاف العيوب والإيحاء بالدواء، أى أنه كان يُرَقَّعُ بلا انقطاع بدلاً من أن يُبدَأَ بتطهير الجوِّ وإقصاء الأدوات القديمة كما صنع «ليكوزغ» في إسبارطة ليقيم بناءً صالحاً فيما بعد، ولم يُقَمِّ المجتمع في البُداء إلا على بعض الجهود العامة التى ألزم جميع الأفراد أنفسهم بمراعاتها، والتى غَدَتْ ضامنةً لكلِّ واحد منهم، وقد وَجِبَ أن تدلَّ التجربة على مقدار ما كان من ضعف مثل هذا النظام، وعلى مقدار ما كان من سهولة اجتنابِ مخالفته ثبوتَ الجُرمِ أو العقاب على الذنوب التى كان يجب على الجمهور أن يكون شاهداً عليها قاضياً فيها، وقد وجب أن يُنحَى القانون على ألف وجه، وأن تكثر المحاذير والارتباكات باستمرار حتى يُفكَّرَ أخيراً فى تسليم بعض الأفراد وديعةَ السلطان العامِّ الحَظِيْرَةَ، وفى ترك العناية فى إطاعة مَشُورَاتِ الشعب إلى بعض الحكام، وذلك لأن القول باختيار الرؤساء قبل قيام الدولة الاتحادية وينصب حَفَظَةَ القوانين قبل القوانين نفسها افتراضٌ لا يجوز الجدالُ عنه بِجِدِّ.

ومن غير الصواب أن يُعْتَمَدَ أن الشعوب ألقت نفسها فى البُداء بين ذراعى سيد مطلق بلا شرطٍ ولا رجوع، وأن الوسيلة الأولى للقيام بالأمن العامِّ الذى تصوره أناسٌ مختلفون جامعون كانت تدهورًا فى العبودية، ولماذا نَصَبَ الناس فى الحقيقة رؤساءً إن لم يكن للدفاع عنهم ضدَّ الاضطهاد، ولحفظ أموالهم وحيواتهم التى هى عناصرُ وجودهم المكوِّنة؟ والواقع أن السوء الذى يُمكن أن يتخذ لأحد الناس فى صِلات بعض الناس ببعضٍ إذ كان فى رؤيته نفسه تحت رحمة آخر؛ أفلم يكن مناقضاً للرشاد أن يُبدَأَ بتجريد نفسه بين يدي رئيسٍ من الأشياء الوحيدة التى كانوا يحتاجون لحفظها إلى مساعدته؟ وأى شىء معادلٍ استطاع تقديمه إليهم من أجل حقِّ عظيم كهذا؟ وإذا ما جَرَّوْهُ على المطالبة به متعللاً بحجة الدفاع عنهم أفلا يتلقى الجواب الآتى الذى جاء فى القصة: «أى شىء أكثر من هذا يستطيع العدو أن يصنعه بنا؟»، إن مما لا جدال فيه كون المبدأ الأساسى لجميع الحقوق السياسية قائماً على أن الشعوب أعطيت رؤساءً للدفاع عن حريتها، لا لاستعبادها، وقد قال «پليني» لـ «تراجان»: «إذا كان لنا أميرٌ فلكى يحفظنا من وجود سيد».

ويأتى السياسيون حَوْلَ حُبِّ الحرية بذات السَّفْسطة التى يأتى بها الفلاسفة حَوْلَ حال الطبيعة، وذلك أنهم يَحْكُمُونَ بما يَرَوْنَ فى أمورٍ تختلف جدًّا عن التى لا يَرَوْنَ، وهم يَعْزُونَ إلى الناس ميلاً طبيعياً نحو العبودية مستندين إلى الصبر الذى يُطَبَّقُ به عبوديتهم من يَقَعُونَ تحت عيونهم، وذلك من غير تفكيرٍ فى أن أمر الحرية كأمر العِصمة والفضيلة الذى لا يُشْعَرُ بقيمته إلا بدوام التمتع به والذى يَضِيعُ ذوقه عند ضياعه، ومن قول بَرَازِيدَاس لأحد المَرَاذِبَةِ الذى كان يقابل حياة إسبارطة بحياة بَرِيسُپُولِيس (إِضْطَخِرُ): «أَعْرِفْ ملاذَّ بلدك، غير أنك لا تستطيع أن تَعْرِفْ ملاذَّ بلدى».

وكما أن الجواد الجامح يَنْصَبُ عُرْفَهُ، وَيَضْرِبُ الأَرْضَ بَسَنَابِكِهِ، وَيَهِيْجُ عند دُنُوِّ اللجَامِ، على حين يعانى الجِصَانُ المَرَوْضَ السَّوْطَ والمهراز صابراً، تَرَى الإنسان من البرابرة لا يُطَاطِئُ رأسه للنير الذى يَحْمِلُهُ الإنسانُ المتمدن غير متذمّر، وهو يُفَضِّلُ الحرّيةَ العاصفة على الخضوع الساكن، ولذا لا يُجِوزُ أن يُحْكَمَ بِذُلِّ الشعوب المَعْبَدَةِ فى تَصَرُّفَاتِ الإنسان الطبيعية مَدْحًا للعبودية أو قَدْحًا فيها، بل بالعجائب التى قامت بها جميع الشعوب الحرة ضماناً لنفسها من الاضطهاد، وأَعْرِفْ أن الأولى لم تَضَعْ بلا انقطاع غير امتداح السَّلْمِ والسكون اللذين تتمتع بقيودهما، وأنها «تُسَمَّى أتعس عبودية أمنا»^(١)، ولكنى حينما أرى الآخرين يُضْحَوْنَ بالملاذِّ والسكون والثراء والقوة والحياة نفسها حفظاً لهذا المال الوحيد الذى يزدريه من أضاعوه، ولكنى حينما أرى الحيوانات التى تُوَلَدُ حُرَّةً وتَمُتُّ الأَسْرَ تكسر رأسها على قُضبان سجنها، ولكنى حينما أرى زَمَرًا من الوحوش الكامل العُرْيِ يزدرون الملاذَّ الأوروبية ويحتقرون الجوع والنار والحديد والموت حفظاً لاستقلالهم فقط، أشعرُ بأن البرهنة حول الحرية ليست من شأن العبيد.

وأما السلطة الأبوية، التى اشتق منها الحكومة المطلقة وجميع المجتمع كثيرٌ من الكتاب، وذلك من غير رجوعٍ إلى أدلة لوك وبيدنى المعاكسة، فيكفى أن يلاحظ أنه لا شىء فى الدنيا أكثرُ ابتعاداً عن روح الاستبداد الضارى من جِلْمِ هذه السلطة التى تنظر إلى نفع من يُطِيع

(١) تاسيت، التاريخ، باب ٤، فصل ١٧.

أكثر من نظرها إلى فائدة من يأمر، وأن الأب، على حسب قانون الطبيعة، ليس سيّد الولد إلا للزمن الذي تكون معونته ضرورية له، فإذا مرّ هذا الزمن صارا متساويين، وهناك إذ يصبح الولد مستقلا عن الأب تمامًا فإنه لا يكون مدينًا له بغير الاحترام، لا الطاعة، وذلك لأن معرفة الجميل واجبٌ يجب تأديته، لا حقٌّ يُمكن أن يطالب به، وكان يجب أن يقال إن السلطة الأبوية تنال قوتها الرئيسية من المجتمع المدني بدلًا من أن يقال إن المجتمع المدني يُشتق من السلطة الأبوية، ولم يُعترف بأن الفرد أبٌ للكثيرين إلا عندما يتقنون مجتمعين حوله، وما لدى الأب من أموالٍ يملكها حقًا هو الصلات التي تُبقى أولاده تابعين له، ويستطيع الأب ألا يجعل لهم نصيبًا في ميراثه إلا بنسبة ما يستحقون ذلك منه بامتثالٍ دائمٍ لمشيئته، والواقع أن من البعيد أن يكون للرعايا نفعٌ مماثل يتظرونه من طاغيتهم ما داموا هم وجميع ما يملكون مالا له، أو ما دام يزعم هكذا، فهم مُلزمون بأن يعدّوا فضلًا ما يتركه لهم من ماله الخاص، وهو يعدل إذا ما جرّدهم، وهو يتساهل إذا ما تركهم يعيشون.

وإذا داومنا على البحث في الوقائع حقوقيًا على هذا الوجه لم نجد ما هو أقل من الحقيقة في قيام الطغيان عن رضا، ويكون من الصعب إثبات صحة عقدٍ لا يلزم غير أحد الفريقين، وأن يقع الغرم على فريقٍ واحد دون الآخر، فلا يعانیه سوى من يلزم به نفسه، ويتعدّد أن يكون هذا النظام المقنن، حتى في أيامنا، نظام ذوى الرشاد والصلاح من الملوك، ولا سيما ملوك فرنسا، كما يُمكن أن يُرى ذلك في غير مكانٍ من مراسيمهم، ولا سيما العبارة الآتية التي جاءت في مرسوم مشهور نُشر في سنة ١٦٦٧ باسم «لويس الرابع عشر» وعن أمرٍ منه، وهي: «دَعْنَا لا نقول، إذن، كون ولى الأمر غير خاضع لقوانين دولته، وذلك لأن العكس من حقائق حقوق الأمم التي هوجمت عن ملقٍ أحيانًا، ولكن مع دفاع الأمراء الصالحين عنها دائمًا، وذلك كألوهية حافظة لدولهم، وما أكثر ما يطابق الصواب أن يقال مع أفلاطون الحكيم إن سعادة المملكة الكاملة هي في إطاعة الرعايا لأميرهم وإطاعة الأمير للقانون، وفي كون القانون قويمًا قاصدًا خير الناس^(١)».

(١) رسالة في حقوق الملكة البالغة النصرانية في مختلف دول مملكة إسبانية، ٦٦٧، المطبعة الملكية.

ولا أقف مطلقاً عند البحث في أن الحرية إذا كانت أشرف خصائص الإنسان فإنه ألا يكون من خط طبيعتنا وتنزيلنا إلى مستوى الحيوانات التي هي عبدة الغريزة، ومن التجديف على صانع وجودنا، أن نعدّل بلا قيد عن أئمن نعيمه، وأن نقاد لضرورة اقرار جميع الجرائم التي نهي عنها مجارة لسيد ضارٍ أو مجنون، فنغضب هذا الصانع الرفيع غضباً يجب أن يشتد من تخريب أجل ما صنع كاشتداده من فضح هذا الصنع، وأنغافل، إذا ما سمح لي، عن اختصاص «باريزاك» الذي تابع «لوك» فصّرح بوضوح أنه لا أحد يستطيع بيع حريته حتى الخضوع لسلطانٍ مرادٍ يعامله على حسب هواه، «وذلك لأن هذا ينطوي على بيع حياته التي ليس سيدها»، وإنما أسأل، فقط، عن حق أولئك الذين لم يخشوا خط أنفسهم حتى هذه النقطة فاستطاعوا أن يجعلوا حقدتهم خاضعين لذات العار، وأن يتنزلوا في سبيلهم عن أطيب لم ينالوها من كرمهم فتكون الحياة بغيرها ثقيلة على جميع من يستحقونها.

ويقول بوفندورف إن الإنسان يستطيع أن يجرد نفسه من حريته نفعاً لآخرين كما ينقل ماله إلى آخرين بمهودٍ وعقود، ويلوح لي أن هذه برهنة سيئة، وذلك، أولاً، أن المال الذي أبيع به يصبح عندي أمراً غريباً تماماً، ويغدو سوء استعماله أمراً لا يؤبه له، ولكن مما يهمني ألا يساء استعمال حريتي، ولا أستطيع أن أعرض نفسي لتكون أداة جريمة من غير أن أكون مذنباً بالسوء الذي أحمل على صنعه، ثم بما أن حق التملك ليس سوى عهدٍ ونظامٍ بشري فإن كل واحد يقدر على التصرف فيما يملك، ولكن غير هذا هبات الطبيعة الجوهرية كالحياة والحرية اللتين يُباح لكل واحد أن يتمتع بهما، واللتين يُشك في أنه يحق للإنسان أن يجرد نفسه منهما، وذلك لأن الإنسان إذا ما أقصى عن نفسه، إحداهما يكون قد أذل نفسه وإذا ما أقصى نفسه عن الأخرى يكون قد لاشاها فيه ما دامت فيه، ولكن بما أنك لا تجد خيراً دنيوياً يستطيع أن يعرض من أحد الأمرين فإنه يكون من إهانة الطبيعة والعقل معاً أن يُعدّل عنهما بأي ثمن كان، ولكن الإنسان إذا ما استطاع أن يبيع حريته كأمواله كان الفرق عظيماً من ناحية أولاده الذين لا يتمتعون بأموال أبيهم إلا بنقل حقوقه، وذلك بدلاً من كون الحرية، التي هي موهبة ينالونها من الطبيعة كأناسٍ، لا يحق لأبائهم أن يجردوهم منها مطلقاً، وذلك كما أنه وجب أن يُغف

بالطبيعة إقامة للرقِّ وَجِبَ تغييرها إدامةً لهذا الحقِّ، فالفهاء، الذين ذهبوا باتزانٍ إلى أن ابنَ العبد يُولد عبداً، يكونون قد قرَّروا بعبارةٍ أخرى كونَ الإنسان لا يُولد إنساناً.

ولِذَا يَلُوْحُ لى أن من الثابت كونَ الحكوماتِ لم تَبْدَأْ قَطُّ بالسلطة المرادية فقط، كونها لم تَبْدَأْ بهذه السلطة التي ليست غيرَ إفسادٍ لها، غيرَ أقصى حَدِّ لها، والتي تَرُدُّها في نهاية الأمر إلى قانون الأقوى الذي كانت علاجاً له في بدء الأمر، ولكن الحكوماتِ، حتى عند افتراضِ بدءِ أمرها على هذا الوجه، لم تكن تلك السلطةُ فيها لتستطيع بطبيعتها غير الشرعية أن تُصلِحَ أساساً لقانون المجتمع ولا لتفاوت النظام نتيجةً.

وانسى، من غير أن أدخل اليومَ في المباحث التي لا يزال من الواجب صنعها حَوْلَ طبيعة الميثاق الأساسي لكلِّ حكومة، أقتصرُ، باتباعي الرأي السائد، على عَدَى نظامِ الهيئة السياسية عَقْدًا حقيقيًا بين الشعب والرؤساء الذين يختارهم، عَقْدًا يُلْزِمُ كُلَّ من الفريقين نفسه بمراعاة القوانين التي اشترطت فيه فتولَّف روابطُ لاتحادهما، وبما أن الشعب في موضوع الصلات الاجتماعية يَجْمَعُ جميع إراداته ضمنَ إرادةٍ واحدة فإن الموادَّ التي تُوضَحُ بها هذه الإرادة تُصبح قوانينَ أساسيةً تُلْزِمُ جميع أعضاء الدولة من غير استثناء، فيُنظَّمُ أحدهما أمرَ الخيار وسلطة الحكام الموكَّلِ إليهم أن يَسْهَرُوا على تنفيذ الأخرى، وتَعُمُّ هذه السلطة كُلَّ ما يُمكن أن يَحْفَظَ النظام من غير ذهابٍ إلى الحدِّ الذي يُغَيِّرُ به، وإلى هذا تُضَافُ أنواعٌ من الشرف تجعل القوانينَ وحَفَظَتها محترمةً، وتَجْعَلُ هؤلاء شخصياً من الامتيازات ما يُعَوِّضهم من الأعمال الشاقة التي تكلفهم الإدارة الصالحة بها، والحاكمُ من ناحيته يُلْزِمُ نفسه بالأاستعمال السلطة التي عُهِدَ إليه أن يقوم بها إلا وَفَّقَ مَقْصِدَ موكِّليه، وبأن يجعل كُلَّ واحدٍ يتمتع بها هو خاصٌّ به تمتعاً هادئاً، وبأن يُفْضِلَ المصلحة العامة على المصلحة الشخصية في كُلِّ فرصة.

ووجب، قبل أن تدلَّ التجربة، أو معرفة القلبِ البشريِّ، على ما يعتور مثل هذا النظام من سوء استعمالٍ لا مناص منه، أن يَظْهَرَ أن الذين كان قد عُهِدَ إليهم أن يَسْهَرُوا على حِفْظِهِ هم أكثرُ الناس غَرَضاً فيه، وذلك بما أن الحاكمة وحقوقها لم تقوما على غير القوانين الأساسية فإن هذه القوانين إذا ما قُوِّضت عاد الحكام لا يكونون شرعيين من قوِّرهم، وعاد الشعب غيرَ

مُلزَمٍ بإطاعتهم، وبما أن القانون، لا الحكماء، هو الذى يقيم جوهرَ الدولة فإن كل واحد يعود إلى حريته الطبيعية عن حق.

وإذا أنعمنا النظر قليلاً في هذا الموضوع وجدناه يؤيد بأسباب جديدة، ورئى أنه يتعذر نقضه، وذلك لأنه إذا كانت لم تُوجد سلطةٌ عالية قادرة أن تكون ضامنةً لإخلاص المتعاقدين أو أن تُحمِلهما على القيام بالتزاماتهما المتبادلة ظلَّ الفريقان قاضيين وحيدين في قضيتهما الخاصة، وكان لكل واحد منهما حقُّ العدول عن العقد فوراً ما يجدُ نقضَ الفريق الآخر للشروط، أو حينها تعودُ غيرَ ملائمةٍ له، ويظهر أن حقَّ التنزل يُمكن أن يكون قائماً على هذا المبدأ، والواقع أننا إذا لم نُنظر، كما نَصنع، إلى غير النظام البشرى، وذلك عندما يكون الحاكمُ القابضُ على جميع السلطة، والمتحلُّ لجميع فوائد العقد، ذا حقَّ في العدول عن السلطة على الخصوص، فإن من الأولى أن يكون الشعب الذى يذْفَعُ ثمنَ جميع أغاليط الرؤساء ذا حقَّ في العدول عن خضوعه، غير أن الانقسامات الكريمة والارتباكات غير المحدودة التى تؤدى إلى هذه السلطة الخطيرة بحكم الضرورة تدلُّ، بأكثر مما على أى شىءٍ آخر، على مقدار ما كانت الحكومات البشرية محتاجةً إليه من قاعدةٍ أشدَّ متانةً من العقل وحده، وعلى مقدار ما كان ضرورياً للراحة العامة التى تتدخل فيها المشيئة الإلهية منْحاً للسلطة ذات السيادة صبغةً مقدسة لا تُنْقَضُ فَتَنْزِعُ من الرعايا ما فى التصرف فيها من حقِّ مشؤوم، وإذا كان الدين لم يَصْنَعِ للناس غيرَ هذا الخير كان لهم فى هذا ما يَفْرِضُ عليهم واجبَ اعتناقه وتعهُّده، حتى مع سوء استعماله، ما دام يتحقق من الدماء ما هو أكثر مما سَفَكَه التعصب، ولكن لتعقب خيط افتراضنا.

وتكون أشكالُ الحكومةِ المختلفةُ مدينةً بأصلها لدرجةٍ ما يكون بين الأفراد من الفروق حين قيامها، وإذا كان أحدُ هؤلاء مُتَّفَوْقاً فى القوة أو الفضل أو الغنى أو الوجاهة انتُخِبَ حاكماً وصارت الدولة ملكيةً، وإذا كان الكثيرون متساوين فيما بينهم تقريباً وكانوا يفوقون الآخرين انتُخِبوا معاً وتكوَّنت أريستوقراطيةً، ومن كان الثراء والمواهبُ عندهم أقلَّ تفاوتاً، وكانوا أقلَّ بُعْداً من حال الطبيعة، حافظوا بالاشتراك على الإدارة العليا، وألفوا ديمقراطيةً، وقد أثبتت الزمان أىَّ الشكلين كان أنفع للناس، وقد ظلَّ بعضُ الناس خاضعين للقوانين فقط، ولم يَلْبَثْ

الآخرون أن أطاعوا سادة، وأراد المواطنون أن يحتفظوا بحريتهم، ولم يفكر الرعايا في غير نزعها من جيرانهم، غير صابرين على تمتع آخرين بخير كانوا قد أضاعوه، والخلاصة أن الثروات والفتوح كانت من ناحية، وأن السعادة والفضيلة كانتا من ناحية أخرى.

وكانت الحاكميات كلها في هذه الحكومات المختلفة انتخابية، وعندما كان الفؤز لغير الشراء كانت الأفضلية للمزية التي تُنعم بنفوذ طبيعي، وللسنن التي تُنعم بالتجربة في الأمور، وبالاعتدال في المذاكرات، ويدل شيوخ العبريين وشيوخ الإسبارطين وسنات رومة، واشتقاق كلمة «سينيور» عندنا، على مقدار ما كان للمسيب من احترام فيما مضى، وكلما كانت الانتخابات تقع على أناس طاعنين في السن صارت متواترة وشعر بمصاعبها، فقد نسجت مكابدة وألفت عصابات واختدت أحزاب، واشتعلت حروب أهلية، وضحى بدم المواطنين في سبيل سعادة للدولة مزعومة، وأوشك الناس أن يسقطوا في فوضى الأزمنة السابقة، وقد استفاد الزعماء ذوو الطموح من هذه الأحوال إدامة لخدمهم في أسرهم، وقد رضى الشعب، الذي تعود الخضوع والراحة وزغد العيش، والذي عجز عن كسر قيوده، أن يترك عبوديته تزيد توطيدا لراحته، وهكذا تعود الزعماء، الذين أصبحوا وراثيين، أن يعدوا حاكميتهم مال أسرة، وأن يعدوا أنفسهم مالكي الدولة التي لم يكونوا غير موظفيها في البداءة، فيدعون مواطنيهم عبيدهم ويحسبونهم كالأنعام بين الأشياء التي يملكونها ويدعون أنفسهم مساوين للآلهة أو ملوك الملوك.

وإذا ما تتبعنا تقدم التفاوت في هذه الثورات المختلفة وجدنا أن وضع القانون وحق التملك كانا حده الأول، وأن قيام الحاكمية كان حده الثاني، وأن تحول السلطة الشرعية إلى سلطة مرادية كان حده الثالث والآخر، فأجيز حال الغنى والفقير في الدور الأول، وأجيز حال القوى والضعيف في الدور الثاني، وأجيز حال السيد والعبد في الدور الثالث الذي هو آخر درجة للتفاوت والحد الذي ينتهي إليه جميع الأخرى في نهاية الأمر، وذلك إلى أن تقضى ثورات جديدة على الحكومة تماما أو أن تُذنيها من النظام الشرعي.

ويجب، لإدراك ضرورة هذا التقدم، أن يُنظر إلى عوامل قيام الهيئة السياسية أقل مما إلى الشكل الذي تتخذه في تنفيذه، والمحاذير التي يجربها وراءه، وذلك لأنه العيوب التي تجعل

النُّظْمُ الاجتماعيّة أمرًا ضروريًا هي عين العيوب التي تُجَعَلُ سُوءَ استعماله أمرًا لا مَفَرَّ منه، وإذا استثنيت إسبارطة، حيث كان القانون يَشْهَرُ على تربية الأولاد خاصةً، وحيث أقام «ليكوذغ» من العادات ما كان يُغنيهِ عن إضافته قوانين، وجددت القوانين، التي هي أقلُّ قوّة من الأهواء على العموم، تَرَدَّعُ النَّاسُ من غير أن تُغَيَّرَهم، ومن السهل إثبات كون كلِّ حكومة تَسِيرُ، من غير فسادٍ ولا عيبٍ، دائميًا وتَمَامًا، وَفَقَّ غاية نظامها، فتقوم بلا ضرورة، وكونه لا احتياج إلى حكامٍ ولا إلى قوانينٍ في بلدٍ لا تُجْتَنَّبُ القوانينُ ولا يُسَاءُ استعمالُ الحاكمية فيه.

وتؤدى الفروق السياسية إلى فروقٍ مدنية بحكم الضرورة، ولا يَلْتَبِثُ التفاوت الذي يزيد بين الشعب ورؤسائه أن يُشْعَرَ به بين الأفراد فيتحول على ألف وجهٍ وَفَقَّ الأهواء والمواهب والمصادفات، وما كان الحاكم ليغتصب سلطةً غيرَ شرعية من غير أن يتخذ من العمال مَنْ يُضْطَرُّ إلى منحهم قسَمًا منها، ثم إن المواطنين لا يَسْمَحُونَ بأن يُضْغَطُوا إلا عن سيرٍ وراء طموحٍ أعمى، وهم إذ يَنْظُرُونَ إلى ما تحتهم أكثر مما إلى فوقهم فإن السيطرة تصبح أعزَّ من الاستقلال عندهم ويوافقون على تكييلهم بقيودٍ يَقْبَلُونَ على مَنَحِهَا بدورهم، ومن الصعوبة بمكان أن يُجْمَلَ على الطاعة مَنْ لا يحاول أن يَسُوسَ مطلقًا، وما كان أمهرُ السياسيين ليستعبد أناسًا لا يريدون إلا أن يكونوا أحرارًا، بَيِّدَ أن التفاوت يتشر من غير مشقة بين ذوى الطموح والجبين من النفوس المستعدة للسعى وراء مخاطر النصيب في كلِّ وقتٍ والتي لا تبالى بالسيطرة أو الخِذْمَة على حَسَبِ ما تكون ملائمةً أو معاكسةً لها، وهكذا فإنه لا بُدَّ من أن يكون قد أتى زمنٌ بلغت عيونُ الشعب فيه من السحر ما لم يَبْقَ لِقَادَتِهِ أن يخاطبوا أصغرَ الناس معه بغير قولهم: «كُنْ كَبِيرًا أنت وجميع ذريتك»، وهناك بَدَأَ كَبِيرًا لجميع الناس كما بَدَأَ في عَيْنِي نفسه، وأخذ عَقْبُهُ يرتفع كلما بَعُدَت المسافة منه، وكلما كانت العلة غامضةً حائرةً زاد المعلول، وكلما كَثُرَ الكُفَالَى في أسرةٍ زادت مجداً.

ولو كان هنا مكانٌ صالحٌ للدخول في التفصيل لسَهَّلَ عَلَيَّ أن أوضح كيف يصبح التفاوت في الوجاهة والسلطان أمرًا لا مَفَرَّ منه بين الأفراد «١٩»، حتى عند عدم تَدَخُّلِ الحكومة، وذلك لأن الأفراد إذا ما اجتمعوا في مجتمع واحد لم يلبثوا أن يُضْطَرُّوا إلى المقابلة فيما بينهم،

والى ملاحظة الفروق التي يجِدونها في معايشهم لبعض، وهذه الفروق أنواع كثيرة، ولكن بما أن الثراء، والشرف أو المقام، والسلطان والمزية الشخصية فروق رئيسية يُقاس بها في المجتمع فإننى أثبت أن توافق هذه القوى المختلفة أو تصادمها أصدق دليل على دولة حسنة التكوين أو سيئته، وإننى أثبت أن الصفات الشخصية بين أنواع التفاوت الأربعة هذه إذ كانت أصل جميع الأخرى فإن الغنى هو آخر ما تُرَدُّ إليه في نهاية الأمر، وذلك بما أنه يكون أكثر ما يتفجع رَغَد العيش مباشرة وأكثر ما يسهل نقله فإنه يُستخدَم بسهولة لاشترائه جميع البقية، فهذه الملاحظة يُمكن أن يُحكَم بشيء من الدقة في المقياس الذي ابتعده كل شعب عن نظامه الابتدائي وعن الطريق التي رسمها نحو أقصى حد للفساد، والأحظ مقدار ما تعمل في المواهب والقوى وتقابل بينها هذه الرغبة العامة في الصيت والشرف والأفضليات التي تأكلنا جميعاً، ومقدار ما تهتز الأهواء وتزِيدها، ومقدار ما تجعل جميع الناس متنافسين متزاحمين، وإن شئت فقل أعداء فتؤدى كل يوم إلى نوائب ونجاح ومصائب من كل نوع، وذلك بحملها ذوى المزايم على خوض عين المعارك، وأثبت أننا مدينون لهذه الحمياً في التحدث عن النفس، وهذه الصولة في التمايز التي تُخرج المرء عن الصواب تقريباً بأحسن ما يوجد بين الناس وأزده، أى بفضائلنا ومعايينا وبمعارفنا وأغاليطنا، وبقاهرينا وفلاسفتنا، أى بطائفة من الأمور الطالحة حول قليل من الأمور الصالحة، وأخيراً أثبت أنه يرى قبضة من الأقوياء والأغنياء على ذروة العظمة والثراء على حين يتخبط الجمهور في البؤس والظلام، وذلك عن كون أولئك لا يُقدرون الأمور التي لا يتمتعون بها إلا بمقدار ما يكون الآخرون محرومين إياها، وعن كونهم يعودون غير سعداء إذا ما عاد الشعب لا يكون بائساً.

يَبْدُ أن تلك الجزئيات وحدها تكون مادة سفرٍ جليل تُوزَن فيه محاسن كل حكومة مساوئها من حيث حقوق حال الطبيعة، وحيث يُكشَفُ جميع مختلف الوجوه التي يَبْدُو التفاوت تحتها حتى هذا اليوم، ويُمكن أن يَبْدُو في القرون القادمة، وذلك وفق طبيعة هذه الحكومات والثورات التي يجزها الزمن إليها بحكم الضرورة، وهنالك يرى الجمهور المضطهد في الداخل نتيجة احتياطات اتخذها ضد من هدده في الخارج، وهنالك ترى زيادة الاضطهاد

باطرادٍ من غير أن يستطيع المضطهدون معرفةَ حَدِّ له، ولا الوسيلةَ المشروعة التي تَبْقَى لهم لوقفه، وهناك يُرى انطفاءُ حقوق المواطنين والحريات القومية مقدارًا فمقدارًا وعُدُّ احتجاج الضعفاء تَذْمُرَاتٍ تَمْرُدٍ، وهناك يُرى قَصْرُ السياسةِ شَرَفَ الدفاع عن القضية العامة على فريق مرتزقي من الشعب، وهناك يُرى ظهورُ ضرورةِ الضرائب فيترك الزارعُ اليانسُ حقله حتى في أثناء السَّلْم، ويَهْجُرُ محراثه ليتقلدَ السيف، وهناك يُرى بروزُ مبادئ الشرف المشوومة الغريبة، وهناك يُرى تَحْوُلُ حُمَاةِ الوطن إلى أعداءٍ عاجلاً كان ذلك أو آجلاً حاملين بلا انقطاع خنجرًا مرفوعًا فوق مواطنيهم، فيأتي زمنٌ يُسْمَعُ فيه قولهم لطاغية بلدهم:

«إذا أمرتني أن أضرب بالسيف صدرَ أخى أو رقبةَ والدي،
وأن أضرب بالسيف أحشاءَ زوجتى.. فعلتُ ذلك كله بيدي
اليمنى مضطراً».

(لوكانوس، ا، ٣٧٦)

وعن أقصى تفاوت الأحوال والثروات واختلاف الأهواء والمواهب وعن الفنون غير المفيدة والفنون الضارة والعلوم التافهة نشأت طوائف من المبتسرات المخالفة للعقل والسعادة والفضيلة على السواء، ويرى إيقادُ الزعماء لكل ما يُمكن أن يُضعِفَ الناسَ المجتمعين بتفريق ما بينهم، ولكل ما يُمكن أن يَمْنَحَ المجتمعَ مَسْحَةً من الوفاق الظاهر ويَبْنُدَ فيه جرائمَ الشقاق الحقيقي، ولكل ما يُمكن أن يُوَجِّىَ إلى مختلف المنظّمات بتحدُّ وحقدٍ متبادلين عن معارضة بعض حقوقها ومصالحها ببعضٍ وعن تقوية السلطة الجامعة لها جميعاً من حيث النتيجة.

ومن بين هذه الارتباكات والثورات رَفَعُ الاستبدادُ رأسه الفظيع بالتدريج وافترس كل ما وَجَدَه صالحاً صحيحاً في جميع أقسام الدولة، فانتهى أخيراً إلى دؤس القوانين والشعب وإلى القيام على أنقاض الجمهورية، وكانت الأزمنة التي سبقت هذا التحول الأخير أزمنة اضطرابات وكوارث، غير أن الجميع قد ابتلع من قِبَلِ الغول في نهاية الأمر، وعاد لا يكون للشعوب زعماء ولا قوانين، بل طغاةً فقط، وصار لا يُبحث منذ هذه الدقيقة في الطباع والفضيلة، وذلك لأن

الاستبداد في كل مكان يسوده لا يحتمل أى سيد آخر، وإذا ما تكلم الاستبداد لم يبق صلاح ولا واجب ليُستشار، ولم يبق للعبيد فضيلة غير الطاعة العمياء.

وهنا آخر حد للتفاوت وأقصى نقطة تُغلق الدائرة وتمس النقطة التى ذهبنا منها، وهنا يعود الأفراد إلى مساواتهم الأولى، وذلك لأنهم ليسوا شيئاً يُذكر، ولأن الرعايا إذ عاد لا يكون لديهم من القوانين غير مشيئة السيد، وعاد لا يكون للسيد من القواعد غير أهوائه، فإن مبادئ الخير والعدل تزول مرة أخرى، وهنا يرد كل شىء إلى قانون الأقوى فقط، ومن ثم إلى حال جديدة للطبيعة مختلفة عن الحال التى بدأنا منها، وذلك لأن إحدى الحالين كانت حال الطبيعة فى صفائها، ولأن الحال الأخرى هى نتيجة إفراط فى الفساد، ثم إنه يوجد بين هاتين الحالين من قلة الاختلاف، ويكون عقد الحكومة من الانحلال بالاستبداد، ما يبقى المستبد معه سيداً ما ظل الأقوى، فإذا ما أمكن طرده لم يكن عنده ما يشكو منه ضد العنف، وتعد الفتنة الشعبية التى تنتهى بخلق أحد السلاطين أو خلع عملاً قانونياً كالأعمال التى كان يتصرف بها قبل يوم فى حياة رعاياه وأموالهم، والقوة الوحيدة التى كانت تؤيده هى التى تُسقطه وحدها، وهكذا فإن جميع الأمور تسير على حسب النظام الطبيعى، ومهما يكن من أمر هذه الثورات القصيرة والكثيرة الوقوع فإنه لا يستطيع أحد أن يتوقع من جور الآخر، بل من سوء حظه أو عدم تبصره.

وهكذا إذا ما اكتشف القارئ النبىء، وتبع، الطرق المنسية والضائعة التى لا بد من أن تكون قد أتت بالإنسان من الحال الطبيعية إلى الحال المدنية، وإذا ما أعاد القارئ النبىء، بمواقع متوسطة بينتها، تلك التى حملنى الوقت على حذفها أو التى لم يُوح الخيال بها إلى قط، لم يمكنه إلا أن يحاز من المسافة الواسعة التى تفصل بين هاتين الحالين، فى تعاقب الأمور البطيء هذا يُبصر حل ما لا يُحصى من المسائل الخلقية والسياسية التى لم يستطع الفلاسفة أن يحلّوها، وهو، إذ يشعر بأن النوع البشرى فى جيل ليس النوع البشرى فى جيل آخر، يعلم السبب فى كون ذيو جانس لم يجد إنساناً قط، وذلك لبحثه بين معاصريه عن إنسان زمن غير موجود، وهو يقول إن كاثون مات مع رومة والحرية لعدم ملاءمته عصرًا عاش

فيه، وإن أعظم الناس هذا لم يضلح إلا لإلقاء الحيرة في عالم كان يملكه، يقينا، لو ظهر قبل خمسمائة سنة، والخلاصة أنه يوضح كيف أن الروح والأهواء البشرية تفسدان على وجه غير محسوس ومن ثم تُغيّر أن طبيعتهما، ولماذا تُغيّر احتياجاتنا وملاذنا غرضها مع الزمن، ولماذا يزول الإنسان الأصلي بالتدريج فيعود المجتمع لا يُبدي لعيني الحكيم غير جمع من الأدميين المُفتعلين وأهواء مصنوعة نتيجة لجميع هذه الصلات الجديدة، ومن غير أن يكون لها أساس حقيقي في الطبيعة، وما يُعلّمنا التأمل إياه فوق ذلك تُزيده الملاحظة تماما، وذلك أن الإنسان الوحشي والإنسان المتمدن يتلغان من الاختلاف قلبا وميولا ما يكون باعث السعادة العليا لأحدهما معه عامل قنوط الآخر، فالأول لا يستشق غير الراحة والحرية، وهو لا يريد إلا أن يعيش ويبقى خاليا من العمل، حتى إن سكون الرواقى لا يُقاس بعدم مبالاته العميقة تجاه أى موضوع آخر، وعلى العكس نجد الإنسان المتمدن نشيطا دائما فيغرق ويهتز ويضطرب بلا انقطاع بحثا عن أشاغيل أشد عُسرا، وهو يعمل حتى الموت، وهو يسعى إلى الموت ليعيش، أو يعدل عن الحياة نيلا للخلود، وهو يتودد إلى العظماء الذين يمقتهم وإلى الأغنياء الذين يحتقرهم، وهو لا يدخر وسعا لينال شرف خدمتهم، وهو يباهى متفخا بنذاته وحمائتهم، وهو يفاخر بعبوديته، وهو يُحدث مع الاستخفاف عن الذين لم يتفق لهم شرف مقاسمته إياها وبالمناظر أعمال الوزير الأوربي الشاقة المبتغاة في نظر الكرايبي! وما أكثر المنايا القاسية التي لا يُفضلها هذا الوحشي البليد على هول مثل تلك الحياة التي لم تُلطف حتى بلذة فعل الخير! ولكنه يجب لرؤية الغاية من هذه الجهود الكثيرة أن يكون لكلمتي «السلطة والجمهورية» معنى في ذهنه، وأن يعلم وجود نوع من الناس الذين يرون قيمة لآراء بقية العالم، والذين يعرفون أن يكونوا سعداء راضين عن أنفسهم بشهادة الآخرين أكثر مما بشهادتهم، والواقع أن هذا هو السبب الحقيقي لجميع هذه الفروق، فالهجمي يعيش في نفسه، والإنسان المتمدن يعيش خارج نفسه دائما فلا يعرف إلا أن يعيش في نفوس الآخرين، وهو لهذا السبب يقتبس شعور حياته الخاصة من حكمهم وحده، وليس من موضوعي أن أثبت كيف أنه ينشأ عن مثل هذا التصرف كثير من عدم المبالاة نحو الخير والشر مع وجود كثير من

الرسائل الرائعة في الأخلاق، وكيف أن كل شيء، إذ يُرَدُّ إلى المظاهر، يُصبح مُفْتَعَلًا مَخَادَعًا، حتى في الشرف والصدقة والفضيلة، حتى في المعايب غالبًا، فنجد في ذلك ميرَ الافتخار في آخر الأمر، والخلاصةُ كيف أننا، إذ نسأل الآخرين عن أنفسنا دائمًا، ومن غير أن نَجْرُوَ على سؤال أنفسنا، وذلك بين كثير من الفلسفة والإنسانية والأدب والمبادئ العليا، لا نجدُ لدينا غيرَ مظهرٍ خادعٍ طائشٍ لشرفٍ بلا فضيلةٍ وعقلٍ بلا حكمةٍ ولذةٍ بلا سعادةٍ، ويكفي أنى أثبتُ أن هذا ليس حالَ الإنسانِ الأصليَّةِ مطلقًا، وأن روحَ المجتمعِ والتفاوتِ الذي ينشأ عن المجتمعِ هي التي تُغَيِّرُ جميعَ الميولِ الطبيعيَّةِ وتُفْسِدُها على هذا الوجه.

وقد حاولتُ أن أعْرِضَ أصلَ التفاوتِ وتقدُّمَهُ، وقيامَ المجتمعاتِ السياسيَّةِ وسوءَ استعمالها، وذلك بالمقدار الذي يُمكن هذه الأمورَ أن تُسْتَبَطَّ من طبيعة الإنسانِ على نورِ العقلِ فقط مستقلةً عن العقائدِ المقدسةِ التي تَمُنِّحُ السلطةَ ذاتِ السيادةِ تأييدَ الحقوقِ الإلهيةِ، ويُعلِّمُ من هذا البيانِ أن التفاوتِ، إذ كان غيرَ موجودٍ في حالِ الطبيعةِ تقريبًا، ينال قُوَّته ونُموَّهُ من تقدمِ مَلَكَاتِنَا وترقِّي الروحِ البشريَّةِ، ثم يصبح ثابتًا شرعيًّا بقيامِ مُلكِ القوانينِ، ويُعلِّمُ من هذا البيانِ أيضًا أن التفاوتِ الأدبيِّ الذي أجازتهِ الحقوقُ الوضعيةُ فقط مخالفٌ للحقوقِ الطبيعيَّةِ في كلِّ مرةٍ لا يتناسبُ هو والتفاوتُ البدنيُّ، ويُعيِّنُ هذا التمييزُ بما فيه الكفاية ما يجب أن يُفَكَّرَ فيه من هذه الناحيةِ حَوْلَ نوعِ التفاوتِ الذي يسود جميعَ الشعوبِ المتمدنةِ ما دام يباينُ قانونَ الطبيعةِ، مهما كان الوجه الذي يُعرَّفُ به، أن يقود ولدًا شائبًا، وأن يسوق غيبيَّ رجلاً حكيماً، وأن تَطْفَحَ شِرْذِمَةٌ من الأتباعِ بالزوائدِ على حين يحتاج الجمهورُ الجائعُ إلى الضروريِّ.

تعليقات

تنبیه حول التعليقات

أضفتُ بعضَ تعليقاتٍ إلى هذا الكتابِ وَفَقَّ عَادَتِي المتوانية في العمل متواتراً، وتبتعد هذه التعليقات عن الموضوع أحياناً بما فيه الكفاية، فلا يَصْلُحُ أن تُقْرَأَ ضِمْنَ المَتنِ، ولذا فقد دَحَرْتُهَا إلى آخر الرسالة التي حاولتُ أن أتبع فيها أقومَ سبيلِ جُهْدِ الطاقَةِ.. وَيُمْكِنُ مَنْ هم على شيء من الإقدام في العود ثانيةً أن يتلَّهُوا مرةً أخرى بالقيام ببعض المباحث ومحاولة تصفح التعليقات، ولا كبيرَ ضررٍ في عدم مطالعة الآخرين إياها مطلقاً.

(١)

الصفحة ١٦: روى هيرودتس أن مُنْقِذِي فارسَ السبعة اجتمعوا بعد مقتل سِمِرْدِيس (بَرْدِيَّة) للبحث حَوْل شكل الحكومة الذي يُنْعَمون به على الدولة، فأصرَّ أوتانيس بشدة أن يكون جُمهورِيًّا، أى أبدى رأيا زاد في غرابته صدوره عن فَمِ مَرْزُبَانٍ بمقدار ما كان من خشية الأكابر نوعًا من الحكومة يُحْمِلهم على احترام الناس فضلًا عن ادعاء قدرته على حيازة إمبراطورية، ولم يُسْتَمَعْ إلى أوتانيس قَطُّ كما يُمكن أن يُعتَقَد، وقد تَنَزَّلَ لمنافسيه عن حَقِّه في التاج لرغبته عن الطاعة والقيادة، وكان ذلك عندما رأى عزمًا على الشُّرُوع في انتخاب ملك، فسأل أن يُعَوِّضَ من ذلك بأن يكون حُرًّا مستقلًّا هو وذريته، وهذا ما أُجِيبَ إليه، ولو لم يعلمنا هيرودتس ما وُضِعَ من قيد على هذا الامتياز لَوَجِبَ افتراضه بحكم الضرورة، وإلا لكان أوتانيس، غيرُ المعترف بأى نوع من القانون وغيرُ المُلْزَم بتقديم حساب إلى أحد، صاحب الحَوْل في الدولة ولكان أقوى من الملك أيضًا، ولكن لم يكن الظاهرُ ليدلَّ قَطُّ على كون الرجل، القادر على الاكتفاء بمثل هذا الامتياز في مثل هذه الحال، قادرًا على إساءة استعماله، والواقع أنه لا يُرى أن هذا الحقَّ أدى إلى أقلِّ اضطرابٍ في المملكة، لا من قِبَل أوتانيس، ولا من قِبَل أحدٍ من ذريته.

(٢)

الصفحة ٢٥: أستند منذ خطوتى الأولى مطمئناً إلى إحدى تلك الحجج المعتبرة لدى الفلاسفة، لصدورها عن عقلي متين عالٍ يعرفون وحدهم أن يجذوه ويحسوه.

«ومهما تكن مصلحتنا في معرفة أنفسنا بأنفسنا فإننى لا أعلم هل نعرف أحسن من ذلك ما هو خارج عنا، وبما أن الطبيعة جهزتنا بأعضاء معدة لحفظنا فقط فإننا لا نستعملها إلا لتلقى المؤثرات الخارجية، فلا تبحث عن غير انتشارنا في الخارج وعن وجودنا خارج أنفسنا، وبما أننا كثيرو الانهماك في تكثير وظائف حواسنا وزيادة سعة كياننا الخارجية فإن من النادر أن نستعمل هذا الحس الباطنى الذى يرُدنا إلى أبعادنا الحقيقية، والذى يفصل عنا كل ما ليس منها، ومع ذلك فإنه يجب أن نتفع بهذا الحس إذا ما أردنا معرفة أنفسنا، وهذا هو الحس الوحيد الذى نستطيع أن نحكم به فى أنفسنا، ولكن كيف نعطى هذا الحس فاعليته وجميع مداه؟ وكيف نقدر روحنا التى يستقر بها من جميع أوهام نفسنا؟ لقد فقدنا عادة استعماله، وقد ظلّ بلا تمرين بين هرج إحساساتنا البدنية، وقد جفّ بنار أهوائنا، والقلب والروح والحواس أمور قد عمّلت ضدها».

(٣)

الصفحة ٣٧: إن ما أمكن أن تؤدى إليه عادة السير على قدمين من تحولات في تكوّن الإنسان، وإن ما لا يزال يلاحظ من صلات بين ذراعيه ورجلي ذوات القوائم الأربع، وما انتهى إليه من استقراء عن طراز مشيها، أمكن أن يُشير ريبًا حول ما يجب أن يكون أقرب إلى الطبيعة لدينا، ويبدأ جميع الأولاد بالسير على أرجل أربع، وهم يحتاجون إلى مثالنا ودرسنا لتعلّم القيام، حتى إنه يوجد من الأمم الوحشية من هي كاهوتتو الذين يُميلون الأولاد كثيرًا فيدعونهم يسرون على أيديهم وقتًا كبيرًا فيجدون مشقة عظيمة حملًا لهم على الوقوف، وقُل مثل هذا عن أولاد كرايب الأثني، وتوجد أمثلة شتى عن آدميين من ذوى القوائم الأربع، ومن ذلك أذكر ذلك الولد الذى وُجد في سنة ١٣٤٤ بالقرب من هس حيث كان يُغذى من قبل الذئب، والذى قال في بلاط الأمير هنرى فيما بعد إنه كان يُفضل أن يعود إليها على العيش بين الناس لو ترك وشأنه، وقد بلغ من اتخاذ عادة هذه الحيوانات في السير ما وجب أن تُربط فيه قطع من الخشب ليقف على رجله معتدلاً، ومثل ذلك حال الولد الذى وُجد سنة ١٦٩٤ في غابات لثوانية حيث كان يعيش بين الدببة، فروى مسيو دوكوندياك أنه كان لا يبدو عليه أى أثر من العقل، وأنه كان يسير على رجله ويديه، وأنه كان خاليًا من كل لغة، فيخرج من الصوت ما لا يشابه أصوات أحد من الأدميين، وكان وحشياً هائوفاً الصغير، الذى جلب إلى بلاط إنكلترا منذ سنين كثيرة، يلقى جميع شدائد العالم ليُطبق المشى على رجلين، وفي سنة ١٧١٩ وُجد في جبال البرانس وحشيان آخران كانا يجوبان الجبال على مثال ذوات القوائم الأربع، وأما ما يمكن أن يُعترض به من أن هذا يعنى تجردًا من الأيدي التى تصل بها إلى كثير من المنافع، وذلك عدا ما يدل عليه مثال القردة من إمكان استخدام اليد على وجهين، فيثبت، فقط، إمكان منح الإنسان أعضائه غرضًا أصلح من غرض الطبيعة، لا كون الطبيعة قد أعدت الإنسان للسير على غير ما تعلّمه.

ولكنه يُوجد، كما يلوح، أسباب كثيرة وجيهة يُثبت بها كون الإنسان ذا رجلين، وذلك أنه إذا ما أُثبت، أولاً، إمكان كونه في البُداءة على غير ما يَبْدُو لنا، وأن يصبح في آخر الأمر على ما هو عليه، فإن هذا لا يكفي لاستنباط وقوع هذا على هذا الوجه، وذلك لأنه يَجِبُ، بعد إثبات إمكان هذه التحولات، أن يُثبت، قبل التسليم بها، احتمال وقوعها على الأقل، ثم إذا أمكن ذراعِي الإنسان أن تَصْلُحاً رَجْلين له عند الحاجة، كانت هذه هي الملاحظة الملائمة الوحيدة لهذا النظام تجاه عدد كبير من الملاحظات المخالفة لها، وأهمها هي: أن الوجه الذي يرتبط به رأس الإنسان في جسمه يَجْعَلُ عينيه ناظرتين إلى الأرض، أى يَجْعَلُهُ في وضع قليل الملاءمة لبقاء الفرد، وذلك بدلاً من توجيه نظره أفقياً كما هي عليه جميع الحيوانات الأخرى، وكما يكون عليه هو نفسه إذا ما سار على رجلين لا على أربع، وأن الذَّنْب الذي لا ينفعه إذا مشى على رجلين مفيدٌ لذوات القوائم الأربع، فلم تُحَرِّمهُ آية واحدة منها، وأن نُدَى المرأة الحَسَنَ الوضع كثيراً لذات الرِّجْلين التي تُمَسِّك ولدها بين ذراعيها يكون سيئته لذات القوائم الأربع التي لم يَضْعُها شىء على هذا الوجه، وأن المُؤَخَّرَ إذ كان ذا ارتفاع مُفْرِطٍ إذا ما قيس بِقَدَمِ المُقَدَّم فإننا نزحف على الرُّكبتين عند سيرنا على أرجلٍ أربع، وهذا كله يَجْعَلُ الحيوان سَيِّئَ النسبة عسير المشى، وأنه إذا ما وَضِعَ الرُّجْلَ واليدَ على الأرض كان في الساق المؤخرة مفصل أقل مما في الحيوانات الأخرى، أى المفصل الذي يَرِبُّطُ عَظْمَ الشَّظِيَّةِ بِعَظْمِ القَصْبَةِ، فإذا لم يُوَضَّعْ غيرُ طرفِ الرُّجْلِ، كما هو مُكْرَهُ عليه لا رَبِّبَ، ظَهَرَ الرُّسْغُ من الضخامة ما لا يقوم معه مقام عَظْمِ الشَّظِيَّةِ، وذلك من غير قولٍ عن كثرة العظام التي يتألف منها، وظهرت مفاصله مع مُشَطِّ القَدَمِ وَعَظْمِ القَصْبَةِ من التَّدَانِي ما لا تَمْتَنِعُ معه الساق البشرية في هذا الوضع مثل ما تَمْنَحُهُ ذوات القوائم الأربع من المرونة، وبما أن مثال الأولاد قد أُخِذَ في سِنِّ لم تكمل فيها القُوَى الطبيعية بَعْدُ، ولم تَشْتَدَّ فيها الأعضاء بَعْدُ، فإنه لا يؤدي إلى نتيجة مطلقاً، وكذلك أودُّ لو أقول إن الكلاب لم تُعَدَّ للمشى، وذلك لأنها لا تُصَنِّعُ غيرَ الزحف بعد ولادتها ببضعة أسابيع، وكذلك الوقائع الخاصة غير ذات قوة كبيرة تجاه السَّيرِ العامِّ بين جميع الناس، حتى إن الأمم التي لا يتصل بعضها ببعض لم تستطع تقليد بعضها بعضاً، وإذا ما تُرِكَ ولَدٌ في غاية قبل أن يَقْدِرَ

على السير، فَعُذِيَ من قِبَل حيوانٍ ما، أَتَبَعَ مثالَ مُرْضِعِهِ بِمَهِارَتِهِ المَشْيِ مِثْلَهَا، فَالعَادَةُ تُسْتَطِيعُ أَنْ تَمْتَنِحَهُ مِنَ التَّيسِيرِ مَا لَا يَنَالُهُ مِنَ الطَّبِيعَةِ، وَكَمَا أَنَّ الشُّلَّ يَتَّهُونَ بِفِعْلِ التَّمْرِينِ إِلَى صَنَعِهِمْ بِأَرْجُلِهِمْ مَا نَصَنَعَهُ بِأَيْدِينَا فَإِنَّهُ يَتَّهَى فِي آخِرِ الأَمْرِ إِلَى اسْتِعْمَالِ يَدَيْهِ فِي عَمَلِ الرِّجْلَيْنِ.

(٤)

الصفحة ٣٧: إذا وُجد بعض الأزدِباء من علماء الطبيعة من يُقيم مصاعبَ حَوْل افتراض هذا الخِصْب الطبيعي في الأرض فإنني أجييه عن ذلك بالعبارة الآتية:

«بما أن النباتات تَسْتَخْلَص من الهواء والماء مادةً أكثر مما تستخلص من الأرض فإنها تعيد إلى الأرض أكثر مما تستخلص منها إذا ما حَمِجَتْ، ثم إن الغابة تُعَيِّن مياه المطر بوقفها الأبخرة، وهكذا فإن طبقة الأرض التي تُفِيدُ النبات تَزِيدُ كثيرًا في غابةٍ تُحَفَظُ طويلًا من غير أن تُمَسَّ، ولكن بما أن الحيوانات تُعِيدُ إلى الأرض أقل مما تستخلص منها، وبما أن الناس يستهلكون كثيرًا من الحطب والنبات للوقود وغيره من الاستعمالات الأخرى، فإن الذي يَحْدُثُ كونُ طبقة الأرض النباتية في بلدٍ مسكونٍ تَنْقُصُ دائمًا وتتحول في نهاية الأمر إلى أرضٍ كالبطرا العربية (بلاد الحجر)، وككثير من ولايات الشرق الذي كان، بالحقيقة، أكثر الأقاليم عُمرانًا في غابر الأزمان، فلا يوجد هناك غيرُ المِلْح والرمال، وذلك لأن المِلْح المستقر في النباتات والحيوانات يبقى على حين يتحول جميع الأجزاء الأخرى إلى بخار»، (التاريخ الطبيعي، أدلة حَوْل نظرية الأرض، المادة ٧).

وإلى ذلك يُمكن أن يضاف الدليل الواقعي بمقدار الشجر والنبات من كل نوع فكانت طافحةً به تقريبًا جميع الجزائر المهجورة التي اكتشفت في القرون الأخيرة، وبما يُخبرنا التاريخ عنه من الغابات الواسعة التي وجب خَبْطُها في جميع الأرض كلما عُمِرَت أو مُدُنَت، وإني أبدو الملاحظات الثلاث الآتية حَوْل ذلك، فالأولى هي أنه إذا وُجد نوعٌ من النباتات التي تستطيع أن تُعَوِّض من التَلَفِ بالمادة النباتية التي تنشأ عن الحيوانات وَفَقَ استدلال مسيودوبوفون كان ذلك، على الخصوص، آجَامًا تلتفُّ رؤوسها وأوراقها فتختصُّ بمياهٍ وأبخرةٍ أكثر مما تختصُّ به النباتات الأخرى، والثانية هي أن تَلَفَ الأرض، أي ضياع المادة الخاصة بالنبات، وَجِبَ أن يُعَجَّلَ بنسبة ما تكون الأرض أكثر زراعةً، ونسبة ما يستهلك أهلها الذين هم أكثر مهارةً، بفيضٍ، محصولاتها التي هي من كل نوع، والملاحظة الثالثة، وهي أهمها، هي أن ثمرات الشجر

تُجَهِّزُ الحَيَوانَ بِغِذاءٍ أَكثَرَ فَيَضاً مِمَّا تَقْدِرُ عَلَيْهِ النَباتاتُ الأخرى، وَهذه تَجْرِبَةٌ قُمْتُ بِها بِنَفْسِي بِمِقابِلَتِي بَيْنَ مَحصولاتِ أَرْضينِ مِساوِيتينِ اتساعاً وَخاصِيَّةً فَتكونُ إِحداهما مِستورَةً بِشجرِ الكِستناء، وَتكونُ الأخرى مِزرُوعَةً بُرّاً.

(٥)

الصفحة ٣٨: يُستخلص الفرقان الأكثرُ عمومًا، بين الأنواع النَّهامة من ذوات الأرجل الأربع، من شكل الأسنان ومن تكوين الأمعاء، فالحيواناتُ التي لا تعيش إلا من النباتات ذاتُ أسنانٍ مستوية، كالفرس والثور والضأن والأرنب، والحيواناتُ النَّهامة ذاتُ أسنانٍ حادة كالهِرَّ والكلب والذئب والشعلب، وأما الأمعاءُ في آكلة النبات فبعضُها كالأمعاء الغليظة التي لا توجد في الحيوانات النَّهامة، ويلوح، إذن، أن الإنسان، الصاحبَ لأسنانٍ وأمعاء كالتي في الحيوانات الآكلة النبات، يجب أن يُعدَّ من هذا الصنف، وليست المشاهدات التشريحية وحدها هي التي تؤيد هذا الرأي، بل تجد آثار العصور القديمة ملائمةً له أيضًا، قال سان جيروم: «رَوَى دِيسِيَارِكُ في كتبه عن قدماء اليونان أنه لم يوجد في عهد ساثورن، حين كانت الأرض خصيبةً بنفسها، إنسانٌ يأكل اللحم، وإنما كان الجميع يعيش بالفواكه والبقول التي تنمو نموًا طبيعيًا»^(١)، ويمكن تأييد هذا الرأي أيضًا برحلات كثيرٍ من السُّيَّاح المعاصرين، ومن ذلك أن فرَنسُوا كورَتيالَ ذَكَرَ، فيما ذَكَرَ، كونَ مُعظَمِ سكانِ لوكاى الذين نقلهم الإسبان إلى جزائر كوبا وسان دوميغ وغيرهما مات لأكله لحمًا، ومن ثمَّ يَرى أننى أهمل كثيرًا من المنافع التي يمكنني استغلالها، وذلك لأن الفريسة إذ كانت مدارًا وحيدًا تقريبًا لما بين الجوارح من نزاع، وإذ كانت آكلةُ النبات تعيش فيما بينها بسلام دائم، لو كان الجنس البشريُّ من هذا النوع الأخير، فإن من الواضح أن يكون للجنس البشريُّ كثيرٌ تيسيرٍ للبقاء في حال الطبيعة وقليلٌ احتياجٍ وفرصةٍ للخروج منها.

(٦)

الصفحة ٣٨: يَظْهَرُ أَنَّهُ يُخْرِجُ عَنِ مُتَنَاولِ الْإِنْسَانِ الْوَحْشِيِّ جَمِيعَ الْمَعَارِفِ الَّتِي تَسْتَلْزِمُ تَأْمَلًا، وَجَمِيعَ الْمَعَارِفِ الَّتِي لَا تُكْتَسَبُ إِلَّا بِتَسْلُسُلِ الْأَفْكَارِ وَالَّتِي لَا تُكْمَلُ إِلَّا بِمَتَاعِبَةٍ، وَذَلِكَ عَنِ عَدَمِ اتِّصَالِهِ بِأَمثَالِهِ، أَيْ عَنِ عَدَمِ وَجُودِ أَدَاةٍ تَصْلُحُ لِهَذَا الْإِتِّصَالِ، وَعَنِ عَدَمِ وَجُودِ احْتِيَاجَاتٍ تَجْعَلُهُ ضَرُورِيًّا، وَتَقْتَصِرُ مَعْرِفَتَهُ وَصَنَعَتَهُ عَلَى الْوُثُوبِ وَالرُّكُضِ وَالْقِتَالِ وَرَمَى الْحِجْرِ وَتَسَلُّقِ الشَّجَرِ، وَلَكِنَّهُ إِذَا كَانَ لَا يَعْرِفُ غَيْرَ هَذِهِ الْأُمُورِ فَإِنَّهُ يَعْرِفُهَا أَحْسَنَ مِمَّا نَعْرِفُ بِكَثِيرٍ، نَحْنُ الَّذِينَ لَيْسَ لَدَيْهِمْ مِثْلُ احْتِيَاجِهِ إِلَيْهَا، وَبِمَا أَنَّهَا تَتَّبِعُ تَمْرِينَ الْبَدَنِ فَقَطْ، وَلَيْسَتْ عُرْضَةً لِأَيِّ نَقْلِ، وَلَا أَيْ تَقَدُّمٍ، مِنْ فَرْدٍ إِلَى آخَرَ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ الْأَوَّلَ اسْتَطَاعَ أَنْ يَكُونَ مَاهِرًا فِيهَا مَهَارَةً آخِرِ أَعْقَابِهِ.

وَتَطْفَحُ رِحَالُ السِّيَاحِ بِأَمْثَلِهِ بِأَسْرِ النَّاسِ وَقُوَّتِهِمْ لَدَى الْأُمَمِ الْبَرْبَرِيَّةِ وَالْوَحْشِيَّةِ، وَلَيْسَ أَقْلٌ مِنْ هَذَا مَا جَاءَ فِيهَا مِنْ ثَنَاءٍ عَلَى حِدْقِهِمْ وَخَفْتِهِمْ، وَبِمَا أَنَّهُ لَا يُطَلَّبُ غَيْرُ عِيُونٍ لِمَلَاخِظَةِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ فَإِنَّهُ لَا شَيْءَ يُجُولُ دُونَ تَصَدِيقِ مَا يُؤَكِّدُهُ شَهَادَةُ عِيَانٍ فَوْقَ ذَلِكَ، فَأَخْتَارَ اتِّفَاقًا بَعْضَ الْأَمْثَلَةِ مِنَ الْكُتُبِ الْأُولَى الَّتِي تَقَعُ تَحْتَ يَدِي.

قال كُولِبِين: «يُدْرِكُ الْهُوتَتُو صَيْدَ الْبَحْرِ خَيْرًا مِمَّا يَدْرِكُهُ أَوْرَبِيو الْكَابِ، وَيَعْدِلُ حِدْقُهُمُ الشَّبَكَةَ وَالشَّصَّ وَالنُّشَابَ فِي الْخُلْجَانِ وَالْأَنْهَارِ، وَلَيْسَ أَقْلٌ مِنْ ذَلِكَ بِرَاعَتِهِمْ فِي إِسْكَاتِ السَّمَكِ بِالْيَدِ، وَلَا مِثْلَ مَهَارَتِهِمْ فِي السَّبَاحَةِ، وَيُوجَدُ فِي طِرَازِ سِبَاحَتِهِمْ الْخَاصُّ بِهِمْ تَمَامًا مَا يُثِيرُ الْحَيْرَةَ، فَهَمُ يَسْبَحُونَ مُسْتَقِيمِي الْبَدَنِ نَاشِرِي الْأَيْدِي خَارِجَ الْمَاءِ، فَيَبْدُونَ كَأَنَّهُمْ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ، وَهَمُ، عِنْدَمَا يَبْلُغُ اضْطِرَابُ الْبَحْرِ غَايَتَهُ وَيُضْبِحُ الْمَوْجُ كَالْجِبَالِ، يَرْقُصُونَ عَلَى مَنَّتِهِ صَاعِدِينَ هَابِطِينَ كَقِطْعَةٍ مِنَ الْقَلْبَيْنِ».

وقال المؤلفُ نفسه: «إِنَّ الْهُوتَتُو ذَوُو حِدْقٍ عَجِيبٍ فِي الصَّيْدِ، وَتَفُوقُ الْخِيَالَ خِفْتَهُمْ فِي الْعَدْوِ»، وَيَعْجَبُ مِنْ كَوْنِهِمْ لَمْ يَسِينُوا اسْتِعْمَالَ سُرْعَتِهِمْ فِي الْغَالِبِ، وَهَذَا مَا يَخْدُثُ أحيانًا مَعَ ذَلِكَ، كَمَا يُرَى مِنَ الْمَثَالِ الَّذِي يُقَدِّمُهُ عَنِ ذَلِكَ، فَقَدْ قَالَ: «نَزَلَ مَلَّاحٌ هَوْلَنْدِيُّ إِلَى بَرِّ الْكَابِ

وكلّف هُوْتَيْتِيَا بأن يتبعه إلى المدينة مع طَوَى تَبْعِ يزِن نحو عشرين رَطلاً، فلما كان الاثنان على مَسَافَةٍ من الزمرة سأل الهُوْتَيْتِيُّ المَلَّاحَ عن معرفته للركض، فأجاب الهولنديُّ بقوله: الركضُ؟ أجل، جيداً جداً، فقال الإفريقيُّ: سنرى، وقد قرّر مع التَّبْعِ وغاب من فَوْرِهِ تقريباً، وقد دُهَشَ المَلَّاحُ من تلك السرعة العجيبة، فلم يُفَكِّرَ في تَعَقُّبِهِ قَطُّ، ولم يَرِ تَبْعَهُ ولا حامله بعد ذلك».

«ولهم من البصر الحديد واليد السديدة ما لا يذنو الأوربيون معه منها مُطلقاً، فهم يُصيبون بحجرٍ علامةً باتساعِ نَصفِ فِلسٍ على مَسَافَةِ مائة خُطوة، وأعجبُ ما في الأمر هو أنهم يأتون بحركاتٍ وتشنجاتٍ مستمرة بدلاً من أن يَجْعَلُوا المِهدَفَ نُصْبَ عيونهم كما نصنع، فيَظْهَرُ أن يَدَا خَفِيَةٍ تَحْمِلُ حَجَرَهُمْ».

وما قاله الأب دوتزير عن وحوش الأنتي يُقَرَّبُ مما قيل عن هُوْتَيْتُو رَأْسِ الرِجاءِ الصالح، فهو يمتدح سَدَادَهُمْ في توجيه سهامهم إلى الطيور وهي طائفةٌ وصيدهم السَّمَكُ سَبْحًا مع غَوْصٍ، وليس وحوش أمريكا الشمالية أقلّ من هؤلاء صَيْتًا بِقُوَّتِهِمْ وجَذْفِهِمْ، وإليك مثلاً يُمكن أن يُحَكِّمَ به في أمرِ هنود أمريكا الجنوبية:

حَكِيمٌ في قَادَسَ في سنة ١٧٤٦ بالليمان على هنديٍّ من بُوينوس إيرس فَعَرَضَ على الحاكم أن يشتري حرّيته بتعريضه حياته للموت في عيد عامٍّ، وقد وَعَدَ بأن يهاجم وحده أسرس ثورٍ غيرَ حاملٍ من السلاح سوى حَبْلِ بيده، وبأن يُمَسِكَهُ بحبله من العَضْوِ الذي يُشار إليه، وبأن يُسْرِجَهُ ويُلْجِمَهُ وَيَرْكِبَهُ ويصارعُ وهو على هذا الوجه ثورين من أسرس الثيران يُخَرَّجان من حَظِيرَةِ المِيدان، وبأن يَقْتُلَ أحدهما بعد الآخر قَوْرَ أمره بذلك، ومن غير أن يُعيّنه أحدٌ على ذلك، وهذا ما أُجِيبَ إليه، وفي الهندى بوعدهِ ويُوقَّفُ في جميع عَهْدِهِ، ومن يُرِيدُ الاطِّلاعَ على المِنْهَاجِ الذي اتَّخَذَهُ وعلى جزئيات المصارعة فليراجع الجزء الأول من «ملاحظات في التاريخ الطبيعي» لمسيو غوثيه حيث اقتبسنا خبرَ هذا الحادث (صفحة ٢٦٢).

(٧)

الصفحة ٤٠ : قال مسيو دوبرفون: «إن مدة حياة الخيل تكون على نسبة مدة نُموها، كما هي الحال في جميع أنواع الحيوانات الأخرى، فالإنسان الذي يتطلب أربع عشرة سنة لنشونه يمكنه أن يعيش ما يعادل ستة أو سبعة أمثال هذه المدة، أى تسعين سنة أو مائة سنة، والحصان الذي يتمُّ نُموه في أربع سنين يُمكنه أن يعيش ما يَعْدِل ستة أو سبعة أمثال هذه المدة، أى خمسًا وعشرين سنة أو ثلاثين سنة، وتَبْلُغ الأمثلة التي يُمكن أن تخالف هذه القاعدة من النُّدرة ما لا ينبغي معه حتى عَدُّها استثناءً يُمكن أن تُستخرج منه نتائج، وبما أن الخيل السمينة تَنُمُو في مدة أقل مما تنمو فيها الخيل الدقيقة فإنها تعيش مدةً أقل مما تعيش فيها تلك، وهي تدخل دَوْرَ الهَرَم منذ دخولها الخامسة عشرة من السَّن»، (تاريخ الخيل الطبيعي).

(٨)

الصفحة ٤٠ : أعتقد أنني أبصر في الحيوانات الجوارح وفي آكلة النبات قرآناً آخر أكثرَ عموماً من الذي لاحظته في التعليق الخامس، وذلك لأنه يَشْمَلُ حتى الطيور، ويقوم هذا الفرق على عدد الصغار الذي لا يزيد على الاثنين، مطلقاً، في كلِّ نتاجٍ من الأنواع التي لا تعيش إلا من النباتات والذي يزيد على ذلك عادةً في الحيوانات النَّهَامَةُ، وَيَسْهُلُ أن يُعْرَفَ ما تُعَيِّنُهُ الطبيعة في ذلك من عدد الثُدَيِّ الذي يكون اثنين في كلِّ أنثى من النوع الأول كالفرس والبقرة والعنزة والوعلة والنعجة، إلخ.، والذي يترجع داتها بين الستة والثمانية في الأنثى الأخرى كالكلبة والمهرة والذئبة والنميرة، إلخ.، وتبييض الدجاجة والإوزة والبطة، التي تُعَدُّ كلُّها من الطيور النَّهَامَةُ، وكذلك اللَّقْوَةُ^(١) والبومة وأنثى الباز، وترخُّم بيضاً كثيراً، أى تقوم بأمرٍ لا يتفق للحمامة ولا للقميرية ولا للطيور التي لا تأكل غيرَ الحبِّ فلا تُلقَى ولا تحضن غيرَ بيضتين، ويقوم السبب الذي يُمكن ذكره في هذا الفرق على كون الحيوانات التي لا تعيش بغير الكلا والنبات تقضى يومها كله تقريباً في طلب القوت فتضطرُّ إلى قضاء وقتٍ كبير في الاغتذاء، ولا تستطيع أن تكفى لإرضاع صغارٍ كثير، وذلك على حين تقوم الحيوانات النَّهَامَةُ بطعامها في سُوَيْعَةٍ فيسهل عليها في الغالب أن تعود إلى صغارها وإلى صيدها وأن تتدارك ما أُشْرِفَ من لبن كثير، ويُمكن أن تُبَدَى في ذلك عدَّة ملاحظاتٍ وتأملاتٍ خاصة، ولكن لا مكانَ هنا لذلك، ويكفى أن أُبيِّن في هذا القسم نظامَ الطبيعة الأكثرَ عموماً، هذا النظامَ الذي يُجَهِّزُ بسببٍ جديد في إخراج الإنسان من طبقة الحيوانات الجوارح وصَفَّهُ بين الأنواع الآكلة للنبات.

(١) اللقوة: أنثى العقاب.

(٩)

الصفحة ٤٥ : حَسَبَ مؤلفٌ مشهورٌ خَيْرَ الحياة البشرية وشرَّها وقابل بين المقدارين فوجد المقدارَ الثاني يزيد على الأول كثيراً وانتهى، بعد أن قلب جميع الأمور، إلى أن الحياة البشرية ليست هبةً ذات قيمة مطلقاً، ولم يَعْتَرِنِي دَهْشٌ، قَطُّ، من النتيجة التي وَصَلَ إليها، فقد استنبط جميع براهينه من نظام الإنسان المدني، فلو رَجَعَ إلى الإنسان الطبيعي لراى أنه كان يُمكنه أن يَجِدَ نتائجَ مختلفةً جداً، فيُبْصِرُ أنه لم يكن لدى الإنسان من الشرور غير ما أعطى نفسه إياه، وليس من غير مشقة أن انتهينا إلى جعل أنفسنا بالغي الشقاء، فإذا ما نُظِرَ من ناحية إلى أعمال الناس الواسعة، وما وقع من تَبَخُّرٍ في العلوم واختراع في الفنون، وما استُخْدِمَ من قُوَى، وما مُلِيَ من هُوَى، وما هُدِّ من جبال، وما حُطِّمَ من صخور، وما جُعِلَ من أنهار صالحاً للملاحة، وما أُحْيِيَ من أَرْضَيْنِ، وما حُفِرَ من بُحَيْرَاتِ، وما جُفِّفَ من مستنقعات، وما أُقِيمَ على الأرض من مبانٍ ضخمة، وما سُتِرَ بالسفن والملاحين من بحار، وإذا ما بُحِثَ من ناحية أخرى، مع قليل تأمُّلٍ، في المنافع الحقيقية التي نشأت عن جميع ذلك في سبيل سعادة النوع البشري، لم يَسَعِ المرء إلا أن يُضْدمَ مما يَسُودُ هذه الأمور من تفاوت عجيب فيزئى لعمى الإنسان الذي يَسُوقُه بشدة وراء كل شقاء يُمكن أن يصيبه، وراء كل شقاء كانت الطبيعة المحسنة قد عُيِنَت بإقصائه عنه، وذلك تغذيةً لزهوه السخيف وإعجابهِ الباطل بنفسه.

والناسُ خبيثاءٌ، وتُغْنِي عن الدليل تجربةً كثيفةً دائمةً، ومع ذلك فإن الإنسان صالحٌ بطبيعته، واعتقد أنى أثبتُ ذلك، فما الذى أفسده من هذه الناحية، إذَنْ، إن لم يكن ما طرأ على نظامه من تحول، وما أوجبه من تقدم، وما اكتسبه من معارف؟ وليُعْجَبِ المرءُ بالمجتمع البشري ما شاء، وليس أقل من ذلك حقيقةً كونُ هذا المجتمع يُجَمِّلُ الناسَ على التباغض، بحكم الضرورة، بنسبة زيادة مصالحهم، وعلى تبادل الخِدمَ ظاهراً وضرراً بعضهم بعضاً بكل ما يُتَصَوَّرُ حقيقةً، وما يُمكن أن يقال عن صلةٍ يُملى داعى كل فردٍ فيها قواعدَ مباينةٍ رأساً للقواعد التي يَعِظُ الداعى العامُّ بها هيئةً المجتمع وحيث يَجِدُ كلُّ واحدٍ حسابَه في شقاء الآخرين؟ ومن المحتمل

أنك لا تجد رجلاً مُوسِراً لا يَتَمَنَّى موته سراً ورثته الطامعون، وأولاده في الغالب، وأنك لا تجد سفينة لا يكون غرقها في البحر حادثاً ساراً عند بعض التجار، ولا تجد محلاً تجارياً لا يؤدُّ المدينُ السُّئى النية أن يراه محترقاً مع جميع ما يشتمل عليه من أوراق، ولا تجد شعباً لا يسرُّ بمصائب جيرانه، وهكذا فإننا نجدُ فائدتنا في ضرر أمثالنا، فخرُّنا أحدهم يُوجبُ غبطة الآخر دائماً تقريباً، ولكن أكثر ما يكون خطراً هو أن تكون البلياء العامة مدارَ أملٍ جمعٍ من الأفراد وموضع رجائهم، فبعضهم يريد أمراضاً، وآخرون يريدون فناء، وآخرون يريدون حرباً، وآخرون يريدون مجاعةً، وقد رأيت أناساً قباحاً يَكُونُ المأ من طلائع سَنَةِ خصيبة، ويحتمل أن كان حريقُ لندن، الكبيرُ المشؤوم والذى قضى على حياة كثير من التُّسَاء وأموالهم، قد أسفر عن اغتناء أكثر من عشرة آلاف شخص، وأعلمُ أن مُوتينَ لأم الأتني دِمَادَس على معاقبته أحد العمال لبيعه بأثمانٍ مرتفعة جداً توابيت فكان يَكْسِبُ كثيراً عند موت المواطنين، غير أن السبب الذى ذكره مُوتينَ ينطوى على وجوب مجازاة جميع العالم فيزيد ما ذكرته من أسباب كما هو واضح، ولذا فليُطَّلَع، من خلال أدلتنا التافهة في الرِّفق، على ما يَقَعُ في أعماق القلوب، وليُنعم النظر فيما يجب أن تكون عليه حال الأمور التى يُضطرُّ فيها جميعُ الناس إلى مداراة بعضهم بعضاً وإلى تهادمهم مقابلةً، والتى يُولَدون فيها أعداء عن واجبٍ وشُطَّاراً عن مصلحة، وإذا ما أُجِبْتُ بأن المجتمع بَلَغَ من التكوين ما يَكْسِبُ الإنسانُ معه في خدمة الآخرين رَدَدْتُ عن هذا بقولى إن من الحَسَنِ جداً ألا يَكْسِبَ أكثر من أن يَضُرَّهم، ولا يُوجَدُ من الكَسْبِ الحلال ما لا يزيد عليه الكَسْبُ الحرام، وما يُلْحَقُ بالجار من ضررٍ أكثر ربحاً من الخِدم، ولا شىء يُطلَبُ غيرُ معرفة الوسائل التى يُطَمَأَنُّ بها إلى عدم العقاب، ولذا يستعمل الأقوياء جميع قواهم، ويستعمل الضعفاء جميع حيلهم.

وإذا ما طَعِمَ الإنسان الوحشى كان على وِثَامٍ مع جميع الطبيعة وصديقاً لجميع أمثاله، وإذا ما ثار نزاعٌ حَوْلَ طعامه في بعض الأحيان لم يَلْجَأْ إلى كَيْلِ الضَّرَبَاتِ قبل أن يقابل مقدماً بين صعوبة النصر وصعوبة عشوره على طعامٍ له في مكانٍ آخر، وبما أن الزهو لا يجد له سبيلاً في الصُّراع فإنه ينتهى ببعض لَكَمَاتٍ، ويأكل الغالبُ، ويبحث المغلوب عن غذاءٍ له في مكانٍ آخر،

وتَسُود السَّلْم، ويكون الأمر على غير هذا لدى الإنسان المتمدن، فتداركُ الحاجي هو أول ما يُطلَب، ثم يأتي الفائض، ثم تأتي الأطايب فالثَرَوَات الواسعة، ثم الرعايا فالعبيد، ولا يكون لديه وقتُ بَطالة، وأغربُ ما في الأمر كونُ الاحتياجاتِ كلما كانت مُلِحَّةً ودون الطبيعيِّ زادت الأهواء، وشَرُّ من ذلك أن يُستطاع قضاؤها، وذلك أن ينتهي أمرُ البطل بأن يضرب كلَّ عُني حتى يصبح سيدَ العالم الوحيد بعد أن يكون قد ابتلع أموالاً وافرة وأحزن أناساً كثيرين، فهذه هي خلاصةُ لوصف الحياة البشرية وصفاً أدبيّاً، أو خلاصةُ لوصف المزاعم الخفية في قلب كلِّ إنسان متمدن.

وقابلوا، من غير مُبتَسرات، بين حال الإنسان المدنيِّ وحال الإنسان الوحشيِّ، وابعثوا، إذا ما استطعتم، عن مقدار ما فَتَحَ الأول من أبوابِ جديدةٍ نافذةٍ إلى الألم والموت فضلاً عن خبثه واحتياجاته وبؤسه، وإذا ما نظرتم إلى عذاب النفس الذي يُضيينا، وإلى الأهواء العنيفة التي تنهكنا ونُحزِننا، وإلى الأعمال القاسية التي يُرهِق بها الفقراء، وإلى الترف البالغ الخطر الذي ينهمك فيه الأغنياء فيهلك الفريق الأول عن احتياجٍ ويهلك الفريق الثاني عن إفراط، وإذا فكرتم في اختلاط الأغذية المضادَّ للطبيعة، وفي تعليلها بالتوابل تعليلاً ضارّاً، وفي الغلات الفاسدة والعقاقير المغشوشة، وفي خداع من يبيعونها وغواية من يُدبِّرون أمرها، وفي سُمِّ الأوعية التي تُعدُّ فيها، وإذا ما أنعمتم النظر في الأمراض السارية الناشئة عن الهواء الفاسد بين زمر الناس المجتمعين، وفي الأمراض التي تُصدُر عن دقة طراز حياتنا، وفي انتقالنا مناوبةً بين منازلنا والهواء الطليقي، وفي استعمال الملابس التي تُتخذ أو تُترك مع قليل تحفظ، وفي كلِّ ما تحوّلت به شهوتنا المفرطة إلى عاداتٍ ضرورية من عناية فيزدي إهمالها أو الزهد فيها بعدُ إلى القضاء على حياتنا أو صحتنا، وإذا ما نظرتم إلى الحرائق والزلازل التي تُقضي على مُدُنٍ بأسرها وتُهلك سكانها بالألوف، والخلاصةُ إذا ما جمعتم الأخطارَ التي تُصَبُّها جميعُ هذه العلل على رؤوسنا باستمرارٍ، شعرتم بالثمن الغالي الذي نُحمِلنا الطبيعة على دفعه مقابل استخفافنا بدروسها.

ولا أكرّر هنا مطلقاً ما قلته عن الحرب في مكانٍ آخر، ولكنني أودُّ أن يكون المتعلمون من الإرادة أو الجرأة ما يُطلعون الجمهورَ معه على تفصيل القبايح التي تُعترَف في الجيوش من قبل

ملتزمى الميرة والمشافي، فهناك يرى أن أساليهم في الغش، غير الخافية كثيراً، تتوارى بها أنضر الجيوش في وقت قصير جداً ويهلك بها من الجنود أكثر ممن يخصدهم سلاح الأعداء، ثم إنه ليس أقل إثارة للدهش أمر من يتلهم البحر في كل عام عن المجاعة أو داء الحفر أو القراصين أو النار أو الغرق، ومن الواضح أنه يجب أن يُحسب بجانب التملك القائم، ومن ثم بجانب المجتمع، أعمال القتل والسّم وقطع الطرُق، حتى العقاب على هذه الجرائم الذي لا بد منه درة لأعظم الشُرور، ولكن مع قضائه في جرائم القتل على حياة اثنين أو أكثر فيدع وقوع هلاك في النوع البشري ضعفين، وما أكثر الوسائل الفاضحة التي تتخذ لغرق ولادة الأدميين ومخادعة الطبيعة، وذلك إما عن تلك الأذواق البهيمية أو الفاسدة التي تُعدُّ سبباً لأروع أعمالها، وإما عن تلك الأذواق التي لم يعرفها الهَمَجُ ولا الحيوانات مطلقاً، والتي لم تنشأ في البلاد المتمدنة إلا عن خيال فاسد، وإما عن تلك الإجهاضات الخفية التي هي ثمرة الفسق والشرف المغيّب، وإما عن إهمال جمع من الأولاد أو قتلهم، هؤلاء الذين هم ضحايا بؤس آبائهم أو خجل أمهاتهم الشديد، وإما عن بتر هؤلاء التّعساء الذين ضحى بقسم من كيانهم وجميع عقبيهم من أجل أغاني باطلة، أو من أجل حسد بعض الناس، بترًا يظعن الطبيعة طعناً مزدوجاً في هذه الحال الأخيرة، وذلك بما يعامل به أولئك الذين يألون منه، وبما أعدوا له من عادة!

ولكن أليس أكثر شيوعاً وخطرًا ألف مرة أن تلحق الحقوق الأبوية بالإنسانية أذى؟ وما أكثر القرائح المطمورة والميول المقهورة عن قسِر الأباء العاقل! وما أكثر الرجال الذين يمتازون في حال مناسبة ويموتون تعساء مفضوحين في حال أخرى لم يرغبوا فيها قط! وما أكثر ما فُصِمَ أو كُذِرَ من زواجٍ سعيدة، ولكن مع تفاوت! وما أكثر الزوجات الطاهرات اللاتى فُضِخْنَ بذلك النظام من الأحوال المناقضة لنظام الطبيعة دائماً! وما أكثر القرائن الأخرى الغريبة التي نشأت عن المصلحة وأنكرت بالحب والعقل! وما أكثر الأزواج الصالحين الفضلاء الذين عُوقِبُوا مبادلة لسوء تنوعهم! وما أكثر ضحايا سُخِّ الأباء من الشبان والتعساء الذين غاصوا في الرذيلة أو الذين قَضُوا أيامهم السُودَ في الدموع، والذين أنوا في صلات لا انفصام لها مع أن الفؤاد يرفضها والذهب وحده هو الذي كَوَّنَهَا! ما أسعد أولئك اللاتى نزعتن

الشجاعة والفضيلة أحياناً من الحياة قبل أن يحمّلهن عنفٌ شديدٌ على قضائهما في الجريمة أو القنوط! فاغفري يا والدي اللذين أرتى لهما إلى الأبد، لما أزيد من آلامكما بشكواي، ولكن هل تضح هذه الآلام أن تكون عبرةً أبديةً هائلةً لمن يجزؤ، حتى باسم الطبيعة، أن ينقض أقدس حقوقها؟

وإذا كنت لم أتكلم عن غير هذه المشاكل السيئة التكوين التي هي من عمل ضابطننا، فهل يفكر في كون التي ييمن عليها الحبُّ والعاطفة سالمةً من المحاذير؟ وما يقع إذا ما حاولت إبداء النوع البشري مهاجماً في منبعه وفي أقدس جميع الروابط حيث لا يُجرأ على سماع الطبيعة إلا بعد مراجعة النصيب، وحيث تخلط الارتباك المدني بين الفضائل والمعائب فيصبح الزهد احتزازاً جنائياً ويصبح رفض هبة الإنسان حياته لشبيهه عملاً إنسانياً؟ ولكن لنكتف بالإشارة إلى المرض الذي يجب على الآخرين أن يعالجوه، وذلك من هتك للحجاب الذي يغطي جميع هذه القبائح.

ويُضف إلى جميع هذا ذلك المقدار من الصناعات غير الصحية التي تُقصر الأيام أو تُقوّض الأبدان، وذلك كأعمال المناجم وإعداد المعادن والفيلز^(١)، ولا سيما الرصاص والنحاس والزنبق والكوبلت والزرنيخ والرَّهَج^(٢)، وتلك الصناعات الأخرى الخطيرة التي تُودي كل يوم بحياة عددٍ من المسقفين والنجارين والبنايين والمعدنين، ولتجمع جميع هذه الأمور كما أقول ليرى في قيام المجتمعات وكما لها أسباب ما يلاحظه أكثر من فيلسوف من نقصان النوع.

ولا يلبث الترف، الذي يتعذر تلافيه لدى الأدميين الطامعين في رغد عيشهم واحترام الآخرين لهم، أن يتم الشر الذي بداته المجتمعات، والذي يُفقر البقية كلها ويُفقر الدولة عاجلاً أو آجلاً بحجة ما لا يصنعه من إطعام الفقراء.

والترف علاج أسوأ كثيراً من المرض الذي يزعم شفاءه، أو إنه في ذاته أسوأ من جميع

(١) اسم يطلق على جواهر الأرض كلها.

(٢) سم الفأر.

الأمراض في كلِّ دولةٍ صغيرةٍ أو كبيرةٍ، وذلك لأنه يؤدي إلى ظلم المواطن والزراع وهلاكهما تغذيةً لجموع من الخدم والبائسين الذين يُوجدُهم، وهو يشابه رياحَ الجنوب المحرقة التي تَسْتَرُ الكلاً والحُضْرَةَ بالحشرات النَّهَامَةَ والتي تَنْزِعُ الغِذاءَ من الحيوانات النافعة وتَحْمِلُ القَحْطَ والموتَ في جميع الأماكن التي تُهْبُ فيها.

وينشأ عن المجتمع، وما يؤدي إليه من تَرَفٍ، الفنونُ العقلية والميكانيَّة والتجارة والآداب وما إلى ذلك من الزوائد التي تُوجب ازدهارَ الصُّنَاعَةِ وتُغْنِي الدُولَ وتُهْلِكُها، وسببُ هذا الخرابِ بسيطٌ إلى الغاية، وذلك أن من السهل أن يُرى وجوبُ كونِ الزراعة بطبيعتها أقلَّ كَسْبًا من جميع الصناعات، فيما أن حاصلها الزُّمُّ ما يكون استعمالاً لدى جميع الناس فإن ثمنها يجب أن يكون مناسباً لمقدرة أشدَّ الناس فقراً، ومن ذات المبدأ يمكن استخراجُ القاعدة القائلة إن الصناعات تكون رابحةً بنسبة نفعها المعكوس وإن ألزم الأشياء يُضْبِحُ أكثرها إهمالاً في نهاية الأمر، ومن ثم يُرى ما يجب أن يُفَكَّرَ فيه من الفوائد الحقيقية في الصُّنَاعَةِ ومن النتائج الصحيحة لتقدمها.

وتلك هي الأسبابُ المحسوسة للبؤس حيث اليُسْرُ يَدُورُ أكثر الأمم إثارةً للعجب في نهاية الأمر، وكلما اتسع مَدَى الصُّنَاعَةِ والفنون وازدهر، هجر الزارعُ المُرْدَرِي، المَثْقَلُ بالضرائب الضرورية لبقاء الترف والمحكوم عليه بقضاء حياته بين العمل والجوع، حقوقه ليَبْحَثَ في المدن عن الخبز الذي يجب أن يُجْمَلَه إليها، وكلما وَقَفَتْ رؤوسُ الأموال أَبْصَارَ الشعبِ الحَمَقَ عَجَبًا وجب أن يُؤَنَّ من رؤية الأرياف مهجورة والأَرْضِينَ بانرة والطُّرُقِ الكبيرة زاخرةً بالمواطنين التُّعَسَاءِ الذين أصبحوا سائلين أو سارقين مُعَدِّينَ لِحُثْمِ بؤسهم، ذات يوم، فوق الدَّمَنِ أو على المشائق، وهكذا فإن الدولة التي تَغْتَنِي من ناحية تَضَعُفُ وتُفْغِرُ من ناحية أخرى، وإن أقوى المَلَكِيَّاتِ تنتهي، بعد كثيرٍ من الأعمال التي تكون بها مُوسِرَةً مُقْفِرَةً، بأن تصبح فريسةً الأمم الفقيرة التي تُغْرَى بالاستيلاء عليها، والتي تَغْتَنِي وتَضَعُفُ بدورها حتى تستولى عليها وتُخْرِبُها دولٌ أخرى.

ولِيُتَفَضَّلَ بأن يُوضح لنا ذات مرةٍ من استطاع أن يُنتج هذه الجحافل من البرابرة الذين

غَمَرُوا أوروبة وآسية وإفريقية قرونًا كثيرة، فهل كانوا مَدِينِينَ بهذا العدد العجيب من الأهلين لتقدم صنائعهم أو حكمة قوانينهم أو كمال ضابطتهم؟ وَلَيْتَقَضَّلُ علماءنا بأن يُبَيِّنُوا لنا من غير تفصيلٍ ما السببُ في كون هؤلاء الأدميين الجفَاءة القساة العاطلين من المعارف والزاجر والتربية لا يتذابحون في كلِّ ساعةٍ تنازعًا حَوْلَ قُوَّتِهِمْ وصيْدِهِمْ، وليُوضِّحُوا لنا كيف أنه كان لدى هؤلاء البائسين من الإقدام ما يواجهون به وحدهم أناسًا بالغي المهارة كما كنا، أناسًا ذوى نظام عسكريٍّ رائعٍ ودساتيرٍ كثيرةٍ الإتقان وقوانينٍ شديدةٍ الإحكام، ثم لم لا يَرَى ظهورُ مثل هذه الجموع التي أنتجها الشمال فيما مضى، وذلك منذ كَمَلَّ المجتمع في بلاده وعانى كثيرًا في تعليم الناس واجباتهم المتقابلة وفنَّ العيش الرَّغيد الهادئ معًا، وأخشى أن يتصدى للجواب عن ذلك في آخر الأمر رجلٌ بقوله إن جميع هذه الأمور العظيمة، أى الفنون والعلوم والقوانين، قد اختُرِعَت من قِبَلِ الناس كوابٍ نافع لمنع زيادة النوع زيادة مُفْرِطَةً، وذلك خشيةً أن يصبح العالمُ المُعَدُّ لنا من الصُّغَر ما لا يستوعب معه سكَّانَهُ.

ثم ماذا؟ أيجب أن يُقضى على المجتمعات، وأن يُنْطَل مالى ومالك، وأن يُرْجَع إلى العيش مع الدَّيْبَةِ في الغابات؟ إن هذه نتيجةٌ لمنهاج خصومى الذين أودُّ أن أسبقهم قبل أن أدعَ لهم خِزْيَ استخراجها، وأنتم، أيها الذين لم يَسْمَعُوا صوتَ السماء قَطُّ، والذين لم يَعْرِفُوا النوعَ من الأغراض غيرَ قضاء هذه الحياة القصيرة في سَلام، والذين يستطيعون أن يتركوا وسط المدن مُكْتَسِبَاتِهِمْ ونفوسَهُم المضطربة وأفئدتَهُم الفاسدة ورغائبَهُم الجامحة، عُوذُوا، فعليكم يتوقف طُهُرُكم القديمُ الأول، واعتزلوا في الغاب لتغيب عنكم ذكرى جرائم معاصريكم ولا تَحْشَوْا انحطاط نوعكم بعدولكم عن معارفه وصولاً إلى العدول عن نقائصه، وأما الرجال الذين هم مثلى فأسفرت أهواؤهم عن ضياع البساطة الأصلية إلى الأبد فعادوا لا يستطيعون أن يَعْتَدُوا بالأعشاب والبُلُوط ولا أن يستغنوا عن القوانين والرؤساء، وأما أولئك الذين شُرَّفُوا في أبيهم الأول بدروسٍ خارقةٍ للعادة، وأما أولئك الذين يَرُونَ، في تصميم الأعمال البشرية خُلُقِيَّة ما كانت لتكتسبها قبل زمنٍ طويل، سببَ مبدأ خَلْقِيٍّ بذاته متعذرٍ إيضاحه في منهاجٍ آخر، وأما أولئك القانعون بأن الصوت الإلهى دعا جميع الجنس البشرى إلى العرفان وسعادة الإدراك

الساوتى، وأما جميعٌ أولئك، فإنهم يحاولون، بممارستهم الفضائل التي يحملون أنفسهم على تطبيقها بتعلمهم معرفتها، أن يستحقوا الثواب الأبدى الذي ينتظرونه عليها، فهم يحترمون روابط المجتمعات التي يُعدُّون من أعضائها، وهم يُحبُّون أمثالهم ويُخدمونهم بجميع قوتهم، وهم يطيعون القوانين وواضعيها والوزراء إطاعةً وثيقة، وهم، على الخصوص، يُجلُّون الأمراء الصالحين الحكماء الذين يعرفون كيف يُحوِّلون دون وقوع طائفةٍ من سوء الاستعمال والشروع التي تكون مُعدَّةً لإرهاقنا، أو كيف يشفون منها أو يُلطفونها، وهم يثيرون غيرةً هؤلاء الرؤساء الأكفيا بإطلاعهم غير خائفين ولا مُصانعين على عظمة عملهم وشدة واجبهم، بيد أنهم ليسوا أقلَّ ازدراءً لنظام لا يُمكن أن يبقى إلا بمساعدة أناس محترمين كثيرين يُرغب فيهم، غالبًا، أكثر من أن يُظفَّر بهم، لنظام تُصدُر عنه كلُّ يومٍ مصائب أكثر من الفوائد على الرغم من جميع الجهود.

(١٠)

الصفحة ٤٥: يُجَدُّ بين الناس الذين نعرفهم بأنفسنا، أو بواسطة المؤرخين، أو بواسطة السِّيَاح من هم سُودٌّ، ومن هم حُمْرٌ، وبعض هؤلاء الأدميين ذوو شَعْرٍ طويل، وليس لدى الآخرين غيرُ شَعْرٍ مُتَجَعَّد، وبعض هؤلاء الأدميين شَعْرٌ تقريبا، وليس لدى الآخرين حتى لِحْيٌ، وقد كان يوجد، ولا يزال يوجد على ما يحتمل، أممٌ مؤلفةٌ من أناس ذوي قَوَامِ جُسام، وإذا عَدَوَتْ قصة الأقسام التي قد تكون مبالغاً فيها عَلِمَتْ أن اللاهون، ولا سيما أهل غَرْوثلندة، ذوو قاماتٍ تُعَدُّ دون ما للإنسان المتوسط، حتى إنه يُزَعَمُ وجودُ شعوبٍ بأسرها ذاتِ أذنانٍ كذوات القوائم الأربع، وإنا، من غير أن نثق ثقة عمياء بِرِخلات هيرودُثس وِكْتِرياس، يمكننا أن نستنبط الرأى المحتمل كثيراً والقائل إنه إذ أمكن القيامُ بمشاهداتٍ صالحةٍ في تلك الأزمنة القديمة حين كان شَتَّى الشعوب تَتَّبِعُ طُرُقاً للحياة أكثرَ اختلافاً فيما بينها مما تُصَنِّعُ في الزمن الحاضر فإنه كان يلاحظ في الوجه وذيَدَنَ البدن من التنوع ما هو أَدْعَى إلى وَقْفِ النظر كثيراً، ولا يُمكنُ جميع هذه الوقائع، التي يسهل أن تُقدِّمَ عنها أدلة لا مِرَاءَ فيها، أن تُدهِشَ غير أولئك الذين تَعَوَّدوا ألا يَرَوْا غيرَ الأمور التي تحيط بهم، والذين يَجْهَلون النتائج القوية لاختلاف الأقاليم والهواء والأغذية وطراز العيش والعادات على العموم، ولا سيما القدرةُ المُخَيَّرَةُ لذات العِلَل عند تأثيرها الدائم في سلاسل طويلة من الأجيال، واليوم إذ تَجْمَعُ التجارة والرَّحلاتُ والفُتوح بين مختلف الشعوب أكثر من قبل، واليوم إذ تتداني طُرُقُ عيشها بلا انقطاع عن كثرة الاتصال، فإنه يُرى نقصُ بعض الفروق القومية، ومن ذلك أن كل واحد يستطيع، مثلاً، أن يلاحظ كونَ فَرَنْسِيَّ الوقت الحاضر عادوا لا يكونون أولئك البِيضُ والشُّقرُ الذين وصفهم مؤرخو اللاتين، وإن وَجِبَ أن يكون الزمانُ، المضافُ إلى اختلاط الفرنسيين والنُورمان البيض والشُّقر، قد استطاع أن يعيد ما قَدَّرَتْ على نَزْعِهِ معاشرَةُ الرومان من تأثير الإقليم ولون السكان، وتَحْمِلُنِي جميع هذه الملاحظات حَوْلَ ما يُمكنُ أَلْفَ عِلَةٍ أن تُجَدِّدَهُ، وأحدثَهُ، من الاختلافات في النوع البشري بالحقيقة على الشكِّ في كون الحيوانات المشابهة للأدميين من البهائم كما ذهب إليه السِّيَاح الذين لاحظوا من غير كثير تدقيق، أو رأوا، عما لاحظوه من بعض الفروق في التكوين الخارجي،

أو عن كون هذه الحيوانات لا تتكلم مطلقاً، أن هذه الحيوانات ليست، في الحقيقة، من وحوش الناس الذين تفرّق عرقهم في الغابات قديماً فلم تُنخ له فُرصةً لإنهاء أية واحدة من ملكاته الكامنة ولم ينل أية درجة من الكمال، ولم يزل في الحال الأولى من الطبيعة، ولأقدم مثلاً على ما أقول.

قال مترجم «تاريخ الرحلات»: «يوجد في مملكة الكونغو عددٌ من تلك الحيوانات الكبرى التي تُدعى الأرنغ أوتان في الهند الشرقية وتعدُّ متوسطةً بين النوع البشري والقرود الكلبية، ويروى بإتل أنه يرى في غابات مايونبا بمملكة لوانغو نوعان من الغيلان يُسمّى أكبرهما بونغو ويُسمّى الآخر أنجوكو، ويوجد شبه تام بين الأول والإنسان، ولكنه أكثر منه ضخامةً وأعلى منه قامته، وله وجه إنسان وعينان غائستان، وله يدان وخطان وأذنان بلا شعر، وذلك على خلاف حاجبيه ذوي الشعر الطويل كثيراً، وهو مع كون بقية بدنه ذات شعر كافٍ لم يكن شعره هذا كثيفاً جداً، بل هو أسمر، ثم إن القسم الوحيد الذي يميّزه من الناس هو ساقه العاطلة من الرَبلة، وهو يمشى مستقيماً ممسكاً شعر الرقبة باليد، وفي الغاب عزلته، وهو ينام على الشجر حيث يتخذ نوعاً من السقف يقية المطر، ويقوم طعامه على الفواكه أو الجوز البري، وهو لا يأكل اللحم مطلقاً، ومن عادة الزوج الذين يجوبون الغاب أن يوقدوا ناراً في الليل، وهم يلاحظون أن البونغو يأخذ مكانهم حول الناس في الصباح، وهو لا ينصرف ما لم تنطفئ، وذلك لأنه مع كثير مهارة ليس من الإدراك الكافي ما يديهما معه بأن يجلب حطباً إليها.

«وهو يسير زمراً أحياناً فيقتل الزوج الذين يجوبون الغاب، وهو يتنقّض حتى على القبلة التي تأتي للرعى في الأماكن التي يسكنها، وهو يبلغ من إزاعها بصربات الكف أو العصا ما يُكرهها معه على الفرار مع صوت، وما كان البونغو ليؤخذ حياً مطلقاً، وذلك لأنه من القوة الكبيرة ما لا يستطيع معه عشرة رجال أن يقفوه، غير أن الزوج يأخذون عدداً من صغاره بعد أن يقتلوا أمها التي يُلصق الصغيرُ بجسمها بشدة، وإذا مات أحد هذه الحيوانات سترت الأخرى بدنه بكُدسٍ من الغصون أو الأوراق، وإلى هذا يُضيفُ بوزشاس أنه علم من الكلام الذي دار بينه وبين باتل كون البونغو قد حطّف زنجياً صغيراً فقضى هذا الزنجي شهراً كاملاً

في مجتمع هذه الحيوانات، وذلك لأنها لا تؤذى الناس الذين تفاجئهم، ما لم ينظروا إليها كما كان الزنجي الصغير قد لاحظته، ولم يَصِفْ باتُّل النوع الثاني من الغيلان.

ويقول دايه مُؤكِّداً: إن مملكة الكونغو زاخرة بهذه الحيوانات التي يُطلق عليها في الهند اسم الأرنغ أوتان، أي سكان الغاب، والتي يسميها الإفريقيون كوجا موزو، ومن قوله: إن هذا الحيوان هو من سِدَّة الشَّبه بالإنسان ما ألقى معه في روع بعض السَّيَّاح إمكان ولادته من امرأة وقرد، أي وهم يذخضه حتى الزنوج، وقد نُقِلَ أحد هذه الحيوانات من الكونغو إلى هولندا وقُدِّم إلى أمير أورنج، فردريك هنري، وقد كان له طولٌ ولِد في الثالثة من سِنه، ويسمَّن متوسط، ولكن مع تربيته وحسن تناسب، وقد كان سريعاً نشيطاً جداً، ذا سيقانٍ مكتنزة قوية، وذا مُقَدِّم عارٍ جميعه، وذا مؤخرٍ مستورٍ بشعرٍ أسود، وكان وجهه يشابه وجه الإنسان عند أول نظرة، ولكن مع أنفٍ أفتسٍ أو أحجن، وكانت أذناه كأذنَى النوع البشري، وكان تَدْيُه ضخماً، لأنه أنثى، وكانت سُرَّتُه غائرة، وكانت كَيْفاه حسّتى الاتصال، وكانت يدها مقسومتين إلى أصابعٍ وأبَاهِم، وكانت رِبلتاه وعقباه سميتين لِحَيْمَتَيْن، وكان يَمْشِي في الغالب على ساقيه مستقيماً، وكان قادراً على حَمَلٍ أثقالٍ وزينة، وكان إذا ما أراد الشرب أمسك غِطاءَ الإنسان بيدٍ وأمسك أسفله بيدٍ أخرى، ثم أخذ يُنْشِفُ شفّيته بلطف، وكان يَضْطْجِع لِنَامٍ فيضَعُ رأسه على وسادةٍ ويتَغَطَّى بمهارة يُظَنُّ معها أنه إنسان، ويَرَوِي الزنوج قِصَصاً غريبة عن هذا الحيوان، فيقولون مُوكِّدين إنه يَجْرُؤُ على مهاجمة رجالٍ مسلحين فضلاً عن أنه يغتصب النساء والبنات، والخلاصة أن الظاهر يدلُّ على أن هذا هو عُول القدماء، ومن المحتمل أن مِرْوَلًا لا يتكلم عن غير هذه الحيوانات عندما يَحْكِي عن استعانة الزنوج في صَيْدِهِم، أحياناً، برجالٍ ونساء متوحشين.

وكذلك قد حُدِّث عن تلك الأنواع الحيوانية المشابهة للإنسان في الجزء الثالث من «تاريخ الرِّحلات» ذلك باسم بيغو ومندريل، ولكننا إذا ما رَجَعْنَا البَصَرَ إلى كتب الرحلة السابقة وجدنا في وصف أولئك الغيلان المزعومين مطابقاتٍ مع النوع البشري تَقِفُ النظر، وفروقاً أقل من التي يُمكن تقديرها بين إنسان وإنسان، ولا يُرى في تلك العبارات مطلقاً ما يستند إليه المؤلفون من الأسباب في رفضهم إطلاق اسمٍ وحوش الناس على تلك الحيوانات، ولكنه

يَسْهُلُ أَنْ يُظَنَّ قِيَامَ ذَلِكَ عَلَى غِبَاوتِهَا وَعَلَى عَدَمِ كَلَامِهَا، أَى عَلَى أَسْبَابِ ضَعِيفَةِ لَدَى مَنْ يَغْرِفُونَ أَنَّ الْكَلَامَ نَفْسَهُ غَيْرُ طَبِيعِيٍّ فِي الْإِنْسَانِ وَإِنْ كَانَ عَضْوُ الْكَلَامِ طَبِيعِيًّا عِنْدَهُ، وَلَدَى مَنْ يَعْلَمُونَ مَقْدَارَ مَا يُمَكِّنُ الْإِنْسَانَ الْمَدْنِيَّ أَنْ يُرْفَعَ بِكَمَالِ الْكَلَامِ إِلَى مَا فَوْقَ حَالِهِ الْأَصْلِيِّ، وَيُمْكِنُ أَنْ تَجْعَلْنَا الْأَسْطُرَّ الْقَلِيلَةَ، الَّتِي تَحْتَوِيهَا هَذِهِ الْأَوْصَافُ، نَحْكُمُ فِي دَرَجَةِ سُوءِ مَا لَوْ حِظَّتْ بِهِ هَذِهِ الْحَيَوَانَاتُ وَفِي مَقْدَارِ الْمُبْتَسَّرَاتِ الَّتِي تُظَرِّبُ بِهَا إِلَيْهَا، وَمَنْ ذَلِكَ أَنْ وَصِفَتْ بِالْفِيلَانِ مَثَلًا، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّهُ يُعْتَرَفُ بِوِلَادَتِهَا، وَفِي مَكَانٍ يَقُولُ بِأَثَلٍ إِنَّ الْهُونُغُو يَقْتُلُ الزُّنُوجَ الَّذِينَ يُحِبُّونَ الْغَابَاتِ، وَفِي مَكَانٍ آخَرَ يُضَيِّفُ هُوزْشَاسُ إِلَى ذَلِكَ قَوْلَهُ إِنَّهُ لَا يُصَيِّبُهُمْ بِأَى سُوءٍ، حَتَّى عِنْدَ الْمَفَاجَأَةِ، وَذَلِكَ مَا لَمْ يُعْتَوَّأَ بِالنَّظَرِ إِلَيْهِ، وَيَتَجَمَّعُ الْهُونُغُو حَوْلَ النَّيْرَانِ الَّتِي يُوقِدُهَا الزُّنُوجُ عِنْدَمَا يَنْصَرِفُ هُزْلَاءً، وَيَنْصَرِفُ الْهُونُغُو بِدَوْرِهِ عِنْدَ انْقِطَاعِ النَّارِ، وَذَلِكَ هُوَ الْوَاقِعُ، وَالْآنَ إِلَيْكَ تَفْسِيرَ الْبَاحِثِ، «وَذَلِكَ لِأَنَّهُ مَعَ كَثِيرِ مَهَارَةِ لَيْسَ مِنَ الْإِدْرَاكِ الْكَافِي مَا يُدِيمُهَا مَعَهُ بِأَنَّهُ يَجْتَلِبُ حَطْبًا إِلَيْهَا»، وَأَوْدُّ لَوْ أَعْلَمَ كَيْفَ أُمَكَّنَ بِأَثَلٍ، أَوْ جَامِعَهُ هُوزْشَاسُ، أَنْ يَغْرِفَ أَنْ انْصَرَفَ الْهُونُغُو كَانَ نَتِيجَةَ لَغَاوَتِهِ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يَكُونَ نَتِيجَةَ لِإِرَادَتِهِ، وَلَيْسَتْ النَّارُ فِي إِقْلِيمِ كَاللُّوَانُغُو شَيْئًا ضَرُورِيًّا لِلْحَيَوَانَاتِ، وَإِذَا كَانَ الزُّنُوجُ يُوقِدُونَهَا فَذَلِكَ لِتَخْوِيفِ الضُّوَارِي أَكْثَرَ مِمَّا لِلتَّدْفِئَةِ، وَلِذَلِكَ فَإِنْ مِنَ الْأُمُورِ الْبَسِيطَةِ جِدًّا أَنْ يَسْأَمَ الْهُونُغُو، بَعْدَ طَرَبٍ حَوْلَ اللَّهَبِ أَوْ بَعْدَ أَنْ يَذْفَأَ، مِنَ الْبَقَاءِ فِي عَيْنِ الْمَكَانِ دَائِمًا، وَأَنْ يَنْصَرِفَ سَعِيًّا وَرَاءَ الْقُوْتِ الَّتِي يَتَطَلَّبُ مِنَ الْوَقْتِ أَكْثَرَ مِمَّا يَتَطَلَّبُ أَكْلَ اللَّحْمِ، ثُمَّ إِنَّ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْحَيَوَانَاتِ، وَمِنْهَا الْإِنْسَانَ، كَسَلَى بِطَبِيعَتِهَا، فَتَأْبَى كُلَّ مَا لَيْسَ مِنَ الضَّرُورَاتِ الْمَطْلُوقَةِ، ثُمَّ إِنَّ مِنَ الْغَرِيبِ جِدًّا، كَمَا يَظْهَرُ، أَلَّا يَغْرِفَ الْهُونُغُو دَفْعَ حَطْبٍ إِلَى النَّارِ، وَهُوَ الَّذِي يُمْتَدِّحُ جِذْقَهُ وَقُوْتَهُ، وَهُوَ الَّذِي يَعْلَمُ دَفْنَ مَوْتَاهُ وَصُنْعَ سُقُوفٍ مِنْ عُصُونِهَا، وَأَذْكَرُ أَنَّي رَأَيْتُ قَرْدًا يَقُومُ بِذَاتِ الْحَرَكَةِ الَّتِي يُنْكِرُ صَدُورُهَا عَنِ الْهُونُغُو، وَبِهَا أَنَّ أَفْكَارِي لَمْ تُوجَّهْ مِنْ هَذِهِ النَّاحِيَةِ فِي ذَلِكَ الْحِينِ فَإِنِّي أَتَيْتُ عَيْنَ الْخَطَا الَّذِي أَلُومُ عَلَيْهِ سُبْحَانَ وَأَهْمَلْتُ الْبَحْثَ فِي هَلْ كَانَ مَقْصِدُ الْقَرْدِ إِبْقَاءَ النَّارِ فِي الْحَقِيقَةِ أَوْ تَقْلِيدَ عَمَلِ الْإِنْسَانِ كَمَا أَعْتَقِدُ، وَمَهْمَا يَكُنْ مِنْ أَمْرِ فَإِنَّ الَّذِي أَحْسَنَ بَيَانَهُ هُوَ كَوْنُ الْقَرْدِ لَيْسَ مِنْ جِنْسِ الْإِنْسَانِ، لِأَنَّهُ مَحْرُومٌ خَاصِيَّةً

الكلام فقط، بل لعطل نوعه من خاصية التكامل التي هي صفة النوع البشري الفارقة أيضاً، أى القيام بتجربة لم تتم حَوْلَ الْهُونُغُو والأورَنْغ أوتان بدقة تكفى لاستخراج عين النتيجة، وقد يذهب أصفقُ الباحثين إلى أن الأورَنْغ أوتان وغيره كانا من النوع البشري مُدْلِينِ بِدَلِيلٍ أَيْضًا، ولكن يجب أن تُعَدَّ هذه التجربة متعذرةً، فضلاً عن عدم كفاية جيلٍ واحد للقيام بها، وذلك لما يجب من إثبات ما ليس سوى افتراضٍ أنه حقيقى، وذلك قبل أن يحاول بسلامة طَوِيَّةِ أَمْرٍ التجربة التي يجب أن يُؤَكِّدَها الواقع.

وعن شَطَطِ تَصُدُّرِ الأَحْكَامِ العاجلة التي ليست ثمرة العقل المُنَوَّرِ، وعن سذاجةٍ يَجْعَلُ سَيَّاحُنَا من البهائم، مسماةً بأسماء الْهُونُغُو والمَنْدَرِيل والأورَنْغ أوتان، ما كان القدماءُ يَجْعَلُونَهَا من الآلهة مسماةً بأسماء سَاتُورُس^(١) وفُونُوس^(٢) وسِلْفِين^(٣)، ومن المحتمل أن يُرى، بعد مباحث أكثر دقة، كون هؤلاء من الأدميين، لا من البهائم، ولا من الآلهة، ويظَهَرُ لِي، إلى أن يَقَعَ ذلك، أن هنالك من الأسباب ما يُرْجَعُ به الأمرُ، فوق ذلك، إلى الراهب الأديب والشاهد العياني ميرولاً الذى لم يَدْعُ، مع كامل بساطته، أن يكون من رجال الذهن غيرُ التاجر بآثُلٍ ودرأه وبُورُشَاس وغيرهم من الجامعين.

وأى حكم يأتيه مثل هؤلاء الباحثين حَوْلَ الولد الذى وُجِدَ سنة ١٦٩٤ وتكلمتُ عنه آنفاً، والذى لم يَظْهَرُ عليه أى دليلٍ على العقل فكان يمشى على رجليه ويديه ويُجْرَجُ من الأصوات ما لا يشابه أصوات الإنسان؟ قال مُدَاوِمًا ذلك الفيلسوفُ الذى أَمَدَّنِي بذلك الأمر الواقع: «مضى زمنٌ طويلٌ قبل أن يستطيع النطقَ ببعض الألفاظ، وهو قد فعل هذا على نَمَطِ هَمَجِي، وهو لم يَكْذِبْ قَدِيرٌ على الكلام حتى سُئِلَ عن حاله الأولى، ولكنه لم يَذْكَرْ عنها شيئاً أكثر مما نَذْكَرُ عما حَدَثَ لنا في المهده، ولو كان هذا الولدُ سَمِيَّ الحظِّ فَوَقَعَ في أيدي سَيَّاحِنَا لم يُشَكَّ في أن هؤلاء كانوا، بعد ملاحظة صمته وغبوته، يذهبون إلى رَدِّه إلى الغاب أو حَبْسِه في حَوْش

(١) شخص نصفه الأعلى بشر والأسفل ما عزم كما جاء في الأساطير.

(٢) من الآلهة الريفية كما جاء في الأساطير.

(٣) إله الغاب والحقول كما جاء في الأساطير.

الوحوش، ثم كانوا يتكلمون عنه تكلم العارف في كتبٍ للسباحة رائعة، وذلك كما يتكلمون عن حيوانٍ ذى فُضُولٍ مشابهٍ للإنسان بعض الشبه.

وأعتقد أننا، منذ ثلاثة قرون أو أربعة قرون، أى منذ مدةٍ يَغْمُرُ الأوربيون فيها أقسامَ العالم الأخرى وَيَنْشُرُونَ بلا انقطاع مجموعاتٍ جديدةٍ في الرِّحلات، لا نَعْرِفُ أَناسًا غيرَ الأوربيين، وكذلك يَظْهَرُ من المُبَسَّرات المضحكة التي لم تنطفيء قط، حتى بين رجال الأدب، أن كل واحد لا يَضْنَعُ، تحت اسم دراسة الإنسان الفخْم، غيرَ دراسة أهل بلده، ويُعَدُّ من العبث ذهابُ الأفراد وإيائهم، ويظهر أن الفلسفة لا تَسِيحُ مطلقًا، وكذلك لا تَصْلُحُ فلسفةُ شعبٍ لشعبٍ آخرٍ إلا قليلاً، وسببُ هذا واضحٌ بالنسبة إلى البقاع القاصية على الأقل، وذلك أنه لا يوجد غيرُ أربعة أنواعٍ، فقط، للأدميين الذين يقومون برحلات طويلة، وهم: الملاحون والتجار والجنود والمبشرون، والواقع أنه لا ينبغي أن يُنتَظَرُ كونُ الفرُقَاء الثلاثة الأولى من الباحثين الصالحين، وأما الفريقُ الرابعُ المُتَفَرِّغُ للإلهام الرفيع الذي يدعُوهم، عندما لا يكون محلاً لمزاعم الحال كجميع الأخرى، فإنه لا ينبغي أن يُعْتَقَدَ أنه لا يقوم مختاراً بمباحث تُعَدُّ من الفُضُولِ المحض كما يَظْهَرُ، وتحوُّله عما أعدَّ له من أعمالٍ أكثر أهمية، ثم إنه لا يَلْزَمُ غيرَ الغيرة للتبشير بالإنجيل تبشيراً مُجْدِيًّا، والربُّ يُنْعِمُ بالبقية، ولكن دراسة الناس تستلزم مواهبَ لا يتكفل الربُّ بإعطاء أحدٍ إيها، وهي ليست من نصيب القديسين في كل حين، ولا يُفْتَحُ كتابُ رِحلاتٍ من غير أن يُطَّلَعَ فيه على وصفٍ للأخلاق والطباع، بيد أن من دواعي الحيرة أن يُرى فيه كونُ هؤلاء الناس الذين كُثِرَ وصفُهم للأمر لم يقولوا غيرَ ما كان يَعْرِفُه كلُّ واحدٍ سابقًا، ولم يُبْصِرُوا في الطرف الآخر من العالم غيرَ ما يَبْصُرُونَهُ ملاحظته من غير أن يَخْرُجُوا من شارعهم، فهذه الخطوط الحقيقية التي تَمَيِّزُ بعضَ الأمم من بعض، والتي تُوجِّهُ العيون التي صُنِعَتْ لَتَرَى، قد غابت عن عيونهم، ومن ثمَّ جاء المثلُ الخُلُقِيُّ الجميل الذي كَثُرَ تكراره في السيمياء، وهو «إن الناس أكفأ في كلِّ مكان»، فبما أن الناس ذوو أهواءٍ واحدةٍ وعيوبٍ واحدةٍ في كلِّ مكان فإن من غير المفيد بها فيه الكفاية أن يَحَاوَلَ وصفُ مختلف الشعوب، وهذا يَعْدِلُ تقريبًا إقامة الدليل على كون بطرس لا يمتاز من يعقوب لأن لكل واحدٍ منهما أنفًا وقمًا وعينين.

الأيرى، مطلقاً، بعثت تلك الأزمنة السعيدة التي لم تتفلسف الشعوب فيها قط، والتي كان يساور أفلاطون وثاليس وفياتاغورس فيها ولع شديد بالمعرفة فيقومون بأعظم السياحات للثقافة فقط، ويضربون في الأرض لإلقاء نير المبتسرات القومية عنهم، وليتعلموا معرفة الناس بمطابقتهم واختلافاتهم، ولينالوا هذه المعارف العامة غير الخاصة بزمن أو ببلد حضراً، فعدت علماً شائعاً بين الحكماء؟

أجل، يُعجب بسخاء بعض محبي الاطلاع الذين قاموا، أو حملوا على القيام، عن سعة، برحلات في الشرق، وذلك مع علماء ومصورين لرسم قياسات أو فك كتابات أو نسخها، غير أنني لا أكاد أتصور، في قرن يباهى فيه بالمعارف الرائعة، عدم وجود رجلين متحدثين غنى أحدهما بالمال والآخر بالنبوغ، مجبئين للمجد، راغبين في الخلود، فينفق أحدهما عشرين ألف دينار من ماله وينفق الآخر عشر سنين من عمره، للقيام برحلة ذائعة الصيت حول الأرض ليُدرس الناس والطبائع فيها مرة، لا الحجارة والنبات دائماً، وليرى معرفة سكان المنزل بعد أن قضيت عدة قرون في قياسه وتأمله.

وكان رجال الأكاديمية الذين جابوا أجزاء أوربة الشمالية وأجزاء أمريكا الجنوبية يهتدون إلى زيارتها كمهندسين أكثر منهم فلاسفة، وبما أنهم، مع ذلك، كانوا جامعين للصفتين معاً فإنه لا يُمكن أن يُعدَّ مجهولاً تماماً ما كان قد شاهده ووصفه أمثال لا كوندامين وموپرتوى، ولم يدع الصانع شاردان، الذي ساح كأفلاطون، شيئاً يقال عن فارس، ويظهر أن الصين قد دُرست جيداً من قبل اليسوعيين، وأبدى كينيفر فكرة سائغة عن الشيء القليل الذي رآه في اليابان، ولا نعرف، بجانب هذه الرحلات، شعوب الهند الشرقية التي يقصدها أوربيون أحرص على ملء جيوبهم مما على ملء رؤوسهم، ولا يزال جميع إفريقية وأهلها الكثيرين المثيري العجب بأخلاقهم ولونهم يتطلب دراسة، وترى جميع الأرض زاخراً بأمم لا نعرف غير أسماؤها، ثم ترانا نتصدي للحكم في الجنس البشري! ولنفترض أن رجلاً مثل مونتسيكو أو بوفون أو ديدرو أو دوكلو أو دالنيير أو كوندياك أو أناساً من هذه الجيلة قد ساحوا الثقيف أبناء وطنهم فوصفوا، بعد تدقيق كما يعرفون أن يفعلوا، تركيا ومصر والمغرب وسلطنة مراكش وغينية

وبلاذ الكفرة وداخل إفريقيا وسواحلها الشرقية والملبار ومغولية وضاف الغنج ومالك سيام وبيغو وجاوة والصين وبلاذ التتر، ولاسيما اليابان، ووصفوا في النصف الثاني من الكفرة الأرضية بلاذ المكسيك والبيرو والشيلي والأراضي الملاجلانية، وذلك من غير نسيان البتاغون الحقيقيين أو الزائفين، والتوكومان والبراغواي، إذا أمكن، والبرازيل، ثم الكرايب، وفلوريدا، وجميع البقاع الوحشية، أى قاموا بسياحة أهم من الجميع، بسياحة يجب أن تتم بأعظم عناية، ولنفترض أن أولئك الجبابرة وضعوا، على مهل، وبعد الرجوع من تلك الأسفار التى تستحق الذكر، تاريخاً طبيعياً وأديبياً وسياسياً عما يكونون قد شاهدوه، فإننا نرى بأنفسنا ظهور عالم جديد من تحت أقدامهم فتتلم معرفة عالمنا على هذا الوجه، أى إننى أقول إن مثل هؤلاء الباحثين إذا ما قالوا عن حيوان إنه إنسان وعن آخر إنه بهيم وجب تصديقهم فى ذلك، ولكن من البساطة العظيمة أن يركزن فوق ذلك إلى سائحين غلاظ يحاول أن يلقى حوهم، أحياناً، عين السؤال الذى يذهبون إلى حله بحيوانات أخرى.

(١١)

الصفحة ٤٥: يَظْهَرُ لِي هَذَا مِنَ الْوُضُوحِ بِمَكَانٍ، فَلَا أَقْدِرُ أَنْ أَنْصُورَ الْمَصْدَرَ الَّذِي يَسْتَطِيعُ فَلَا سَفْتَنَا أَنْ يَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ جَمِيعَ مَا يَعْزُونَهِ إِلَى الْإِنْسَانِ الطَّبِيعِيِّ مِنَ الْأَهْوَاءِ، وَإِذَا عَدَوْتَ الضَّرُورَةَ الْبَدَنِيَّةَ الْوَحِيدَةَ الَّتِي تَقْتَضِيهَا الطَّبِيعَةُ نَفْسُهَا وَجَدْتَ جَمِيعَ احْتِيَاجَاتِنَا الْآخَرَى لَيْسَتْ كَمَا هِيَ بِالْعَادَةِ، أَوْ بَرِغَائِبِنَا، الَّتِي لَمْ تَكُنْ قَبْلَهَا مِنَ الْاحْتِيَاجَاتِ قَطُّ، فَلَا يُرْغَبُ فِيهَا لَا يُعْرَفُ مَطْلَقًا، وَمَنْ ثَمَّ يَرَى أَنَّ الْإِنْسَانَ الْوَحْشِيَّ، إِذْ لَمْ يَرْغَبْ فِي غَيْرِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي يَعْرِفُهَا، وَإِذْ لَمْ يَعْرِفْ غَيْرَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي تَقَعُ حَيَازَتُهَا ضِمْنَ مَقْدَرَتِهِ، أَوْ يَسْهَلُ عَلَيْهِ أَنْ يَنَالَهَا، لَا يَكُونُ مَا هُوَ أَهْدَأُ مِنْ رُوحِهِ وَلَا مَا هُوَ أَقْصَرُ مِنْ نَفْسِهِ.

(١٢)

الصفحة ٤٨: أجد في «الحكومة المدنية» لـ «لوك» اعتراضاً يبدو لي أنه ظاهر الحق فلا ينبغي لي كتمه، قال هذا الفيلسوف: «بما أن الولادة لم تكن وحدها غاية العشرة بين الذكر والأنثى، بل تهدف هذه العشرة إلى دوام النوع، فإن من الواجب أن تدوم هذه العشرة حتى بعد الولادة، وذلك، على الأقل، للمدة التي يقتضيها غذاء المواليد وبقاؤهم، أي إلى حين قدرتهم على قضاء حاجاتهم بأنفسهم، ونرى أن المخلوقات التي هي دون الإنسان تراعى بدقة واستمرار هذه القاعدة التي اقتضتها حكمة الخالق البالغة حول ما صنع، ولا تدوم العشرة بين الذكر والأنثى في هذه الحيوانات التي تعيش من العشب لمدة أطول من عمل العاطفة، وذلك لأن تئدي الأم إذ كانت كافية لتغذية الصغار حتى الحين الذي تستطيع أن ترعى الكلاً فيه فإن الذكر يكتبى بالإلقاح، ولا يتعرض بعد ذلك للأنثى ولا للصغار التي لا يستطيع أن يساعد على تغذيتها، ولكن العشرة بين الحيوانات المفترسة تدوم مدة أطول من تلك، وذلك لأن الأم إذ كانت لا تستطيع أن تقوم بطعامها الخاص وأن تغذي في الوقت نفسه صغارها بما تفرس، أي أن تسلك طريقاً للاغتذاء أكثر عُسرًا وأعظم خطرًا مما يتطلبه الاغتذاء بالكلاً، فإن مساعدة الذكر ضرورية جدًا لحفظ أسرتهما المشتركة إذا جاز لي استعمال هذا التعبير، أي إنها لا تقدر على البقاء بغير عناية الذكر والأنثى حتى تصبح قادرة على البحث عن فريسة، ويلاحظ الشيء عينه في جميع الدواجن التي توجد في أماكن يستغنى الذكر فيها عن العناية بتغذية الصغار لما تشتمل عليه من قبض دائم في الغذاء، ومما يري أن الصغار، بينما تكون محتاجة إلى القوت في وكبرها، يأتي الذكر والأنثى إليها به حتى تصير قادرة على الطيران وعلى تئيل ما تغذي به.

«وعندي أن المهمم يقوم على هذا، وذلك ما لم يكن هذا هو السبب الوحيد في أن الذكر والأنثى في الجنس البشري ملزمان بعشرة أطول مما تقوم به المخلوقات الأخرى، ويتجلى هذا السبب في قدرة المرأة على الحمل، وفي كونها تصبح حُبلى وتضع ولدًا قبل زمنٍ طويل من الوقت الذي يُمكن الولد السابق أن يستغنى فيه عن مساعدة أبويه فيستطيع أن يقضى حاجاته بنفسه،

وهكذا فإن الأب إذ كان مُلْزَمًا بالعناية بمن أوجب ولادتهم لزمنٍ طويل فإنه ملزَمٌ أيضًا بإدامة العيش في عِشْرَةٍ زوجية مع ذات المرأة التي وُلِدُوا له منها، وبأن يبقى ضمن هذه العِشْرَةِ مدةً أطولَ من عِشْرَةِ المخلوقات الأخرى التي تستطيع صغارها أن تقوم بمعاش نفسها قبل حلول الزمن الذي تَقَعُ فيه ولادةٌ جديدة، فَتُقَطَعُ الصلةُ بين الذكر والأنثى من تلقاء نفسها في أثناء ذلك، ويصبح كلُّ من الجنسين في جِلٍّ من الآخر حتى الفصل الذي تقضى عادته باقتران الحيوانات فيُلْزِمها بأن تختار لنفسها زوجاتٍ جديدةً، وهنا لا يُعْجَبُ كافيًا بحكمة الخالق التي أنعمت على الإنسان بصفاتٍ خاصة يُدْبَرُ فيها المستقبل كما يُدْبَرُ الحاضر فقضت بأن تدوم عِشْرَةُ الإنسان مدةً أطولَ كثيرًا مما تدوم فيه عِشْرَةُ الذكر والأنثى بين المخلوقات الأخرى، وذلك لكي تكون حيلةُ الرجل والمرأة أكثرَ تَفْتُّحًا ومصالحهما أكثرَ انحدادًا، وذلك وصولاً إلى نَيْلِ زادٍ لأولادهما وترك مالٍ لهما، فلا شيء يكون أكثرَ ضرًّا بالأولاد من قرانٍ مبهمٍ غير ثابتٍ أو من حَلِّ سَهْلٍ سريعٍ للعِشْرَةِ الزوجية.

ويَدْفَعُنِي حُبِّي للحقيقة، الذي جَعَلَنِي أُعْرِضُ هذا الاعتراض بإخلاصٍ، إلى إضافة بعض الملاحظات إليه لإيضاحه على الأقل، إن لم يكن لحلّه.

١- ألاحظ قبل كل شيء أنه ليس للأدلة الأدبية قوةٌ كبيرة في موضوع الطبيعة، وهي أنفعُ لبيان سبب الوقائع القائمة مما لَتَبَيَّنُ وجود هذه الوقائع الحقيقي، والواقع أن هذا هو جنس الدليل الذي اتخذته مستر لوك في العبارة التي نقلتها، وذلك أنه مهما يكن دوامُ قران الرجل والمرأة نافعًا للجنس البشري فلا يدلُّ هذا على كونه قد تَمَّ هكذا بفعل الطبيعة، وإلا لوجب أن يقال إن الطبيعة أقامت المجتمع المدنيَّ والفنونَ والتجارةَ وكلَّ ما يُزَعَمُ أنه مفيد للناس.

٢- أجهل المكان الذي وَجَدَ فيه مستر لوك أن عِشْرَةَ الذكر والأنثى بين الحيوانات المفترسة أكثرُ دوامًا مما بين التي تعيش من العشب، وكونَ أحدهما يساعد الآخر على تغذية الصغار، وذلك لأنه لا يُرَى أن الكلب والهَرَّ والدَّبَّ والدُّبَّ أحسنُ معرفةً لأنثاهما من معرفة الحصان والكَبْشِ والثَّورِ والوَعَلِ وغيره من ذوات القوائم الأربع لأنثاه، وعلى العكس يلوح أن مساعدة الذكر إذا كانت ضروريةً للأنثى حِفْظًا لصغارها كان هذا، على الخصوص، في الأنواع التي لا

تعيش إلا من العشب، وذلك لأن الأم تحتاج إلى وقت طويل جدًا للزغى، ولأنها مكرهة على إهمال إنتاجها في جميع هذه الفاصلة، وذلك بدلاً من أن تلتهم فريسة الذبّة أو الذبّة في دقيقة واحدة، فيكون عندها من الوقت ما ترضع فيه صغارها، ويؤيد هذا الاستدلال بما يشاهد من عدد الثديى والصغار النسبى الذى يميز الجوارح من آكلة النبات فتكلمت عنه في التعليق الثامن، وإذا كانت هذه المشاهدة صحيحة عامة، ولم يكن للمرأة غير ثدين، ولم تضع غير ولد دفعة واحدة، كان هذا سبباً قوياً مضافاً إلى ما تقدم للشك في أن النوع البشرى من الجوارح عن طبيعة، فيجب أن يرجع إلى استدلال لوك لاستخراج النتيجة التى انتهى إليها، ولا نجد ما هو أمثل من ذات التمييز الذى يطبق على الطيور، فمن ذا الذى يمكنه أن يقنع نفسه بأن قران الذكر والأنثى بين العقبان والغزبان أكثر دواماً مما بين القمارى؟ ولدينا من الطيور الأهلية نوعان: البط والحمام اللذان يزودانا بأمثلة مناقضة لمنهاج المؤلف رأساً، فالحمام الذى لا يعيش إلا من الحب يظل منضماً إلى أنثاه فيغذيان صغارهما بالاشتراك، ولا يعرف البط، الذى يعلم نهمه، أنثاه ولا صغاره وهو لا يساعد على غذائها مطلقاً، ولا يرى بين الدجاج، الذى هو نوع ليس أقل ضراً مطلقاً، أن الديك يبالي بالرخم، وإذا كان الذكر فى الأنواع الأخرى يشاطر الأنثى أمر العناية بتغذية الصغار فذلك لأن الطيور التى لا تستطيع الطيران فى البداءة ولا تستطيع أمها أن ترضعها أقل استغناء عن مساعدة الأب من ذوات القوائم الأربع التى يكفيها ثدى أمها بعض الزمن على الأقل.

٣- يوجد شك حول الأمر الرئيس الذى يصلح أساساً لجميع استدلال مستر لوك، وذلك لأنه إذا أريد أن يعرف أن المرأة فى الحال الطبيعية الصرفة هى، كما يزعم، أن تكون حبلية ثانية، وأن تضع ولداً قبل أن يستطيع الولد السابق أن يقوم بحاجات نفسه، وجب وقوع تجارب لم يقم بها مستر لوك ولم ينته إليها أحد لا ريب، وإن سكنى الزوج والمرأة فى منزل واحد فرصة تذبذب من حدوث حبل جديد، فيضعب أن يعتقد أن اللقاء العارض، أو اندفاع المزاج، يسفر عن نتائج كثيرة الوقوع فى الحال الطبيعية الصرفة كما تسفر عنه العشرة الزوجية، ومن المحتمل أن يساعد هذا البطوء على جعل الأولاد أكثر قوة، وأن يعوض منه، مع ذلك، بخاصية الحمل

التي تكون أكثر دواما في عمر النساء اللاتي لم يُسِنَّ استعمالها في شبابهن، وأما من حيث الأولاد فيوجد من الأسباب ما يتحمل على الاعتقاد بأن قواهم وأعضاءهم تنمو بيننا في وقت متأخر عن زمن نموها في الحال الابتدائية التي أتكلم عنها، وما هو واقع من ضعف أصل يتقل إليهم من بنية الأبوين، وما يؤتى من عناية في ستر جميع الأعضاء ومضايقتها، وما يُنشأون فيه من ترف، وما يرضعونه من لبن غير لبن أمهم على ما يحتمل، أمور تباين تقدم الطبيعة فيهم وتعوقه، وما يكون من تطبيق يلزمون به على ألف شيء يوجه إليه انتباههم باستمرار، على حين لا تُحصى قواهم البدنية بأي تمرين كان، يُمكن، أيضا، أن يُسفر عن أهية عظيمة في نُشونهم، وذلك بأن يُترك تمرين أبدانهم لحركات مستمرة يُلوح أن الطبيعة تطالبهم بها فيكونون في حال يمشون ويسيروا ويقضون حاجاتهم معها بأنفسهم قبل الأوان، بدلا من إرهاق نفوسهم واتعابها.

٤- ثم إن مستر لوك يُثبت، فضلا عن ذلك، إمكان وجود عامل في الإنسان يظل به مرتبطا في المرأة إذا كان ذا ولد، ولكنه لا يُثبت، مطلقا، وجوب ارتباطه فيها قبل الوضع وفي أثناء أشهر الحمل التسعة، وإذا كانت مثل هذه المرأة لا تبالى بالرجل في أثناء هذه الأشهر التسعة، وإذا ما أصبحت مجهولة لديه أيضا، فلم يساعدها بعد الوضع؟ ولم يُعِينها على تنشئة ولد لا يعرف أنه له ولم ينو ولادته ولم يُبصرها، ومن الواضح أن يفترض مستر لوك ما هو مدار البحث، وذلك لأن الأمر لا يدور حول معرفة السبب في بقاء الإنسان مرتبطا في المرأة بعد الوضع، بل حول السبب في ارتباطه فيها بعد الحمل، فإذا ما قضى الوطر عاد الإنسان لا يحتاج إلى مثل هذه المرأة وعادات المرأة لا تحتاج إلى مثل هذا الرجل، ولا يساور هذا الرجل أقل هم، ولا أقل فكر عن نتائج عمله، فأحدهما ينصرف من ناحية وينصرف الآخر من ناحية أخرى، ولا يوجد من الظاهر ما يدل على أنها من الذاكرة ما يتعارفان معه، وذلك لأن هذا النوع من الذاكرة، التي يُفضل بها فردا فردا آخر لعمل نسلي، يتطلب، كما أثبتته في المتن، تقدما أو فسادا في الإدراك البشري أكثر مما يُمكن أن يفترض في الحال الحيوانية التي هي مدار البحث هنا، ويُمكن امرأة أخرى أن تقوم، إذن، بقضاء أوطار جديدة للرجل بسهولة كما عرفت سابقا، وكذلك يُمكن رجلا آخر أن يقضى وطر المرأة، وذلك عن افتراض كونها مُعتصرة بذات الشهوة في حال الحمل، أي

عن أمرٍ يُمكن أن يُشكَّ فيه كما ينبغي، وإذا عادت المرأة في حال الطبيعة لا تُشعُرُ بهوى الرجل بعد الحبل عَظَمَ العائقُ لعشَرَتها مع الرجل كثيراً، وذلك لما تُعود غيرَ محتاجةٍ إلى الرجل الذي لَقَّحها، ولا إلى أيِّ رجلٍ آخر، ولا يُوجد في الرجل، إذن، أيُّ داعٍ إلى البحث عن ذات المرأة، كما أنه لا يُوجد في المرأة أيُّ داعٍ للبحث عن ذات الرجل، وتَسْقُطُ برهنَةُ لُوكٍ متداعيةً، ولم يَصُنْ هذا الفيلسوفَ مَنْطِقُهُ من الخطأ الذي اقترفه هُوبزُ وآخرون، وقد كان عليهم أن يوضحوا أمراً عن الحال الطبيعية، أي عن حالِ كان الناس يعيشون فيها منعزلين، فلا يكون لدى الإنسان من العوامل ما يعيش معه بجانب إنسانٍ آخر، كما أنه لم يكن لدى الناس من العوامل ما يعيش معه بعضهم بجانب بعض على ما يحتمل، أي أن يأتوا ما هو شَرٌّ، وهم لم يُفكِّروا في الانتقال إلى ما قبل عصور المجتمع، أي إلى ما قبل الأزمنة التي يكون للناس فيها، دائماً، مُوجبٌ يعيش به بعضهم بجانب بعض، والتي يكون للرجل فيها من الأسباب، غالباً، ما يعيش معه بجانب ذلك الرجل أو تلك المرأة.

(١٣)

الصفحة ٤٩: أحترزُ من الخوض فيما على أن آتبه من التأمّلات الفلسفية حول فوائد نظام اللغات ومساوئه، أى أنه لا يقع على أن أهاجم الأغاليط العامية، ويكثرُ احترام الشعب المثقف لمبتسراته فلا يطبق صابراً بدائعى المزعومة، ولنذع، إذن، يتكلم أولئك الذين لم يجعل من الجناية جراًتهم على التزام جانب العقل، أحياناً، تجاه رأى الجمهور، «فلو نفينا من العالم وباءة كل هذه اللغات واختلاطها، ولو تمسك الناس بفن واحد وأمكنهم أن يفسروا كل شيء بالإشارات والحركات ما نقص شيء من سعادة الجنس البشرى، والآن أبصرنا أن الحيوانات التى يدعوها العوام عجباً وات أفضل منا حالاً من هذه الناحية، فهى تُعبّر عن إحساساتها وأفكارها من غير ترجمانٍ بها هو أسرع وأسعد، وهذا ما يعجز عنه الناس إذا ما استعملوا لغة غريبة على الخصوص».

(١٤)

الصفحة ٥٢: بَيَّنْ أفلاطونُ مقدارَ لزوم مبادئ الكمية ذات الأجزاء المتفرقة ونسبها في أحقر الصنائع، فحُقَّ له أن يَسْخَرَ من مؤلفي زمنه الذين كانوا يَزْعَمون أن بَلَامِيدَ اخترع الأعدادَ عند حصار تروادة، كما لو كان أغامثون يجهل مقدار ما لديه من سيقان^(١)، والواقع أنه يُشعَّرُ بتعذُّر تعين ما كان قد انتهى إليه المجتمع والصنائع أيام حصار تروادة من غير أن تكون لدى الناس عادة الأعداد والحساب، غير أن ضرورة معرفة الأعداد قبل نيل معارف أخرى لا تجعل تصور اختراعها أكثر سهولة، ولما عُرِفَت أسماء الأعداد مرة سَهَّلَ إيضاح معناها وإثارة ما تنبئ عليه هذه الأسماء من الأفكار، بيد أن اختراعها اقتضى، قبل تَمَثُّل هذه الأفكار نفسها، تَعَوُّد التأملات الفلسفية والنظر إلى الموجودات بجوهرها فقط مستقلة عن كل تصور آخر، أي اقتضى، تجريدًا بالغ المشقة، بالغ ما بعد الطبيعية، قليل الطبيعية إلى الغاية، فلا تستطيع هذه الأفكار بغيره أن تُنْقَل من نوع أو جنسٍ إلى آخر، ولا أن تصبح الأعداد عامة، ويُمكن الوحش أن يتأمل ساقه اليمنى وساقه اليسرى على انفراد أو أن ينظر إليهما معًا تحت فكرة الزوجين التي لا تتجزأ، وذلك من غير أن يفكر في حيازته لاثنتين، وذلك لوجود فرقي بين الفكرة التمثيلية التي تصور لنا موضوعًا والفكرة العددية التي تُعَيِّنُه، وأقلُّ من ذلك قدرته على الحساب حتى الخمسة، وهو مع تطبيقه إحدى يديه على الأخرى يمكنه أن يلاحظ كون الأصابع تتطابق تمامًا، وهو بعيدٌ من التفكير في مساواتها العددية، وهو لا يَعْرِف عددًا أصابعه كعدم معرفته عددًا شغره، وهو إذا ما سَمِع شيئًا عن العدد فليل له إن أصابع رجليه تُعَدُّل أصابع يديه عددًا اعترته حيرة، على ما يحتمل، عندما يقابل بينها فيرى صحة هذا.

(١٥)

الصفحة ٥٥: لا يجوز أن يُخلط بين الأنانية وحبّ البقاء، أى بين العاطفتين اللتين تختلفان طبيعةً ونتيجةً، فحبّ البقاء في ذاته شعورٌ طبيعيٌّ يذفع كلَّ حيوان إلى السهر على بقائه الخاصّ، ويُسفر عن الإنسانية والفضيلة إذا ما وجّهه الإنسان بالعقل وُعدّل بالرأفة، وليست الأنانية غير شعورٍ نسبيٍّ مصنوع ناشئ في المجتمع، فيُحْمِل كلَّ فردٍ على الاكتراث لنفسه أكثر مما لغيرها، ويُوجي للناس بجميع الشُّرور، التي يصنعونها مقابلةً، ويُعدُّ مصدرَ الشرف الحقيقيّ.

وأقول بعد ذلك إن الأنانية في حالنا الابتدائية، في الحال الطبيعية الحقيقية، غير موجودة، وذلك لأن كلَّ إنسانٍ، على الخصوص، إذ كان يُعدُّ نفسه الناظر الوحيد الذي يشاهدها، الكائن الوحيد في العالم الذي يُعنى بها، القاضى الوحيد في مزبته الخاصة، فإن من غير الممكن أن يترسخ في نفسه أى شعورٍ ناشئٍ عن مقاييساتٍ لا يستطيع القيام بها، أى إن هذا الإنسان لا يستطيع لذات السبب أن يكون ذا حقدٍ أو رغبة في الانتقام، أى متصفًا بهذه الأهواء التي لا يُمكن أن تنشأ عن رأيٍ في إهانةٍ تُتلقى، وبها أن الازدراء أو نية الإضرار، لا الشَّرّ، هو الذي يُوجبُ الإهانة فإن الناس الذين لا يعرفون أن يُكرِّم بعضهم بعضًا، ولا أن يقيسوا بين بعضهم وبعضٍ، يأتون بضروبٍ من العنف مبادلةً عندما تلوح لهم فائدةٌ، وذلك من غير أن يُخنق بعضهم على بعضٍ مقابلةً، والخلاصة هي أن كلَّ إنسانٍ، إذ لا يرى أمثاله إلا كما يرى حيواناتٍ نوعٍ آخرٍ، يستطيع أن يختطف الفريسة من الأضعف ويتنزل عن فريسته للأقوى عاديًا هذه الأسلاب من الحوادث الطبيعية، وذلك من غير أدنى حركةٍ في الغيظ والعُتُو، ومن دون هوىٍ آخرٍ غير الألم أو السرور حوّل حُسنِ النجاح أو سونه.

(١٦)

الصفحة ٧٣: مما يجدر ذكره إلى الغاية أن يُقَلق الأوروبيون بالهم منذ سنين كثيرة جَلبًا لوحوش مختلف بقاع العالم إلى طراز حياتهم، وألا يستطيعوا كَسب واحد منهم حتى الآن، ولو لَنفَع النصرانية، وذلك لأن مُبَشِّرنا وإن جعلوا أناسًا منهم نصارى أحيانًا لم يُحوِّلوا هؤلاء إلى أناسٍ متمدنين قَطُّ، ولا شىء يستطيع أن يتغلب على ما يساورهم من مقبٍ متأصلٍ لانتحال طبائعتنا وطراز حياتنا، وإذا كان هؤلاء الوحوش البائسون من الشقاء بمقدار ما يُزعم فبأيِّ فسادٍ في الرأى عريقٍ يَرفُضون باستمرارٍ أن يتمدنوا مُقْتَدِين بنا، أو أن يتعلموا العيش سُعداء بيننا، وذلك على حين يُقرَأ في ألف مكانٍ أن فرنسيين وأوربيين آخرين لجأوا إلى هذه الأمم طَوَعًا وقَضُوا حياتهم كاملةً بينها من غير أن يُطيعوا ترك طراز عيشٍ بالغ الغرابة كهذا، وذلك على حين يَرى، أيضًا، مُبَشِّرون عقلاءُ بأسفون مع تَحَنُّنٍ على الأيام الهادئة البريئة التي قَضَوْها عند هذه الشعوب المُزْدَرَاة كثيرًا؟ إذا ما أُجيب عن هذا بأنها ليست من الذكاء الكافي ما تستطيع أن تُحكَم به حكمًا صحيحًا في حالها وحالتها رَدَدْتُ بقولى إن تقدير السعادة هو من عمل الشعور أكثرَ من أن يكون من عمل العقل، ومع ذلك فإن من الممكن أن يَرَدَّ هذا الجواب علينا بشدةٍ أقوى من تلك، وذلك لأن أفكارنا التي يتصرف فيها الذهن، حيث يجب أن يكون لتمثُّلُ الذوق الذي يجده الوحوش في طراز عيشهم، أبعدُ من أفكار الوحوش في تمثُّلهم طراز عيشنا، والواقعُ أنه يَسهُل عليهم أن يَرَوْا بعد بعض الملاحظات أن جميع أعمالنا تتجه نحو غايتين فقط، وهما أطايبُ النعم لذاتها والمكانةُ بين الآخرين، ولكن ما الوسيلة التي نتصور بها نوع ما يجده الهمجى من لذة في قضاء حياته في وسط الغاب، أو في صيد البحر، أو في التَّفخ في مِرْمَارِ ردىءٍ من غير أن يَعْرِف استخراجَ لحنٍ منه ومن غير أن يبالي بتعلمه؟

لقد جُلِبَ وحوش إلى باريسَ ولندنَ ومُدُنٍ أخرى عدَّةَ مرات، وقد تراحَمَ الناسَ ليعْرِضوا عليهم نفائسنا وتروايتنا وأكثرَ صنائعنا نفعًا وأدعاها إلى النظر، فلم يُبْزِ جميعُ هذا غيرَ إعجابٍ سخيفٍ فيهم مع عدم إثارة أدنى درجةٍ من الشهوة، وأذْكَرُ فيما أذْكَرُ قصةَ رئيسِ أناسٍ من

أمريكة الشمالية أتى به إلى بلاط إنكلترة منذ ثلاثين عامًا، فعرض أمام عينيه ألف شيء لتقدّم إليه هدية منها يُمكن أن تزوّقه، فلم يُوجد فيها ما يظهر أنه يبالي به، وقد بدت أسلحتنا ثقيلة عسيرة عليه، وقد جرّحت أحدثتنا رجليه، وقد ضايقته ثيابنا، فرفض جميع هذا، وأخيرًا رزى أنه تناول غطاء من صوف فظهر أنه سرّ باشمال كفيه به، ويُسأل: «تلائمكم فائدة هذا الجهاز على الأقل»، ويجيب: «أجل، يُلوح لي هذا نافعًا نفع جلد الحيوان»، ومع ذلك فإنه لم يكن ليقول ذلك لو لبس هذا وذاك عند المطر.

ومن المحتمل أن يقال لي إن العادة هي التي تُربط كل واحد بطراز عيشه، وهي التي تُحول دون شعور الهمج بما هو حسن في طراز عيشنا، فعلى هذا الحال يجب أن يُرى أن من الخوارق القوية على الأقل أن العادة تنطوي على قوة أشد في إمساك الهمج ضمن ذوق بؤسهم مما في إمساك الأوربيين ضمن تمتعهم بسعادتهم، ولكنني لكى أقدم جوابًا عن هذا الاعتراض الأخير لا يُردّ عليه بكلمة، ولكنني من غير أن أستشهد بشبان الهمج الذين عُني بتمدينهم على غير جدوى، وذلك من غير أن يُحدّث عن أهل غرُونلندة وإيسلندة الذين سُعي في تنشيتهم وتغذيتهم في دنيا ركة والذين هلكوا غمًا وقنوطًا، وذلك عن صنى أو في البحر الذى حاولوا أن يعودوا به إلى بلدهم سبخًا، أكتفى بذكر مثال واحد حُقق جَيّدًا فأقدمه إلى المُعجّبين بالسياسة الأوربية ليندُرسوه.

لم تُقدّر جميع جهود المبشرين الهولنديين في رأس الرجاء الصالح على تحويل أحد من الهوتتو عن دينه، ومما حدّث أن حاكم الكاب فان دِزستيل أخذ واحدًا منهم منذ طفولته ورَبّاه وفق تعاليم النصرانية وأساليب العادات الأوربية، وقد ألبس لباسًا زاهيًا، وقد علّم عدّة لغات، ومما نال من تقدّمٍ ناسب جَيّدًا ما بُذل من عناية لتربيته، وعلّق الحاكم أملاً كبيرًا على ذكائه فأرسله إلى الهند مع وكيلٍ عامٍ انتفع به مستخدمًا في أمور الشركة، ثم عاد إلى الكاب بعد موت الوكيل، وتمضى أيام قليلة على رجوعه فيرى في زيارة قام بها لأناسٍ من أقربائه الهوتتو أن يخلع ثيابه الأوربية ليلبس جلد شاة، ويعود إلى الأقوى بهذا اللباس الجديد حاملًا صرةً مشتملةً على ثيابه القديمة، مُقدّمًا إياها إلى الحاكم قائلاً: «تفضّل يا سيدي بأن تعلّم أننى عدلت

عن هذا الجهاز إلى الأبد، وأنسى رَجَعْتُ عن النصرانية لمدى حياتي، وأننى عَزَمْتُ أن أعيش وأموت على دين آبائي، وكلُّ ما أطلبه من لطفك أن تترك لي العِقدَ والخنجر اللذين ألبسهما، فسأحتفظ بهما حُبًّا لك»، وهو، من غير انتظارٍ لجواب فإن دُرِسْتِ، لم يَلْبَثْ أن تواري فأرًا، ولم يُرْ ثانيةً في الكاب»، (تاريخ الرحلات، جزء ٥، صفحة ١٧٥).

(١٧)

الصفحة ٧٨: يُمكن أن يُعترض على بأن الناس في مثل هذا الاضطراب يتفرقون عند عدم وجود حد لتفرقهم، وذلك بدلاً من أن يتذابحوا بعناد، ولكن هذه الحدود كانت في البداية حدود العالم على الأقل، وإذا ما فكر في فرط الأهلين الذي ينشأ عن حال الطبيعة زنى أن الأرض في هذه الحال لم تتأخر أن تُسَرَّ بالآدميين المضطربين إلى البقاء مجتمعين على هذا الوجه، ثم إنهم يتفرقون إذا ما استفحل الشرُّ، وقد وقع هذا التحول بين عشية وضحاها، غير أنهم كانوا يُولدون تحت النير، وكان من عادتهم أن يحملوه إذا ما شَعَرُوا بِثقله، وكانوا ينتظرون فرصة إلقائه عنهم، ثم بما أنهم نَعَوَدُوا الْفَ رَفاهية كانت تحملهم على البقاء مجتمعين فإن التفرق لم يكن سهلاً كما في الأزمنة الأولى، حيث كان كلُّ واحد يَحْزُم من غير أن ينتظر موافقة أحد، وذلك لعدم احتياجه إلى غير نفسه.

(١٨)

الصفحة ٨٠: رَوَى المَرِشَال دَوْفِيْلَار أَن إِفْرَاط أَحَد مَتْعَهْدِي المَيْرَةِ فِي الاِخْتِلاَس أَدَى الجَيْش وَأَثَار تَذْمَرِه فَعَزَّزَه بَعْنَف وَهَدَّدَه بِالإِعْدَام سُنْقًا، فَقَالَ لَهُ المَخْتَلِس بِجِرَاةٍ: «لَا أَبَالِي بِهَذَا الوَعِيدِ، وَيَسْهَلُ عَلَيَّ أَنْ أَقُولَ لَكُمْ إِنَّهُ لَا يُصَارُ إِلَى سُنْقٍ رَجُلٌ يَتَصَرَّفُ فِي مَائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ»، وَتُعَقَّبُ المَرِشَالُ عَلَى ذَلِكَ قَائِلًا بِسَدَاجَةِ: «لَا أَعْلَمُ كَيْفَ وَقَعَ هَذَا، وَلَكِنَّهُ لَمْ يُسْتَنْقَ قَطُّ كَمَا هُوَ الوَاقِعُ، مَعَ أَنَّهُ يَسْتَحِقُّ الإِعْدَامَ عَلَى ذَلِكَ مَائَةَ مَرَّةٍ».

(١٩)

الصفحة ٨٩: يعارض العدل الأمر بتوزيع الجزاء والعقاب على أصحابها هذه المساواة الوثيقة في الحال الطبيعية عندما يُعمل به في المجتمع المدني، وبما أن جميع أعضاء الدولة مدينون لها بخدمة تناسب مواهبهم وقواهم فإنه يجب أن يُبازر بين المواطنين وأن يُفاضل بينهم على حسب خدمتهم، وعلى هذا المعنى يجب أن تُحمل عبارة إيزوقراط^(١) التي يمتدح فيها أهل أثينة الأولين العارفين أن يميزوا جيدًا ما هو أنفع بين نوعي المساواة اللذين يقوم أحدهما على إشراك جميع المواطنين على السواء في ذات المنافع، ويقوم الآخر على توزيعها وفقّ مزية كل منهم، ويُبعد هذا الخطيب تلك المساواة الجائرة التي لا تجعل أيّ فرق بين الأشرار والأبرار فيقول مضيّفًا إن هؤلاء السياسيين الماهرين يتمسكون تمسكًا قاطعًا بما يكافئ ويعاقب كل واحد وفقّ مزيته، بيد أنه لم يوجد، أولًا، مجتمع لم يُفرّق فيه بين الأشرار والأبرار مهما كانت درجة الفساد، وأما من ناحية الأخلاق، حيث لا يستطيع القانون أن يُعيّن من التدابير الصحيحة ما يصلح اتخاذه قاعدة للقاضي، فإن من الحكمة البالغة ألا يُترك نصيب المواطنين ومقامهم لخيار هذا القاضي الذي يحظر القانون عليه أن يحكم في الناس غير تارك له سوى القضاء في الأفعال، ولا نجد غير أخلاق الرومان الصافية ما يستطيع أن يطبق الرُقباء، ومحاكم مثل هذه لا تلبث أن تُقلب بيننا رأسًا على عقب، وعلى التقدير العام أن يَضَع فرقًا بين الأشرار والأبرار، وليس الحاكم قاضيًا إلا في الحقوق الوثيقة، وأما الشعب فهو القاضي الحقيقي في الأخلاق، هو القاضي العادل، حتى الخبير، من هذه الناحية، هو القاضي الذي يُجَادَع أحيانًا، ولكن من غير أن يُفسد مطلقًا، ويجب أن تُنظّم مراتب المواطنين، إذن، وفقّ الخدم الحقيقية التي يقدمونها إلى الدولة، والتي تتقبّل تقديرًا أكثر إحكامًا، لا وفقّ مزيته الشخصية التي تدع للحكام وسيلة لتطبيق القانون تطبيقًا مراديًا.

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٥	مقدمة المترجم.....
١٣	رسالة في سؤال اقترحه أكاديمية دييون.....
١٥	إلى جمهورية جنيف.....
٢٥	المقدمة.....
٢١	كلمة حول أصل التفاوت.....
٢٥	القسم الأول.....
٦٥	القسم الثاني.....
٩٥	تعليقات.....

منتدی سور الازبکیہ

WWW.BOOKS4ALL.NET

[*https://twitter.com/SourAlAzbakya*](https://twitter.com/SourAlAzbakya)

<https://www.facebook.com/books4all.net>